ماركسية ماو تسي تونغ

اعداد جورج طرابيشي

دار الطليعة

بيروت – لبنان

نسخه للإنترنيت الصوت الشيوعي

https://sites.google.com/site/communistvoice

communistvoice@yahoo.com

فيما عدا الابواب المؤشرة بعلامة **(^)** فهي من نسخ الرفيق باشق وقد نقلها الصوت الشيوعي من حقل "ماو تسي تونغ" في القسم العربي من ارشيف الماركسيين على الانترنيت

التوكيد باللون الاحمر مع او بدون الخط السفلي من الصوت الشيوعي

تقديم

لقد نفت الاورثوذكسية الستالينية لحقبة طويلة من الزمن وجود تناقضات ذاتية ملازمة للاشتراكية. ولئن كان هناك اليوم ، بعد أفول الستالينية ، ما يشبه الاجماع على أن التناقضات – التناحرية وغير التناحرية – تستمر حتى في المجتمع الاشتراكي وان استمرارها هذا هو قانون أساسي من قوانين بناء الاشتراكية. فان ما ينبغي أن نلاحظه أن التناقضات الذاتية للاشتراكية ، في عالمنا المعاصر الشديد التعقيد ، لم تعد وقفا على الممارسة ، بل هي في سبليها أيضا الى ان تتكرس على صعيد النظرية. فالماركسية اليوم لم تعد ذلك الجسم النظري الموحد غير القابل للانقسام. ولعله من المبالغ فيه أن تتكلم ، كما يفعل بعضهم ، عن ((ماركسيات)) لا عن ((الماركسية)) ، ولكننا نستطيع بالتأكيد ان نتكلم عن نظريات ماركسية.

وهذه السلسلة الجديدة ، التي نستهلها بـ ((ماركسية ماو تسي تونغ)) والتي نأمل ان نستمر بها مع ((ماركسية تروتسكي)) و ((ماركسية روزا لوكسمبورغ)) و ((ماركسية غارودي)) وماركسية لوكاش وكاسترو وماركوز وسلطان علييف وستالين الخ ، لا تزعم ، كما قد يوحي عنوانها ، أنها تكرس انقسام الماركسية ، كما لا تدعي أن نقطة انطلاقها ووصولها هي صمت اللاتواصل بين ((الماركسيات)) وبالتالي بين الماركسيين ، بل هي ترمي على العكس الى التوكيد على ان وحدة الجسم النظري للماركسية ما زالت ممكنة وضرورية ، ولكن بشرط أن تكون هذه الوحدة صيرورة ومحصلة وتركيبا ، لا معطى سابقا ثابتا ، وبالتالي مجردا وعقيما.

لقد رفع الماركسيون الصينيون ذات يوم شعار : ((الوحدة – النقد – الوحدة)). ولعلنا لو أدخلنا شيئا من التعديل على هذا الشعار ، لأمكن لنا أن نضع معادلة – باللغة العمومية في الحقيقة – لما نعنيه بالجسم النظري الموحد للماركسية : ((الوحدة – التناقض – الوحدة)). وبعبارة أخرى ومقتضبة. ان وحدة الماركسية لا يمكن ان تكون الا وحدة تناقضية.

ان الوحدة والتناقض هما المقولتان الاساسيتان للجدل الماركسي. والحال ان الجدل الماركسي ليس منهجا برسم التصدير فحسب ، ليس منهجا خارجيا لدراسة قوانين تطور المجتمع والتاريخ فحسب ، ليس منهجا خارجيا لدراسة قوانين تطور المجتمع والتاريخ فحسب ، ليس منهجا خارجيا لدراسة قوانين تطور المجتمع والتاريخ فحسب ، بل هو أيضا المنهج الذاتي لتطور الماركسية نفسها. ووحدة الماركسية ، من وجهة نظر الجدل الماركسي بالذات. لا بد ان تكون المحصلة المتجددة دوما لحركة التناقضات والا فان مسألة تجاوز الماركسية ، او على الاقل مسألة الهرطقات والتحريفات ((الماركسوية)) تصبح مسألة مطروحة على جدول أعمال التاريخ.

وما ينطبق على الماركسية ككل متناقض ومتطور ينطبق ايضا – وبالضرورة – على مظاهر الانقسام في الماركسية المتفرعة والمتطورة عن ماركسية المؤسسين. ماركسية ماركس وانجلز الكلاسيكية. وهذا معناه ان جدل الوحدة والتناقض يسري مفعوله ايضا على ((الماوية)) و ((التروتسكية)) و ((الستالينية)) الخ. ومن هنا كان حرص هذه السلسلة الجديدة على ان تقدم للقارىء العربي وجهات نظر متباينة بل متناقضة ، لا وجهات نظر متماثلة ، في محاولة للاحاطة بكل تيار متمايز من تيارات الماركسية التاريخية والمعاصرة.

لنأخذ على سبيل المثال هذا الكتاب الاول من السلسلة.

انه يتضمن ثلاث دراسات. الاولى لستيوارت شرام الذي يعد اليوم مرجعا وثقة في كل ما يتعلق بالماركسية ((الآسيوية)) و ((الماوية)). وهو يحاول في هذه الدراسة أن يقدم تركيبا لفكر ماو تسي تونغ على مدى تطوره ، أي بدءا من مرحلته ما قبل الماركسية الى مرحلة الثورة الثقافية ، وهذا في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاخلاقية والثقافية والقومية والاممية التي طمه ذلك الفكر الى ان يكون دليلا للعمل الثوري فيها.

والدراسة الثانية هي لروجيه غارودي الذي كان حتى الامس القريب الناطق النظري بلسان الحزب الشيوعي الفرنسي. وبالفعل ، ان دراسة غارودي هذه تعبر

في كل سطر من سطورها عما يمكن وصفه بأنه وجهة النظر الرسمية – او على الاقل شبه الرسمية – لا للحزب الشيوعي الفرنسي وحده بل لجميع الاحزاب الشيوعية التي أخذت بهذا القدر او ذاك بوجهة النظر السوفياتية في النزاع الصيني – السوفياتي.

وسلبية غارودي هذه من الماوية هي التي أملت ان تكون الدراسة الثالثة بمثابة ((دفاع عن الماوية)) بقلم مفكر من مفكري اليسار الجديد في اوروبا ، بيرند أولغارت. وهذا الدفاع مزدوج : انه أولا دفاع عن الماوية ضد من يمكن وصفهم ب ((الغاروديين)) ، ودفاع عنها ثانيا ضد من يسمون أنفسهم ب ((الماويين)) من اليساريين الجدد في أوربا ممن لم يفهموا ان الماوية هي ممارسة نوعية للثورة الصينية وليست نظرية شمولية ، وان عظمتها انما تكمن في عدم قابليتها للتصدير [١].

واستكمالا لهذه الصورة المتناقضة – تناقضا جدليا ومثمرا على ما نأمل – التي أردنا أن نقدم بها ((ماركسية ماو تسي تونغ)) ، حرصنا على اتباع تلك الدراسات الثلاث بنصوص مسحوبة من التداول لماو تسي تونغ ، أي نصوص لم تسبق ترجمتها الى العربية ولم ترد في المجلدات الاربعة من ((مؤلفات ماو تسي تونغ المختارة)) ولا في المنشورات الصينية الرسمية المعاصرة. وهذه النصوص هي جزء من محصلة العمل الوثائقي الطويل والشاق الذي قام به ستيوارت شرام في مكتبات عدد من الجامعات والمعاهد المختصة.

وأخيرا فقد ثبتنا بعد النصوص ((فهرسا تاريخيا)) بالمعالم والاحداث الاساسية في حياة ماو تسي تونغ والصين.

هذه هي الخطة التي سلكناها في اعداد هذا الكتاب.

---

[١] - لا يتفق الصوت الشيوعي مع هذا الطرح الاخير ، فنحن نرى ان النمط الماوي للاشتراكية والبرنامج الاقتصادي للشيوعية الماوية ، ونهجها للانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية بصورة تدريجية عبر حقبة طويلة من الزمن ، هو البديل الصحيح للنمط الروسي للاشتراكية الذي ثبت فشله بانهيار الاتحاد السوفياتي. لقد نجحت الاشتراكية اقتصاديا في الصين وكان انهيارها بعد وفاة ماو تسي تونغ فشل سياسيا فحسب. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

وأملنا ان نستطيع مواصلتها في الكتب التالية من السلسلة.

جورج طرابيشي

ستيوارت شرام :

فكر ماو تسي تونغ وشخصيته

ان الافكار تنبثق من التاريخ ، ولكنها تصنع التاريخ أيضا. وعلى هذا ، عندما يكون موضوع البحث ثوري لينيني من طراز ماو تسي تونغ الذي يرى في فكره بالذات أداة لتغيير المجتمع. لا يكفي أن ندرس تكوين فكره انطلاقا من وضع الصين في اوائل القرن العشرين ، بل ينبغي أيضا ان ندرس الطريقة التي يستخدم بها ماو تسي تونغ والجهاز السياسي الذي يتزعمه ذلك الفكر من أجل تغيير وجه الصين.

بيد ان المشكلة لا تتوقف عند هذه الحدود . فماو تسي تونغ يحكم اليوم ربع البشرية قاطبة. وظل قوته يمتد عبر آسيا بأسرها ، ونفوذه الايديولوجي محسوس من اندونيسيا الى ألبانيا ومن افريقيا الى أمريكا اللاتينية. فمن المستحيل اذن ان ندرس فكره وان نسقط في الوقت نفسه من حسابنا التأثير المحتمل لصيغته المبتكرة عن اللينينية بين شعوب البلدان المتخلفة الاخرى الباحثة عن نموذج مناسب لتحويل مجتمعاتها بأقصى سرعة ممكنة.

هذه هي اذن الاسئلة الثلاثة التي سنحاول الاجابة عليها في هذه الدراسة : من أين جاء فكر ماو؟ الى أين يسير؟ ما انعكاساته على تطور العالم؟

(١)
تكوين فكر ماو تسي تونغ

ان فكر ماو تسي تونغ متأثر كما أشرنا بالوضع التاريخي الذي نما فيه وترعرع، وبالتيارات الفكرية المتعددة التي وقع تحت تأثيرها ، وكذلك بشخصيته الخاصة التي في غاية القوة والبروز.

الصين في مرحلة الانتقال

ان التطور الذي راحت الصين تسير فيه منذ الزمن يطلق عليه تارة اسم ((تحديث)) وطورا اسم ((تغريب)). بيد ان كلا هذين المصطلحين لا يطابقان واقع الحال حقا . فما جرى في الصين لم يكن محض تحديث فحسب ، أولا لان الامبراطورية الصينية في القرن الثامن عشر لم تكن ذلك الكيان الثابت الساكن الذي رآها عليه المراقبون الاوروبيون ، وثانيا لان التغيرات التي حدثت فيها ما كانت لتحدث لا في الموعد نفسه ولا بالاسلوب نفسه لولا تدخل الغرب. وما جرى في الصين لم يكن محض تغريب فحسب ، لان الافكار والتقنيات التي أخذتها الصين عن الغرب قد دمجت بكيان حي يظل صينيا اكثر من أن منه بكثير غربيا. وهذه هي الحال اليوم أيضا ، بالرغم من أن مصائر الصين تقررها منذ سنوات عديدة الماركسية – اللينينية ، تلك الايديولوجيا ((الغربية)) قلبا وقالبا.

عندما بدأ غزو ((البرابرة الغربيين)) للصين مع حرب الافيون في عام ١٨٤٠ ، وعندما قام البرهان القاطع على تفوق تقنياتهم العسكرية ، عملت النخبة الحاكمة في الصين ما في وسعها على تجهيز جيوشها بالاسلحة نفسها حتى تكون قادرة على منازلة الغزاة على قدم المساواة. ولكن لم يخطر قط لحكام الامبراطورية ان من صالحهم أن يدرسوا أيضا المبادىء الناظمة للمجتمع والاقتصاد الاوروبيين. فقد كانت قناعتهم وطيدة بتفوق ثقافتهم الخاصة ونظامهم الاجتماعي الخاص. وهذا للاسباب التالية :

أ – ان الصين لم تنتم قط الى منظومة من دول تقيم فيما بينها علاقات مساواة ، بل كانت تؤلف منذ آلاف السنين عالما على حدة ولا تتعامل الا مع شعوب أقل قوة وتنظر الى ملوك هذه الشعوب على أنهم بالبداهة أتباع ابن السماء الحقيقي الاوحد ، الامبراطور الصيني .

ب – ان الصينيين ، باستثناء استيرادهم للبوذية من الهند في مستهل التاريخ الميلادي ، قد اتصلوا على الدوام بشعوب لا تقل عنهم قوة فحسب ، بل تتخلف عنهم

ثقافة أيضا ، ومن هنا كان ميلهم الى ان ينظروا الى حضارتهم الخاصة على أنها هي الحضارة.

ج – كان من صالح النخبة الحاكمة الحفاظ على الايديولوجيا الكونفوشية ، لان في مقدمة مبادئها تبعية المرؤوس للرئيس هرميا ، ولان مثل هذا المبدأ يعزز مواقعها.

ولئن كان البندان الاولان يفسران ميل النخبة الصينية الطبيعي الى اعتبار الاجانب أجمعين ، بما فيهم الاوروبيين ، برابرة أدنياء ، فان النقطة الثالثة تفسر جزئيا تحفظ حكام الصين وامتناعهم عن التفكير باجراء تعديلات على جوهر النظام، حتى بعد أن زعزعت الاحداث ثقتهم في التفوق المطلق لكل ما هو صيني.

بيد أن النخبة الحاكمة في الصين وجدت نفسها ، مع مر الايام ، مكرهة على الاعتراف بأنه من غير الممكن اقتباس الاسلحة عن الغرب من دون ان تخلق القاعدة الصناعية لانتاجها ، وانه من غير الممكن انشاء صناعة حديثة من دون ان تقتبس لا المعارف التقنية الغربية فحسب ، بل ايضا جملة من الافكار والمواقف الهدامة بالنسبة الى النظام السياسي والفكري القائم. وقد آثر جيل من الصينيين التضحية بتقوية البلاد على التضحية بما كانوا يعتبرونه مبرر وجود الصين. ولكن الاجيال التالية كانت اكثر جرأة ، اذ أبدت استعدادها لا للتضحية بالنظام السياسي القائم فحسب ، بل أيضا للتضحية بمجمل الثقافة التقليدية بهدف انقاذ البلاد. ولقد كان هؤلاء الرجال من وجهة النظر السياسية مصلحين جريئين ، ثم ثوريين. أما من وجهة النظر الفكرية فما كانوا من أنصار الثقافة بقدر ما كانوا قوميي النزعة. وقد عبر شن دو كسيو[1] عن وجهة نظر هذا التيار بقولته المشهورة : ((انني لأفضل دمار ((اصالتنا القومية)) على فناء بني جلدتنا في الحاضر وفي المستقبل بسبب عدم قابليتهم للاستمرار في الحياة)).

---

[1] - مؤسس الحزب الشيوعي الصيني فيما بعد. ((المعرب))

والواقع ان جميع الذين لعبوا دورا فعليا في حياة الصين الفكرية ابتداء من مطلع القرن العشرين كانوا معنيين بمصير الامة اكثر من عنايتهم بمصير التراث والثقافة التقليدية. وضمن هذا الاطار العام تعددت المواقف وتنوعت. فهناك من كان يقف موقفا معاديا من الدول الغربية ، وهناك من كان يعتبرها محسنة الى الصين. وهناك من كان يرى أن الاداة الوحيدة لخلاص الامة الصينية هي بعث الثقافة التقليدية وتجديدها ، وهناك من كان يرى أن الصين لن تتخطى ضعفها الا اذا تعلمت من الغرب وقلدته. وهناك أخيرا من وجد في نظرية الامبريالية مبررا جديدا لمعاداة الغرب سياسيا ، مع الايمان في الوقت نفسه بضرورة سير الصين على طريق الغرب البروميثيوسي ، طريق تحويل الطبيعة والمجتمع. ومن الممكن ان نطلق اسم ((النزعة القومية التقليدية)) على التيار الداعي الى بعث التراث وتجديده بهدف تقوية الامة ، و ((النزعة الغربية الجذرية)) على التيار الذي اعتبر الصين مسؤولة ذاتيا عن ضعفها ودعا الى الاقتداء بالغرب ، و ((النزعة القومية الثورية)) على مختلف التيارات التي عزت مصائب الصين الى الامبريالية وارتأت ان طريق الخلاص يكمن في قلب المجتمع الصيني وتحويله بحيث تتولد فيه ديناميكية شبيهة بديناميكية الغرب. وتاريخ العقدين الاولين من القرن العشرين هو تاريخ تراجع ((النزعة القومية التقليدية)) وتقهقرها من دون ان تتوارى عن الانظار نهائيا ، وتاريخ الانتصار السريع والقصير العمر ل ((النزعة الغربية الجذرية)) ، واخيرا تاريخ تقدم ((النزعة القومية الثورية)) واشتداد ساعدها.

في هذا السياق ترعرع ماو تسي تونغ الذي يستحيل علينا ان نفهم فكره اذا لم نأخذ بعين الاعتبار هذه الخلفية التاريخية المحددة. وهناك سياق آخر اكثر تحديدا وبالغ الاهمية ، سياق ((حركة ٤ أيار)). وما حركة ٤ أيار ١٩١٩ ضد قرار مؤتمر الصلح في باريس الذي اعطى اليابان الاستثمارات الالمانية القديمة في اقليم شاندونغ بدلا من ان يعيدها الى الصين. ولكن تظاهرات الشوارع والاضرابات في بكين وفي المدن الصينية الاخرى في أيار وحزيران ١٩١٩ لم تكن في الواقع الا واحدة من نقاط الاوج في مرحلة من التغير السياسي والثقافي السريع تمتد من عام

١٩١٥ ، عام انشاء مجلة شن دو كسيو ((الشبيبة الجديدة)) الى عام ١٩٢١ ، عام تأسيس الحزب الشيوعي الصيني. وهذه التواريخ تتطابق على نحو مثير للانتباه مع أعوام تكوين ماو تسي تونغ الذي باشر نشاطه السياسي الاول في عام ١٩١٥ ايام كان طالبا في دار المعلمين في شانغشا ، وساهم في حركة ٤ أيار ١٩١٩ ، واهتدى الى الماركسية في العام التالي وشارك في المؤتمر الاول للحزب الشيوعي الصيني في تموز ١٩٢١.

ماو في مرحلة ٤ أيار

ولد ماو في عام ١٨٩٣ من أسرة فلاح فقير اغتنى وصار تاجر حبوب. وقد تعرض ، شأنه شأن معظم فتيان جيله ، الى تأثير نزعات التحديث والتغريب المتنوعة. وقد أمضى ستة أشهر من عام ١٩١٢ في مكتبة شانغشا يلتهم الكتب الغربية المترجمة : آدم سميث ، داروين ، ميل ، سبنسر ، روسو ، مونتسكيو. وقد أعجب بعدد من دعاة رالاصلاح الصينيين ، ولكن ولعه في عام ١٩١٥ بشن دو كسيو فاق كل اعجاب.

ولو أردنا تحديد وضع ماو الفكري عشية حركة ٤ أيار ، لتوجب تشديد اللهجة على سمتين اثنتين : الاعجاب بالقوة والبطولة العسكريتين ، ونزعة قومية جامحة. ولعل ماو اكتشف اهمية القدرة العسكرية ابان الاشهر الستة التي قضاها في الجيش في أعقاب ثورة ١٩١١ التي أطاحت بالسلالة المالكة ، ولكن تصوره عن البطل مستمد بالاحرى من التاريخ الصيني والروايات الشعبية. فقد كان معجبا من بين الاباطرة الصينيين بأولئك الذين وحدوا الصين ووسعوا كيانها. وكان مسحورا بأبطال الروايات الشعبية من المحاربين واللصوص الذين يساعدون الفقراء ويهاجمون الاغنياء والظالمين.

والمقال الذي نشره ماو في نيسان ١٩١٧ في مجلة ((الشبيبة الجديدة)) تحت عنوان ((دراسة التربية البدنية)) غني بالدلالات عن تكوينه الفكري في ذلك العهد .

فالسمتان البارزتان في المقال، كما ذكرنا آنفا ، هما النزعة القومية والروح العسكرية. ويضاف اليهما سمة ثالثة هي تبجيل العمل الواعي والمبادهة الفردية بالتعارض مع التنفيذ المحض للاوامر. وهذه السمات ثابتة في حياة ماو وفكره ، وان كانت السمة الثالثة تتعارض الى حد ما مع اكتشاف ماو المبكر لأهمية التنظيم والانضباط كما سنرى. ويبدو فكر ماو في المقال محافظا اكثر منه ثوريا ، وصينيا تقليديا اكثر منه غربيا. والنص مليء بالاحالات الى الكلاسيكيين الصينيين. ولكن من الخطل الزعم أن ماو الشاب ، كما يكشف عنه مقال ((دراسة التربية البدنية)) ، لم يتأثر بالافكار الحديثة والجذرية. فلئن كان ماو يدين بعبادة القوة والشجاعة للكلاسيكيين والمصلحين الصينيين ، فان تغنيه بالنزعة الفردية نتيجة ملموسة للتأثير الذي مارسه عليه مجلة ((الشبيبة الجديدة)) التي كونت الشق الحديث والغربي من شخصيته في ذلك العصر.

وعندما تخرج ماو من دار المعلمين في شانغشا في ربيع ١٩١٨ ، كانت أفكاره ، شأنه في ذلك شأن أفكار أبناء جيله قاطبة ، مزيجا من التأثيرات الصينية والغربية. وقد وصف فيما بعد في سيرته الذاتية ذهانيته في ذلك العصر بأنها كانت ((خليطا مثيرا للفضول من أفكار الليبرالية ، والاصلاحية الديمقراطية ، والاشتراكية الطوبائية)). ويضيف بأنه كان ((معاديا بكل وضوح للطبقة العسكرية وللامبريالية)).

واذا كان ماو قد وجد نفسه ممزقا بين مؤثرات متناقضة ، فان ذلك لم يمنعه من أن يلعب دورا تحريضيا ، ابان سنوات الدراسة في شانغشا ، في تشكيل منظمة طلابية ((جمعية دراسة الانسان الجديد)) كان لها اتجاه واضح ومحدد نسبيا ، مستوحى في جوهره من مجلة ((الشبيبة الجديدة)). وفي خريف ١٩١٨ ذهب الى بكين حيث اتصل لاول مرة في حياته بالمبشرين بمختلف المذاهب التي ستجد تعبيرها عما قريب في حركة ٤ أيار. وقد تمكن ماو من الحصول على وظيفة مساعد أمين مكتبة ، ولم يكن أمين المكتبة هذا غير لي دا زهاو الذي كان يتجسد في شخصه لقاء الافكار الغربية الاكثر جذرية والنزعة القومية الصينية.

وان هي إلا فترة وجيزة حتى اصبح لي دا زهاو ، مع شن دو كسيو ، أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني. بيد ان الخلاف بين الرجلين عميق مع ذلك. ومن الممكن القول ، دونما اغراق في التبسيط ، ان شن كان قبل كل شيء نصيرا للتغريب انتهى به الامر الى اختيار الشيوعية كأنجع وسيلة لتحديث المجتمع الصيني. وبالمقابل كان لي في المقام رجلا قومي النزعة رأى في النظرية اللينينية عن الامبريالية تبريرا لمواقفه القومية المتعصبة. ولئن كان شن دو كسيو قد تبنى الماركسية في عام ١٩٢٠ ليس الا ، فانه قد تمثل بسرعة مفاهيمها الرئيسية كافة ، ولا سيما ما يتعلق منها بصراع الطبقات. أما لي دا زهاو فقد تحمس للثورة البلشفية، ولكنه لم يتوصل قط الى تأطير تفكيره بالمقولات الماركسية ، ولا الى التخفيف من حدة نزعته القومية. واذا كان ماو يدين للاثنين بشيء من تكوينه ، فان دينه للي اكبر من دينه لشن.

واذا كنا نؤكد ههنا ان ماو أقرب في فكره وشخصيته الى لي منه الى شن ، فان توكيدنا هذا لا يعدو ان يكون اكثر من وسيلة غير مباشرة للتعبير عن الاطروحة الاساسية التي نتقدم بها في هذه الدراسة ، وهي ان ماو تسي تونغ ثوري لينيني راسخ القناعة ، يجري محاكماته العقلية بواسطة المقولات الماركسية ، والنوابض العميقة لشخصيته كامنة في ميراثه الصيني ، وهو مهتم بمجد الصين قدر اهتمامه على الاقل بالثورة العالمية.

وقد نشر لي دا زهاو في مستهل عام ١٩١٩ مقالا في احدى صحف بكين بعنوان ((الشبيبة والقرى)) ، تضمن آراء تشبه الى حد مثير آراء الشعبيين الروس الاوائل. فقد امتدح لي التفوق الاخلاقي للريف على المدينة واكد قائلا : ((ان صيننا أمة ريفية ، ويؤلف فلاحوها غالبية الطبقة الكادحة. واذا لم يتحرروا ، فان الامة بمجملها لن تكون قد تحررت)).

وكان ماو ، كما أشار الى ذلك بنفسه في خطاب له عام ١٩٤٢ ، قد قطع صلاته بالريف ابان سنوات اقامته في شانغشا. ولم يعاود اكتشاف الطبقة الفلاحية الا بعد خمسة أو ستة أعوام من اقامته في بكين ، ومن المحتمل أن يكون لي دا زهاو أول

من قاد خطاه على هذا الطريق. ومن المرجح أيضا ان يكون لي قد لقنه ((مذهبا شعبيا)) أوسع أفقا أيضا يقوم على تصور يرى ان الامة ، باستثناء حفنة من المستغلين ، تتألف من شغيلة مطالبين بوعي تضامنهم في وجه الملوك والارستقراطيين والعسكريين والرأسماليين.

ويؤرخ ماو بنفسه لتاريخ اهتدائه الى الماركسية فيقول انه كان في ربيع ١٩٢٠. ويؤكد ان تطوره باتجاهها قد بدأ في ١٩١٨ – ١٩١٩ ((تحت تأثير لي دا زهاو)). وهذان التوكيدان يبرران الفكرة القائلة بأن الاندفاع الثوري متقدم على الانتماء الى الماركسية في حالة ماو كما في حالة لي.

وفي ربيع ١٩١٩ رحل ماو الى شانغهاي ليودع بعض أصدقائه الذين كانوا يقصدون فرنسا للعمل والدراسة. وقد هتف بهم ساعة الرحيل : ((ادرسوا جيدا حتى تنقذوا البلاد!)). ثم قفل راجعا الى شانغشا لينهمك في النشاط السياسي الذي تعاظم نطاقه بعد تظاهرات ٤ أيار في بكين.

وقد دلل ماو ابان الاشهر التالية على طاقة معجزة. فقد نظم حركة ضد ((سيد الحرب[1])) في اقليمه. ووجه عددا من المجلات التي أغلقتها الشرطة الواحدة تلو الاخرى ، ولما لم يبق له من منبر خاص به أرسل مقالات لا يحصى لها عد الى صحف شانغشا. ومن المؤسف اننا لا نملك النص الكامل لأي من كتاباته في ذلك العصر. ويبدو ان أهم مقالاته آنذاك مقال على ثلاثة أقسام نشره في مجلته ((نقد هونان)) تحت عنوان ((الاتحاد الكبير للجماهير الشعبية)) ، وفبه يفصح عن اعجابه بالعظمة التاريخية للشعب الصيني ويؤكد ان الشعب في العالم قاطبة يجب ان يتحد ضد الحفنة الضئيلة من ((الارستقراطيين)) و ((الرأسماليين)) ، ويشدد اللهجة على أهمية الوعي والارادة. ويبرز في المقال عنصر جديد : فكرة منظمات منفصلة للعمال ، للفلاحين ، الخ. ويبدو انه قد استقى تصوره عن امكانية الوصول الى اتحاد قومي كبير عن طريق تجميع ((اتحادات)) أضيق نطاقا يضم كل منها فئة خاصة

---

[1] - سادة الحرب طبقة عسكرية انفردت بأقاليم الصين بعد سقوط ثورة ١٩١١ وقضت على الكيان القومي بالتمزق. ((المعرب))

من السكان ، من تجربة حركة ٤ أيار التي شهدت ولادة عدد لا يحصى من المنظمات الصغيرة التي اتحدت فيما بعد في منظمات أرحب.

وأول نص لماو تفوح منه رائحة الماركسية يعود تاريخه الى تشرين الثاني ١٩٢٠. وقد كتبه بمناسبة الذكرى الاولى لتأسيس ((الرابطة العمالية)) ، وتكلم فيه للمرة الاولى عن دور العمال القيادي. كما تقدم بجملة أفكار بصدد أهمية التنظيم ، قريبة كل القرب من التصور اللينيني عن المركزية الديمقراطية. ومما يلفت النظر أيضا في المقال أنه يتكلم عن العمال وحدهم ولا ينبس بحرف واحد عن التحالف مع الفلاحين أو مع أي طبقة أخرى. وجلي ههنا ان ماو ، شأنه في ذلك شأن معظم من سيكونون رفاقه في الحزب الشيوعي الصيني ، لم يكن يفكر ، في السنوات الاولى من اهتدائه الى الماركسية ، الا بثورة بروليتارية خالصة ، وقد استغرق بعض الوقت ليستوعب التصور اللينيني عن ثورة قومية في البلدان التابعة تقوم على اكتاف تحالف العمال والفلاحين وقسم من البورجوازية.

النظرية اللينينية عن الثورة في البلدان المتخلفة

ان ظاهرة السيطرة السياسية والاقتصادية لاوروبا وأميركا على البلدان المتخلفة – وهي الظاهرة التي أطلق عليها نقادها وأنصارها معا اسم ((الامبريالية)) – قد راحت تفرض نفسها اكثر فاكثر في مستهل القرن العشرين على القادة والمفكرين الاشتراكيين. فقد رأى بعضهم ، من امثال ادوار برنشتاين ، أن الاستعمار خدمة تؤديها الشعوب المتحضرة الى الشعوب غير المتحضرة. واكد بعضهم الآخر ، من أمثال كارل كاوتسكي ، ان الاستعمار نفي لرسالة الحضارة. ولكنهم كانوا جميعهم تقريبا ينظرون الى الشعوب المستعمرة على انها مواضيع[1] سالبة ، عاجزة عن التأثير في مصائرها الذاتية. بل ان ثورية جذرية مثل روزا لوكسمبرغ كانت مقتنعة بأن كل مقاومة من جانب الشعوب المستعمرة مستحيلة ، وبأن العالم لن يعرف

---

[1] - جمع موضوع ، عكس الذات الفاعلة. ((المعرب))

الخلاص الا على يد البروليتاريا الاوروبية. ولقد كان لينين من أوائل الذين تحرروا من مركزية الذات الاوربية هذه ، ونوهوا بالامكانية المتاحة لآسيا في ان تلعب دورا فعالا في الثورة العالمية. وقد تقدم بمثل هذه الافكار غداة هزيمة اليابان لروسيا ، ثم نهجها في كتابه المعروف ((الامبريالية ، أعلى مراحل الرأسمالية)). ويرى لينين ان أرباح استغلال آسيا وأفريقيا هي التي مكنت بورجوازية البلدان الرأسمالية من رشوة قسم من الطبقة العاملة الاوروبية ، وان الثورة الكولونيالية بوضعها حدا لهذه الامكانية ستجعل باندلاع الثورة في المتروبولات.

ومنذ ان صاغ لينين في عام ١٩١٦ الاطروحة القائلة بأن الثورات في المستعمرات ممكنة ومرغوبة في آن واحد ، وقادرة على التعجيل بالثورة في أوروبا، لم يتنطع أي مفكر شيوعي للتشكيك فيها. وبالمقابل لا نلفى مثل هذا الاجماع فيما يتعلق بنوع ((الثورة)) التي يفترض فيها ان تنشب في البلدان المتخلفة، وبالطبقة التي ستقود هذه الثورة. بيد أن بعض المبادىء العامة حظيت بنوع من الثبات. فمن المتفق عليه ان الثورة ، كما في البلدان الرأسمالية بالذات ، ستمر بمرحلتين ، مرحلة ((بورجوازية ديمقراطية)) ومرحلة اشتراكية ، ولكن دور البورجوازية سيكون اكثر تقدمية بالمقارنة مع دورها في البلدان الاوروبية نظرا الى المصلحة المشتركة بين جميع الطبقات في معارضة السيطرة الاجنبية. ولكن دور البورجوازية سيكون اكثر تقدمية بالمقارنة مع دورها في البلدان الاوروبية نظرا الى المصلحة المشتركة بين جميع الطبقات في معارضة السيطرة الاجنبية. ولكن ما ستكون العلاقة بين المرحلة الديمقراطية والمرحلة الاشتراكية؟ والاهم من ذلك ، هل ستكون الثورة البورجوازية من صلاحية البورجوازية المؤيدة من قبل البروليتاريا ، أم ان كلتا المرحلتين سيتم اجتيازهما تحت هيمنة الحزب الشيوعي؟

لقد عدل لينين في مناسبات عدة من وجهات نظره بصدد هذه المسائل ، وذلك بدلالة الوضع الذي كان يواجهه ، ولكنه توصل في أواخر حياته الى موقف مستقر نسبيا ، بله خال من الالتباسات ، وجد اكمل وأدق تعبير عنه في مناقشات المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية في تموز ١٩٢٠.

وقد اصطدمت ثلاثة اتجاهات في ذلك المؤتمر : اتجاه ((غربي)) متطرف يمثله سيراتي ، واجاه ((شرقي)) يمثله م. ن. روي ، وهو شيوعي هندي سيلعب فيما بعد في الصين دور مندوب الأممية الشيوعية ، واتجاه ثالث متوسط بين الاثنين يمثله لينين. ولم يلاق التجاه الاول ، الذي كان يهون من اهمية البلدان المتخلفة ، من مؤيدين. ففي أعقاب انهيار الامل في قرب قيام الثورة في أوروبا ، اتجهت الانظار نحو آسيا ، وما كان المندوبون ليرحبوا بموقف يسقط آسيا من الحساب. وعلى هذا فقد قامت المناظرة الحقيقية بين لينين ، الذي كان المقرر الرسمي حول ((المسألة القومية والكولونيالية)) ، وبين روي الذي تقدم بأطروحاته الخاصة حول هذا الموضوع. وقد اختلف الرجلان ، أول ما اختلفا ، على اهمية كل من الثورة البروليتارية في اوروبا والثورة القومية في المستعمرات. فقد جعل روي من الثورة الثانية الشرط اللازم والمسبق للأولى. وكان في مثل هذا الطرح مغالاة غير مقبولة بالنسبة الى لينين الذي كان على استعداد لان يعزو الى آسيا وزنا معادلا ، ولكن من دون ان يقلب موقف الأممية الثانية رأسا على عقب فيجعل من العمال الاوروبيين مجرد مواضيع سالبة تنتظر المبادرة من الشرق. وقد أيد المؤتمر موقف لينين بهذا الصدد ، ولكن هذا القرار لم يضع نهاية لاتجاه الشيوعيين الآسيويين الى اعتبار بلدانهم المركز الحقيقي للثورة في القرن العشرين – وهو الاتجاه الذي وجد ذروة تعبيره في موقف الصين الشيوعية اليوم.

أما النقطة الثانية في الخلاف بين لينين وروي فقد كانت تتعلق بطبيعة العلاقات مع الثوريين البورجوازيين. فقد تكلم لينين في أطروحاته الاصلية عن التعاون مع الحركات ((البورجوازية الديمقراطية)). وتنازلا منه ازاء موقف روي قبل باستبدال هذا التعبير بعبارة الحركات ((القومية الثورية)). ولكنه أشار بوضوح اثناء المناقشة الى ان الامر لا يتعدى في نظره ان يكون اكثر من تعديل لفظي. أما روي فقد طالب، من جانبه ، ان تؤكد البروليتاريا – أي الشيوعيون – هيمنتها على الصيرورة الثورية بأكملها من البداية الى النهاية. وقد أقر لينين بأن مثل هذا الامر هو غاية الاماني. ولكنه أبدى استعداده ، بوصفه انسانا واقعيا وقائدا للدولة

السوفياتية يرغب كل الرغبة في اضعاف الامبرياليين بأي وسيلة كانت ، لتسليم قيادة الثورة في شروط محددة الى البورجوازية في المستعمرات ، بانتظار امتلاك الشيوعيين للقدرة على تولي الامر بأنفسهم. وهنا أيضا نجد نقاط تشابه مثيرة للفضول في المناقشة بين لينين وروي وفي المناظرة بين السوفييت والصينيين اليوم.

ولقد اتفق لينين وروي بصدد نقطة واحدة على الأقل وهي : حيثما يفلح الشيوعيون فعلا في فرض هيمنتهم على الثورة ، يصبح في مستطاعهم ان يقودوا الجماهير الفلاحية الى الاشتراكية بدون المرور بمرحلة رأسمالية. وسوف نتكلم فيما بعد عن دور الفلاحين في الثورة عندما نتطرق الى تجربة ماو تسي تونغ في ١٩٢٥ ــ ١٩٢٧. ولنكتف في الوقت الراهن بتلخيص خط الاممية في عام ١٩٢٠ بصدد الثورة في البلدان المتخلفة قائلين : ان هذه الثورة لن تكون في نظر لينين ورفاقه اجتماعية فحسب بل قومية ، ولن تكون من صنع الطبقة العاملة وحدها ، ولا حتى من صنع تحالف البروليتاريا والطبقة الفلاحية ، بل يتوجب على الشيوعيين ، حيثما وجدت برجوازية مستعدة للقتال ضد السيطرة الاجنبية ، ان يتحالفوا معها بل ان يسمحوا لها بقيادة الثورة في مرحلتها الاولى.

من العصبوية الى التعاون مع الكيومنتانغ

اذا كان هذا هو خط الأممية ، يصعب علينا في هذه الحال القول بأن الشيوعيين الصينيين قد فهموه او قبلوا به في ذلك العهد. ففي ((القرار الاول بصدد أعداف الحزب الشيوعي الصيني)) ، وهو القرار الذي تبناه المؤتمر الاول للحزب في تموز ١٩٢١ ، ورد التوكيد التالي : ((يحسن ، تجاه الاحزاب السياسية القائمة ، تبني موقف استقلالي ، هجومي ، استعبادي ... ان على حزبنا ان يهب منتصبا باسم البروليتاريا ، وألا يسمح البتة بعلاقات مع الاحزاب او الجماعات الاخرى)).

ترى الى أي جانب كان يقف ماو لدى مناقشة هذا النص العصبوي الضيق الأفق الذي لا يتكلم الا عن الثورة الاجتماعية وحدها ولا يلفظ حتى كلمة الثورة القومية؟ ان الوثائق القليلة التي نملكها تشير الى انه كان يقف على الأرجح الى جانب الغالبية التي اقترعت عليه . فماو يحلل ، في رسائله الى صديقه كي هي شن في اواخر ١٩٢٠ واوائل ١٩٢١ ، مشكلات الثورة العالمية بمصطلحات ((الرأسماليين)) و ((البروليتاريين)) وحدها. ولا يبدو البتة أنه كان يتصور ان الوضع في الصين يمكن ان يكون مختلفا عنه في فرنسا حيث كان كي هي شن يقيم آنذاك. ومما يعزز هذا الانطباع ان رسائل كي كانت تدعو الى قيام ((دكتاتورية البروليتاريا)) في الصين على نفس الوجه الذي قامت عليه في روسيا ، ولا تدلل على أي تفهم للطابع المعقد والمتناقض للمجتمع الصيني. وقد كان رد ماو على هذه الرسائل انه ((موافق على كل كلمة)).

ولكن اذا كان ماو وكي يتسمان بنفس المزاج الثوري الحماسي ، فان هذه الحماسة ، وما تولده من ميل الى تقسيم العالم الى أسود وأبيض ، الى رأسماليين وبروليتاريين ، كانت تتناقض مع هوى آخر عميق كامن في نفسه : هوى النزعة القومية . ومن قبيل ذلك أنه أبدى اكبر الحماسة في عام ١٩٢٣ للتحالف مع الكيومنتانغ. بل انه لم يكتف بالدعوة الى التحالف مع البورجوازية ، وانما جعل أيضا ، في مقال له نشره في تموز ١٩٢٣ ، من التجار القوة القائدة للثورة القومية.

ان هذا الموقف ، البعيد عن الانسجام مع موقف ماو تسي تونغ قبل عام ١٩٢٣ وبعده ، كان منسجما في الواقع مع السياسة الرسمية للحزب الشيوعي الصيني في ذلك العهد ، وهي السياسة التي أملتها عليه الأممية الثالثة في آب ١٩٢٢ والتي تجسدت في انتماء الشيوعيين الصينيين الى الكيومنتانغ بصفة أعضاء فرديين وفي مشاركة عدد من الشيوعيين البارزين ، ومن بينهم ماو ، في أجهزة الكيومنتانغ القيادية. وقد كان موقف ماو في عام ١٩٢٣ منسجما أيضا مع موقف معلمه لي دا زهاو الذي قال منذ عام ١٩٢٠ بأن الصينيين يؤلفون في مجموعهم ((أمة بروليتارية)). والافتراض بأن الشعب الصيني في مجموعه طبقة ثورية يضطهدها

الامبرياليون قد أتاح لماو وللي على حد سواء ان يكونا ثوريين وقوميين في آن واحد.

واذا كان شن دو كسيو بدوره قد قبل بالاتجاه الجديد الذي فرضته موسكو بصدد التعاون مع الكيومنتانغ ، فان قبوله به قد جاء من قبيل التسليم بالامر الواقع لا من قبيل القناعة والحماسة. فتشديد اللهجة من جهة أولى على الثورة القومية كان يعني في نظره ارجاء الثورة الاجتماعية الى أجل غير مسمى. وهو اذا كان معنيا من الجهة الثانية بمصير الصين ، فانه لبث على موقفه نصيرا للتغريب ، وما كان هذا كافيا للتشكيك في أهليته لزعامة الثورة الصينية ، حتى بدون الحاجة الى تحميله وزر أخطاء ستالين.

ويبدو أن تطور لي دا زهاو من عام ١٩٢٠ الى يوم وفاته في عام ١٩٢٧ قد سار في خط مستقيم ثابت. ففي ايار ١٩٢٤ ، وفي محاضرة له امام احدى المنظمات الطلابية في بكين اشتط الى أبعد حدود الاشتطاط في تصوره عن الصين بوصفها أمة بروليتارية مضطهدة. وقد قال : ان الاوربيين يتصورون أنهم يؤلفون طبقة عليا على الصعيد العالمي ، وينظرون الى الشعوب الملونة نظرتهم الى طبقة دنيا. وبذلك تكون المسألة العرقية على الصعيد العالمي قد أصبحت مسألة طبقية. ثم هتف قائلا : ان على الشعب الصيني أن يكون مستعدا لشن نضال طبقي ضد العروق الاخرى في العالم ، نضال يدلل فيه من جديد على خصائصه القومية.

ونحن نجهل ما اذا كان ماو تسي تونغ قد عبر عن آرائه في الحقبة نفسها على نفس تلك الصورة البعيدة عن روح الماركسية ، لأننا لا نملك سطرا واحدا من كتاباته في عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥. بيد ان مقالات ١٩٢٣ ، بالرغم من عدائها الشديد للأجانب ، لا تقفز نهائيا فوق التحليل الطبقي : اذا كانوا يريدون لثورتهم الانتصار. ولكن ليس من المستبعد مع ذلك أن يكون ماو ، شأنه شأن لي دا زهاو ، قد مر آنذاك بمرحلة من النزعة القومية المتطرفة.

ومن الواضح على كل الاحوال ان كتاباته في عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ لا تتفق والصورة التي يراد اليوم أن تعطى عن الرئيس ماو ، والا فلن يكون في وسعنا أن

نفسر واقعة الامتناع الكامل عن الاستشهاد بما كتبه في تلك الحقبة. وعلى أساس ما كتبه في عام ١٩٢٣ ، وما نعرفه عن أعماله ابان السنتين التاليتين ، يمكننا ان نخمن طبيعة انحرافه : من جهة أولى اخلاص مفرط في التعاون مع الكيومنتانغ ، ومن الجهة الثانية تهوين من قوة الطبقة الفلاحية واساءة تقدير لها. وقد قال ماو بنفسه لادكار سنو انه لم يع الطاقات الثورية التي تتمتع بها الطبقة الفلاحية الا في أعقاب حادثة ٣٠ أيار ١٩٢٥[١] .

واذا كان ماو قد اشتط في عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ في التعاون مع البورجوازية ، فلا مجال للشك في أن أهدافه ظلت أهدافا شيوعية ، وفي أنه كان تواقا الى اليوم الذي يتمكن فيه هو ورفاقه من السيطرة على الكيومنتانغ من الداخل. ولقد كانت هذه هي بالأصل نية الشيوعيين جميعا. ولقد كانوا يتصورون ان المشكلة هي بكل بساطة معرفة متى وكيف سينتقل زمام السلطة الى أيديهم. ومن هذه الزاوية كان من الصعب على ماو ان يكون اكثر حذرا وصبرا من ستالين نفسه الذي سيبدي استعداده للقبول حتى باعدام الحركة العاملة في المدن بأمل – أمل باطل – التفاهم مع شيانغ كاي شيك.

ومهما يكن من أمر ، أسواء لأسباب صحيحة مزعومة كما قيل آنذاك أم تجنبا للاتهامات بالتعاون الطبقي ، فان ماو قد قفل راجعا في ربيع ١٩٢٥ الى مسقط رأسه في احدى قرى هونان. وهناك اكتشف في خاتمة المطاف طاقة الفلاحين الثورية وبدأ بتنظيم روابط فلاحية. وما يلفت الانتباه ههنا أنه استغرق كل هذا الزمن ليعاود اكتشاف الطبقة الفلاحية ، بالرغم من أن أصله هو نفسه فلاحي. ولا ريب في ان تفسير ذلك كامن جزئيا في رد الفعل النفسي لمثقف شاب ضد عالم حداثته ((المبتذل)) ، بالاضافة الى الرأي الماركسي المسبق بصدد ((البلاهة الريفية)) وعلى كل الاحوال ، انه سيعمل من الآن فصاعدا على تدارك ما فاته من الزمن.

---

[١] - ادكار سنو : ((النجم الاحمر فوق الصين)) – ص ١٤٣.

كتابات ماو في ١٩٢٦ و ١٩٢٧ ومشكلة ثورة عمادها الفلاحون

لم يمض ماو تسي تونغ سوى بضعة أشهر في تنظيم فلاحي هونان في عام ١٩٢٥. فقد اضطر الى اللجوء الى كانتون[1] عندما طلب سيد الحرب المحلي رأسه. ولكنه تابع التعرف الى الحركة الفلاحية وهو يتقلب في عدد من المناصب الادارية ، في جهاز الكيومنتانغ وفي جهاز الحزب الشيوعي. واخيرا قام في كانون الثاني وشباط من عام ١٩٢٧ بتحقيقه المشهور عن الحركة الفلاحية في هونان. والتقرير الذي دار حول أصالة الماوية ، ولكن النصوص المتوفرة لدينا والتي يرجع عهدها الى عام ١٩٢٦ تلقي على ذلك النص أضواء مفيدة تساعد على تأويله تأويلا أفضل.

فهذه النصوص ("تحليل جميع طبقات الشعب الصيني" و "الآلام المريرة لفلاحي كيانغسو وشيكيانغ وحركات مقاومتهم") تؤكد ، أول ما تؤكد ، ان موقف ماو في عام ١٩٢٦ لا يتطابق لا مع اللينينية الاورثوذكسية ولا مع هرطقة ما بعد لينينية ، وانما مع ترددات شاب فتي لم يفهم بعد لينين حسن الفهم. وهذا ما يتجلى واضحا في مقال "تحليل جميع طبقات الشعب الصيني" ، بما فيه من توكيدات تبعث على الاستغراب اذ تقسم المجتمع الى فئآت عليا ومتوسطة ودنيا ، أو تصنف الملاك العقاريين في طبقة البرجوازية. والعبارة التي تقول ان ((كبار الملاك العقاريين هم البورجوازية الكبيرة)) تطرح مشكلة ذات طابع عام بصدد اهمية العوامل اللغوية في تمثل الشعوب غير الاوروبية للأفكار الغربية. فالتعابير الصينية التي تمت بها ترجمة ((البورجوازية)) و ((البروليتاريا)) تعني حرفيا ((الطبقات المالكة)) و ((الطبقات المحرومة من الملكية)). وعلى هذا فان ماو تسي تونغ الذي كان يجهل اللغات الاجنبية كان يجهل اللغات الاجنبية كان من الممكن ان يجد أن من المنطق السديد ان يكتب : ((ان كبار الملاك العقاريين هم البورجوازية الكبيرة . . .)).

---

[1] - حيث كانت تقيم حكومة الكيومنتانغ الجمهورية. ((المعرب))

ولكن هذا لا يبدل شيئا من حقيقة ان بنية المحاكمات اللينينية بالذات ، لا مفاهيمها وحدها ، كانت غائمية مبهمة في ذهن ماو.

وثمة توكيد آخر بعيد في روحه عن اللينينية ، وهو التوكيد القائل بأن ((موقف مختلف الطبقات في الصين تجاه الثورة القومية مماثل بهذا القدر او ذاك لموقف مختلف طبقات اوربا الغربية تجاه الثورة الاجتماعية)). وللوهلة الاولى يبدو هذا العداء الشامل ازاء الفئات العليا من المجتمع الصيني متناقضا مع النزعة القومية والشعبية الصوفية التي كان ماو يشاطر لي دا زهاو اياها والتي كانت ترغب في أن يكون الصينيون قاطبة في جانب الملائكة. وقد حل ماو هذه المشكلة بعملية حسابية سريعة : ليس بين الاربعمائة مليون صيني اكثر من خمسة ملايين من مناهضي صيحة الحرب هذه : ((ايتها الملايين الثلاثمئة والخمسة والتسعون ، اتحدي!)).

وبديهي ان الفلاحين يؤلفون الغالبية الساحقة من هذه الملايين الثلاثمئة والخمسة والتسعين التي توجه اليها ماو بندائه. وصحيح ان أحد مقاطع ((تحليل جميع طبقات الشعب الصيني)) يؤكد ان البروليتاريا هي ((القوة الرئيسية)) للثورة الصينية ، ولكن أنظار ماو كانت مشدودة في الواقع آنذاك الى الطبقة الفلاحية ، كما يشهد على ذلك مشروع القرار الذي تقدم به في ٣٠ آذار ١٩٢٦ الى ((لجنة الحركة الفلاحية)) التابعة للكيومنتانغ :

((بالنظر الى وجود صلة وثيقة بين حركات الجماهير الشعبية وبين السياسة ، وبالنظر الى الحركة الفلاحية الراهنة في الاقاليم كافة ، فان علينا ان نولي كامل اهتمامنا للحركة الفلاحية في الاقاليم . . . التي ستجتازها حملة الشمال في المستقبل))[1]

واذا كان من الحقائق المتعارف عليها اليوم ان تقدم جيش شيانغ كاي شيك نحو الشمال بدءا من حزيران ١٩٢٦ قد فجر المبادهة الثورية لدى جماهير الفلاحين في

---

[1] - حملة الشمال : حملة عسكرية نظمها الكيومنتانغ مع الشيوعيين في عام ١٩٢٦ ضد سادة الحرب بهدف اعادة توحيد الصين. ((المعرب))

كل مكان ، فان النص الذي أتينا بذكره يدل على أن ماو تسي تونغ قد توقع هذا التطور وأراده من كل قلبه قبل ثلاثة أشهر من حصوله.

واذا ما عدنا الآن الى ((تقرير هونان)) ، فوجئنا برأي[1] يقول ان ماو لم يبرهن في هذا ((التقرير)) على أي أصالة ، وان كل ما فعله هو انه طبق المخطط اللينيني عن الثورة في بلد زراعي. وللبرهان على ذلك يهول فيتفوغل من أهمية الدور الذي عزاه لينين الى الفلاحين ، ويهون من اهمية الدور الذي عزاه ماو اليهم. وهكذا يخلط عن قصد وعلى نحو غير قابل للتفسير بين الفكرة القائلة بأن على الطبقة الفلاحية ان تشكل القوة الرئيسية للثورة في آسيا ، وبين الفكرة القائلة بأن الحزب الشيوعي الذي يتولى قيادة هذه الثورة يمكن ان يتحدر هو نفسه من صلب الطبقة الفلاحية. واذا كانت الفكرة الاولى موجودة فعلا لدى لينين ، فان الفكرة الثانية لا وجود لها لديه البتة.

ان الماركسيين جميعا ، ابتداء من ماركس نفسه ، قد رأوا في الطبقة الفلاحية قوة ثورية بالغة الأهمية. ولكن ما من أحد منهم قد أقر قط بأن الفلاحين قادرون على مباشرة عمل ثوري مستقل ذاتيا. ومن الصعب المماراة في ان ماو تسي تونغ ، في ((تقرير هونان)) ، قد نسب الى الفلاحين درجة من المبادهة والاستقلال الذاتي تتجاوز من بعيد صيغ لينين ، كما تتجاوز ما كان ستالين على استعداد للاقرار لهم به في ذلك العهد[2]. ويبقى ان نتساءل هل المسألة مسألة هرطقة أم عدم نضج. الحق أننا كنا سنقول انها ((هرطقة)) فيما لو كنا أمام موقف متعمد وموزون لأستاذ من أساتذة الماركسية – اللينينية يضرب عرض الحائط بكل اشارة الى القيادة البروليتارية ويتكلم على العكس عن ((طبقة الفلاحين الفقراء القائدة)). ولكننا نعلم من جهة أولى ان مستوى ماو تسي تونغ النظري في عام ١٩٢٧ كان متدنيا نسبيا ،

---

[1] - انظر كارل اوغست فيتفوغل : ((اسطورة الماوية)) ، مجلة ((الصين الفصلية)) ، العدد ١ ، ١٩٦٠.

[2] - برر ستالين في خطابه امام الدورة العامة السابعة للجنة الكومنترن التنفيذية سياسة التعاون مع الكيومنتانغ بضرورة الاستفاده من ملاكاته التي يعجز بدونها ((محيط)) الجماهير الفلاحية الهيولي عن العمل من تلقاء نفسه (المؤلفات – المجلد ٨ – ص ٣٨٦ – ٣٨٧).

كما نعلم من الجهة الثانية ان ((تقرير هونان)) لم يكتب في برج عاجي وانما في غمرة من الحماسة والهوى. فقد كان ماو قد أمضى خمسة عشر عاما في المدن ، وانتهى به الامر ، باعترافه الى احتقار حياة القرى الأمية الجاهلة وازدرائها. أما الآن وعلى اثر الاحتكاك بالفلاحين الذين رفعوا راية التمرد العنيف على سيطرة الملاك العقاريين ، فانه قد عاود الارتباط على حين غرة بعالم حداثته. وكان من نتائج ذلك ان انهارت واجهة تفكيره الماركسية لتتكشف السمات الاساسية للفتى المعجب بالعنف والشجاعة كما يتجلى لنا في كتاباته السابقة :

((ان الثورة ليست بصورة من الصور حفلة عشاء بين أصدقاء. انها ليست مقالة تكتب ، او لوحة ترسم او زهرة تطرز. ومن غير الممكن أن تتم بمثل هذا القدر من الرهافة واليسر والأناقة ، بمثل هذا القدر من النعومة والهدوء والاحترام والتواضع والمراعاة. فما الثورة . . . غير فعل العنف الذي تطيح به طبقة من الطبقات بسلطة طبقة أخرى)).

وثمة سمة أخرى من سمات شخصية ماو تبرز بسطوع في ((تقرير هونان)) ، وأعني كراهيته للعراقيل التي تضعها في وجه حرية الفرد أفكار ومؤسسات المجتمع الكونفوشي القديم. ومما له دلالته من زجهة النظر هذه تشديد اللهجة على تحرر المرأة. ولعل اهتمامه بحرية الاختيار في الزواج يعود الى أيام حركة ٤ أيار على الاقل ، كما تشهد على ذلك مقالاته عن انتحار فتاة في ريعان الشباب أبت الزوج الذي فرضه أهلها عليها. واليوم ما عاد ماو ذلك النصير للحرية الجنسية ، وقد تم في عام ١٩٥١ حذف مقطع بهذا الخصوص من ((تقرير هونان)). ذلك ان الطهرانية سائدة في الصين المعاصرة. ولكن القيود الجديدة التي فرضت على الحب والجنس قد فرضت ، والحق يقال، باسم الانضباط الثوري. والحقد الذي يكنه ماو للعبوديات القديمة المتولدة عن الدين والأسرة لم يتداع قط ، وما يزال أحد الاهداف الاساسية لسياسته استئصال هذه المؤثرات من شأفتها.

وزبدة القول أن ((تقرير هونان)) لا يسير في خط اللينينية ((الاورثوذكسية)) ولا في خط اللينينية ((الهرطقية)) ، وانما هو في جوهره لا ماركسي. بيد ان هذه

الوثيقة تكشف بوضوح تام عما يمكن ان نسميه ((لينينية ماو الطبيعية)) التي ستتيح له ، بمجرد تمثله للايديولوجيا اللينينية ، أن يصبح زعيم الثورة الصينية. وهذه ((اللينينية الطبيعية)) تتجلى لا في اهتمامه بالتنظيم كما سبقت الاشارة فحسب ، بل أيضا في التفهم الحازم للمبدأ القائل بأن النضال السياسي هو مفتاح النضال الاقتصادي. فأسبقية السياسة على الاقتصاد في العصور الثورية هي قلب اللينينية النابض. وقد كتب لينين بنفسه ان تجاهل هذه المسلمة هو ((تناس لألفباء الماركسية))[١].

واذا كان ماو لم يعرف كيف يعطي تحليله شكلا ماركسيا مناسبا ابان سنوات احتكاكه بالثورة في الأرياف ، فهذا لا يقلل شيئا من مكانته في المستقبل كمنظر. ولقد كتب أستاذه لي دا زهاو هو الآخر ، عندما التفت من جديد نحو الطبقة الفلاحية في عام ١٩٢٦ ، كتب مقالا في مديح المليشيا الشعبية ، لم ترد فيه أي اشارة الى العمال ، شأنه في ذلك شأن كتابات ماو في الحقبة نفسها. ولقد مات لي خنقا في عام ١٩٢٧ على يدي سيد الحرب زوانغ زو لين. أما ماو تسي تونغ فسيكرس عشرين سنة من حياته لانشاء تركيب بين اللينينية وبين الثورة الزراعية في الصين ، وبذلك سيشق طريقه الى السلطة.

طريق السلطة

ان الطريق الذي قاد ماو تسي تونغ الى الهيمنة بلا منازع داخل الحزب الشيوعي الصيني أولا ، ثم على نطاق الصين بأسرها ، كان طويلا ومتعرجا. ولا يتسع المجال هنا لمتابعته بكل تقلباته ، لان موضوعنا ليس تاريخ الحزب الشيوعي الصيني ، بل فكر ماو وشخصيته. ومن المؤكد أن الفكر غير قابل للانفصال عن العمل عند دراسة ثوري من الثوريين. ولكن اذا كان في وسعنا عند الكلام عن

---

[١] - نحن لا نقصد بالطبع ان لينين كان يتصور ان الثورة السياسية ممكنة بدون تحويل العلاقات الاقتصادية ، وانما نعني فقط ان السلطة السياسية هي مفتاح كل شيء ، في نظره كما في نظر ماو.

تطور الصين ابتداء من عام ١٩٤٩ ان نرى في السياسة الصينية تعبيرا مباشرا عن موقف ماو ، فان الوضع يختلف كبير الاختلاف عندما كان ماو زعيما لعصابة صغيرة من الانصار في الجبال ، أو حتى عندما كان رئيسا للجمهورية السوفياتية الصينية في اقليم كيانسي ولكن من غير ان يكون له نفوذ مهيمن في الحزب. فقد كان عليه آنذاك ان ينحني في كل لحظة امام أوامر موسكو أو قيادة الحزب ، او ان يتظاهر بالانحناء ، وفي مثل هذه الظروف كانت تصريحاته تعبر تارة عن نواياه الحقيقية وطورا تخفيها. ولم يكن له غير هم واحد : السماح له بمتابعة استراتيجيته الريفية المستندة الى الفلاحين ، بمواجهة خط الكومنترن والقادة المتعاقبين بسرعة على زعامة الحزب الشيوعي الصيني ، وهو الخط الذي كان يعطي الأولوية للبروليتاريا المدينية وللاستيلاء على المدن. وفيما عدا ذلك كان على أتم استعداد لان يقول كل ما يطلب منه ان يقوله.

لقد كانت هناك حقيقة واضحة في ذهنه. وهي ان الدمار شبه التام لقاعدة الحزب المدينية بعد فترة القمع في عام ١٩٢٧[1] لم يدع من مجال للاختيار الا بين أحد أمرين : اما تبديل التكتيك واما الهزيمة. ولقد اختار ماو تسي تونغ من البداية تبديل التكتيك ، فشرع يعمل على انشاء منظمة ذات أصل فلاحي خالص تقريبا لم تجد حرجا في ان تطلق على نفسها اسم حزب البروليتاريا ، وأخذت على عاتقها ان تلعب الدور الذي جعله لينين وقفا على البروليتاريا وحزبها بوصفها القوة القائدة للثورة.

ويشير كارل فيتفوغل الى ان ستالين قد وافق في نهاية الامر على هذه الاستراتيجية. والحق اننا كنا سندهش فيما لو أنه فعل عكس ذلك فأنكر سلطة ثورية تحكم عدة ملايين من السكان في عصر كانت فيه الانتصارات نادرة. ولكن ينبغي ألا ننسى أيضا ان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني ، بقيادة لي لي سان أولا ثم وانغ مينغ ، قد حظيت بتأييد موسكو في جهودها لارساء أسس استراتيجية

---

[1] - اشارة الى المجزرة التي قام بها شيانغ كاي شيك ضد ((حلفائه)) الشيوعيين والتي ذهب ضحيتها ثلاثون الفا منهم. ((المعرب))

اكثر كلاسيكية تستند الى البروليتاريا المدنية. وبديهي ان ماو نفسه لم يستمر في تجاهل القيادة البروليتارية في كتاباته كما كان قد فعل في ((تقرير هونان)). فلقد كان لينينيا – وعلى الأقل تلميذا لينينيا – وكان يريد بالتالي ان يبرر مسلكه بمصطلحات اورثوذكسية حتى وان كان قد نسي مؤقتا بعض المبادىء في غمرة حماسته على اثر اكتشافه الثورة الزراعية. ولقد كان مكرها بالاصل على ايجاد هذا النوع من المبررات ما دام يريد ان يحافظ على مركزه في نظر موسكو والقادة الأوصياء على الحزب الشيوعي الصيني الذين أقلقتهم القاعدة الفلاحية الخالصة لحركته. والتقرير الذي تقدم به في نيسان ١٩٢٩ الى اللجنة المركزية يتضمن مقطعا بالغ الدلالة بالنسبة الى مهارة ماو في تمويه المضمون الجديد خلف صيغ اورثوذكسية. فقد كتب يقول :

((ان نضال الطبقة الفلاحية لن ينتهي بالهزيمة الا اذا لم تتوفر له القيادة العمالية. وبالمقابل لن يلحق أي ضرر اذا ما تخطى تطور نضال الطبقة الفلاحية قوة العمال)).

ولم يكن هذا هو الرأي السائد في موسكو. فقد وردت السطور التالية في قرار للجنة التنفيذية للأممية في ٢٦ آب ١٩٣١:

((ان هيمنة البروليتاريا وتطور الثورة المظفر لا يمكن ضمانهما الا اذا أصبح الحزب الشيوعي الصيني حزبا بروليتاريا لا في خطه السياسي فحسب ، بل أيضا في تركيبه ودور العمال في أجهزته القيادية كافة))[1].

وفي هذا الكلام دحض قاطع وفظ لسياسة ماو. وقد حاول ستالين فيما بعد ، في ايام الحرب الصينية – اليابانية ، ثم في عام ١٩٤٩ ، ان يستغل نجاحات الشيوعيين الصينيين. ولكنه لم يفهم قط ولم يرشد خطى الثورة الصينية التي كانت أبعد مما ينبغي عن عقليته وتجربته.

---

[1] - نقلا عن ((استراتيجية وتكتيك الكومنترن في الثورة القومية والكولونيالية تبعا لمثال الصين)) – موسكو ١٩٣٤ – ص ٢٩٩.

وينبغي ههنا ان نقول ان الاعتماد على الطبقة الفلاحية ، بالرغم من أهميته البالغة ، لا يشكل سوى أحد عناصر تكتيك ماو تسي تونغ. والعنصر الاساسي الثاني هو التعاون مع ((البورجوازية الوطنية)) على أساس اكثر ثباتا بكثير مما امكن للينين او ستالين ان يتصوراه. وصحيح ان سياسة ماو بهذا الخصوص قد تقيدت ، في خطوطها الكبرى ، بتقلبات موسكو المتعاقبة : ((جبهة متحدة من الأسفل)) قبل المؤتمر السابع للأممية في عام ١٩٣٥ ، ثم ((جبهة متحدة من الاعلى)) بعده. ولكن كما كتب بويد كومبتون ، فان ((السياسة العامة للجبهة المتحدة لم تمل على الحزب الشيوعي الصيني من قبل هيئة من هيئات الكومنترن ، وانما تطورت كجواب على شروط قومية))[١].

ان العلامات الاولى لشيء من الاستقلال الذاتي والمرونة من جانب الشيوعيين الصينيين في هذا المضمار يمكن اكتشافها في حوالي عام ١٩٣٣. فقد كان خطهم ، في أعقاب الهجوم الياباني في عام ١٩٣١ ، مطابقا لخط الكومنترن ، بمعنى ان المقاومة غير ممكنة الا من قبل الجماهير وبقيادة الحزب الشيوعي وان الاطاحة بحكومة الكيومنتانغ هي الشرط المسبق لتعبئة فعالة. كما جرى الافصاح عن الموقف نفسه في قرار اعلان الحرب على اليابان من قبل الجمهورية السوفياتية الصينية في عام ١٩٣٢ الممهور بتوقيع كل من ماو تسي تونغ وزهانغ غيو تاو وشو ته. فقد أبدى الجيش الاحمر استعداده ، مقابل شروط محددة (وقف الهجوم على المناطق السوفياتية ، اطلاق الحقوق الديموقراطية كحرية الكلام وحرية الاجتماع الخ ، وتسليح الجماهير ضد اليابان) ، لعقد اتفاق مع ((أي قوة مسلحة مهما تكن)). ومن وجهة النظر التقنية فان الهدف ما يزال اقامة ((جبهة متحدة من الاسفل)) ، أي غير منفتحة على حكومة نانكينغ[٢] التي ما تزال توصف بأنها كلبة صيد الامبرياليين اليابانيين. ولكن بالرغم من ذلك ، فان الخطوة الاولى نحو جبهة

---

١ - بويد كومبتون: ((صين ماو)) ، منشورات جامعة واشنطن ، ١٩٥٠ ، ص ٢١ – ٢٢.

٢ - أي حكومة شيانغ كاي شيك الكيومنتاغية. ((المعرب))

متحدة من الاعلى تكون قد خُطيَت على أساس ابداء الاستعداد للتعامل مع وحدات عسكرية نظامية دونما اشتراط تحالفها مع الشيوعية.

وقد تم توكيد الخط نفسه بمزيد من القوة في اعلان ١٥ تموز ١٩٣٤ الذي أشار ، من دون ان يوقف الهجوم على الكيومنتانغ ، الى امكانية التفاهم مع جميع القوات المسلحة في الصين بلا استثناء. والحق أننا لا نعثر على مثل هذه الدعوة الى التعاون مع العناصر ((البورجوازية)) في وثائق الكومنترن في ذلك العهد ، اذ كانت السياسة الرسمية للأممية تشدد اللهجة على الاشتراكيين – الديموقراطيين بوصفهم العدو الرئيسي.

واذا كان الحزب الشيوعي الصيني – الذي لم يصبح ماو تسي تونغ زعيمه الرسمي الا في كانون الثاني ١٩٣٥ – قد شرع يتطور نحو جبهة متحدة معادية لليابانيين مع الكيومنتانغ قبل ان تحظى هذه السياسة بتأييد موسكو ، فان ماو قد أبدى تحفظا بالمقابل بصدد التعاون مع شيانغ كاي شيك نفسه. فقد كان ما يزال يصف شيانغ كاي شيك في كانون الاول ١٩٣٥ ، بعد مؤتمر الكومنترن السابع ، بأنه ممثل المُلاّك العقاريين والكومبرادوريين وليس ممثل البورجوازية الوطنية. ولكنه قبل في خاتمة المطاف ، في بحر عام ١٩٣٦ ، بالتنازل عن طموحه في تزعم الجبهة المتحدة ، ولكنه لبث على عدم حماسته للتفاهم مع شيانغ كاي شيك وظل موقفه منه أشد عداء بكثير من موقف موسكو.

وليس علينا ان نفتش عن السبب بعيدا: فقد كان قادة الدولة السوفياتية يضعون في طليعة اهتماماتهم لا مصائر الثورة العالمية وحدها ، بل أيضا ضمان سلامة حدودهم في عصر كان يبدو فيه الموقف في أوربا مثقلا بالنذر ، محفوفا بأدهى الاخطار. وبالمقابل لم يكن ماو قد نسي سنوات النضال الشاق ضد حملات التطويق التي شنها شيانغ كاي شيك. ولقد كان على استعداد لعناق ذلك التجريد المسمى ب ((البورجوازية الوطنية)) ، ولكنه كان ينفر من لصق هذا العنوان بشيانغ كاي شيك

وبالتالي من اعادة الاعتبار له. بيد انه سرعان ما اضطر الى الانحناء أمام ما ليس منه بد ، بل انه ذهب الى حد التنبؤ ب ((مستقبل باهر)) للكيومنتانغ[١].

وقد أتاحت له المرحلة اليسارية في الاستراتيجية الشيوعية الأممية ، التي دشنها الحلف الجرماني – السوفياتي في آب ١٩٣٩ ، ان يتخذ من جديد موقفا أشد حزما. ثم جاءت مرحلة التحالف الكبير بين الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الغربية بدءا من صيف ١٩٤١ لتفرض سياسة تساهلية جديدة. ولكن الخط العام لفكر ماو تسي تونغ بصدد العلاقات مع البورجوازية يظل واضحا كبير الوضوح بالرغم من تلك التقلبات.

ان الصيغة الرئيسية في كتاباته بين ١٩٣٥ و ١٩٤٩ بصدد هذا الموضوع هي صيغة ((كتلة الطبقات الأربع)) المؤلفة من العمال والفلاحين والبورجوازية الصغيرة والبورجوازية الوطنية والبورجوازية الوطنية. وستالين هو الذي ابتكر هذه الصيغة وكثيرا من الصيغ التي كان يستخدمها ماو. ولكن ستالين نوه بأن مرحلة التعاون بين الطبقات الاربع ليست الا مرحلة مؤقتة في تطور الثورة ، وبأنه لا بد ان تخلفها في أجل قريب مرحلة أخرى يصطدم فيها العمال والفلاحون مع مجمل البورجوازية[٢]. وبالمقابل فهم ماو في وقت مبكر جدا ان الظروف الخاصة بالثورة في قطر تابع تتيح للشيوعيين ان يحظوا بتأييد قسم من البورجوازية على نحو أثبت واكثر دواما.

ان النظرية الماوية ترى ان قيادة الثورة الصينية انتقلت ، في الفترة الواقعة بين ثورة اوكتوبر ١٩١٧ وتأسيس الحزب الشيوعي الصيني عام ١٩٢١ ، من يدي البورجوازية الى يدي البروليتاريا وحزبها. وبذلك تكف الثورة البورجوازية – الديموقراطية عن ان تكون ثورة ديموقراطية من النمط القديم لتصبح ثورة ((ديموقراطية جديدة)) وجزءا لا يتجزأ من الثورة الاشتراكية العالمية.

---

[١] - انظر تقريره الى الدورة العامة السادسة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني في تشرين الاول ١٩٣٨.
[٢] - ستالين: ((المؤلفات)) – م ١٠ – ص ١٤ – ١٧.

وهذه النظرية ، كما يلاحظ كارل فيتفوغل بسداد ، مقتبسة مباشرة عن لينين ، عن طريق ستالين. بل يمكن القول بأن فكرة هيمنة البروليتاريا ابان كلتا مرحلتي الثورة – البورجوازية الديموقراطية والاشتراكية – هي أقل مظاهر فكر ماو أصالة وابتكارا. أما الأصيل المبتكر حقا فهو الوفاء الذي مخر به العباب ابتداء من عام ١٩٣٥ بين خطرين اثنين : خطر التخلي عن هيمنة البروليتاريا (أي الحزب الشيوعي)[1] وخطر الانفصال التام عن البورجوازية. ولقد أخفقت سياسة ستالين الصينية عند صخرتي التهلكة هاتين ، والخط السوفياتي الراهن بصدد آسيا والشرق الاوسط يتأرجح بين هذين النقيضين. أما ماو تسي تونغ فقد تجنب كلتا التهلكتين معا.

وعلاوة على مشكلة دور بعض الطبقات – الطبقة الفلاحية والبورجوازية – في استراتيجية الحزب الشيوعي الصيني ، تنضاف مشكلة كيفيات الثورة ، أي ، بوجه خاص ، مشكلة حرب الأنصار. وينبغي ههنا ان نميز بين سلسلتين من المشكلات : الروح العسكرية والحرب الثورية بوصفهما جزءا لا يتجزأ من فكر ماو تسي تونغ وشخصيته ، ومساهمة ماو الخاصة في التكتيك العسكري كفن قائم بذاته. والمشكلة الاولى تحظى بكبير اهتمامنا في اطار هذه الدراسة ، بينما لا تكاد المشكلة الثانية تعنينا في شيء. وبديهي ان مشكلة أصالة ماو كرجل تكتيك بحصر المعنى – وهي المشكلة التي أثارت جدلا كثيرا – ليست بعيدة عن اهتماماتنا بقدر ما تضيف المساهمة المبتكرة في هذا المضمار شيئا جديدا الى جماع شخصيته. ولكن ما نستهدفه ههنا هو ان نقدم صورة حية ومتوازنة عن شخصية ماو وأفكاره ، لا ان نتعمق في دراسة فكره في مضمار متخصص.

ومن وجهة النظر هذه فان من الاهمية بمكان ان نعلم ان الشجاعة والقوة والروح العسكرية قيم مركزية بالنسبة الى ماو ، كما سبقت الاشارة الى ذلك في اكثر من

---

[1] - الحزب الشيوعي لا يساوي البروليتاريا دائما ووضع علامة المساواة بينهما بصورة ميكانيكية من اكبر مثالب الستالينية حيث ادى ذلك لألغاء الديمقراطية العمالية من خلال اقصاء جماهير العمال والفلاحين المباشرين عن ممارسة السلطة الحقيقية –والاستعاضة عنهم بالحزب– مما ادى الى دمار دكتاتورية البروليتاريا. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

موضع (وسوف نرى بالأصل انه سيحاول تطبيق ((اسلوب حرب الانصار)) حتى على انتاج الفولاذ). ومن الأهمية بمكان أيضا ان ننوه بالصلة بين تكتيك حرب الانصار وبين مضمونها السياسي الذي يعزو اليه ماو أولوية أساسية. أما ان ماو تسي تونغ مجدد او غير مجدد في الميدان العسكري المحض فمشكلة لا تعنينا كثيرا.

ان ثمة نقطتين اساسيتين في نظر ماو فيما يتعلق بالروابط بين الحرب والسياسة : أولاهما ان الحرب الثورية يجب ان تكون شعبية ، وثانيهما انها يجب ان تكون قومية. والضرورة الاولى هي ضرورة تعبئة الجماهير. اكد ماو في عام ١٩٢٩ : ((ان الجيش الاحمر لا يقاتل حبا بالقتال ، وانما فقط ليقوم بالدعاية بين الجماهير ، ولينظم الجماهير ، وليسلح الجماهير ، وليساعد الجماهير في اقامة سلطة سياسية)). وعلاوة على هذا الهدف النهائي الذي هو اقامة سلطة سياسية بقيادة الشيوعيين ، فان تعبئة الجماهير قد أصبح هدفها ، ابتداء من عام ١٩٣١ ، طرد الامبرياليين اليابانيين وغيرهم من الصين. وكتب ماو في عام ١٩٣٨ : ((اذا عبأنا بسطاء الناس في البلاد قاطبة ، خلقنا محيطا واسعا يَغرَق العدو في عبابه)).

ولقد كان لكل من هذين الهدفين ، الثورة الاجتماعية والتحرير القومي ، مكان محدد في نظام فكري متلاحم في رأس ماو. ولكننا لا نستطيع ان نتوقع ان يتوصل كل جندي في الجيش الثوري الى تفهم اللينينية على نفس النحو الذي أتيح لماو على مر السنين. والحال ان احدى خصائص حرب الانصار أنها على وجه التحديد من صنع وحدات صغيرة نسبيا ومعزولة في غالب الاحيان ، بحيث يصبح للنشاط الواعي وللمبادهة الفردية دور بالغ الأهمية. ولما كان الجيش الاحمر يضم فيما يضم ، علاوة على العدد الكبير من الفلاحين الأميين والعدد الضئيل من العمال الواعين سياسيا ، جمهرة من المتشردين وقطاع الطرق السابقين وغيرهم من العناصر المخلوعة طبقيا ، فان في وسعنا ان نفهم لماذا كان يضطر ماو الى القيام بحملات ((تقويم)) ليفرض على تلك الكتلة المتنافرة فكرا وانضباطا.

ولكن ماو تسي تونغ ، في الوقت نفسه الذي كان يعمل فيه جاهدا لتأطير الثورة الصينية باطار لينيني ، كان يستلهم في مذهبه العسكري كما في مجمل فكره أفكارا

وأمثلة مستمدة من الماضي الصيني. فكثيرا ما يرد في كتاباته العسكرية ذكر الخارجين عن القانون كما تصفهم الروايات الشعبية وذِكر كبار الأباطرة والاستراتيجيين الصينيين التاريخيين. وكثرة الاستشهاد بهاتين الفئتين من الرجال تكشف من جديد عن أعمق صفات شخصية ماو : رغبته في التشبه بمثال الفلاحين الذين تمردوا في قديم الزمان على سلطة ظالمة وفاسدة ، ورغبته في الوقت نفسه في تقمص عظمة الماضي. وهنا تتداخل العناصر الثلاثة الاساسية للطريق الذي قاد ماو تسي تونغ الى السلطة : النزعة القومية ، وحرب الانصار ، والثورة الزراعية.

(٢)
تحويل المجتمع الصيني

عندما تسلم ماو تسي تونغ سدة الحكم في عام ١٩٤٩ اكد الكثيرون : ١ – انه سيكون في مسلكه دمية وفية لموسكو ، ٢ – ان تطور الصين سيكون بالضرورة نسخة طبق الاصل عن تطور روسيا. والجميع يقرون اليوم بأن أول هذين التوكيدين خاطىء تماما. أما ((ستالينية)) الشيوعيين الصينيين ، الفعلية أو المزعومة ، فانها تموه بالمقابل حقيقة ان التوكيد الثاني خاطىء تماما هو الآخر. والواقع ان الفكرة القائلة بأن الصين الشيوعية يجب بالضرورة ان تكون نسخة حرفية عن روسيا الشيوعية نابعة من تصور يرى في الشيوعية نوعا من مثال أفلاطوني أو روح شريرة لها وجودها المستقل عن تجسداتها العينية ولها سكونها الأزلي الابدي. والحال ان الشيوعية ليست بصورة من الصور قوة ما فوق طبيعية. وهي من صنع رجال تبنوا نظاما فكريا محددا ومناهج تنظيمية معينة. والشكل الذي تتلبسه الشيوعية في قطر من الاقطار ليس رهنا برصيد الافكار والتقنيات الموروثة عن لينين فحسب ، بل أيضا بالواقع الاجتماعي الذي يجري تطبيق تلك الافكار والمناهج عليه ، وكذلك بموقف وشخصية القادة الذين يسيرون دفة هذه العملية. والحال ان نظرة خاطفة الى المجتمع الصيني والى شخصية ماو تسي تونغ كانت كافية ، حتى

في عام ١٩٤٩ ، لادراك حقيقة ان صين ماو لا يمكن ان تكون شبيهة بروسيا ستالين.

هذا الاستنتاج تفرضه أولا طبيعة المجتمع. فروسيا هي بلد أوروبي ، وان كانت أوروبيتها مشوبة بشيء من الغرابة. فلقد نظمت وفقا للتقاليد اليونانية والمسيحية ، وأدخلت عليها التقنيات الحديثة منذ عهد بطرس الاكبر. وبالمقابل لبثت الصين عالما ثقافيا مغلقا ، بعيدا كل البعد عن روح الغرب البروميثيوسية. وقد أثار الاحتكاك في القرن التاسع عشر بالأسلحة والافكار الغربية تلك الازمة الفكرية والسياسية العميقة التي أشرنا اليها سابقا. وفي الوقت الذي راحت فيه الامبراطورية القيصرية تتوسع عبر القارة الآسيوية حتى فلاديفوستوك ، ذاقت الصين مذلة الهزيمة وهوان الامتيازات الاجنبية والمعاهدات غير المتكافئة. واذا كان تصنيع روسيا قد ظل محدودا حتى عام ١٩١٧ ، واذا كانت أرياف روسيا آنذاك ما تزال غارقة في الفقر والجهل ، فان وضعها هذا لم يكن يشبه في شيء وضع الصين التي لم تكن تملك ، باستثناء منطقة منشوريا ، غير بضعة معامل للصناعة الخفيفة في الموانىء ، والتي كان تاريخ أساليبها الزراعية يعود لا الى العصر الوسيط الاوروبي ، وانما الى ما قبل التاريخ.

والتباين بين ماو تسي تونغ وستالين في عام ١٩٤٩ لم يكن بسيطا هو الآخر. وبديهي ان كلا الرجلين كان يجمعهما حب السلطة وموهبة التنظيم ، ولكن في حين كان الثاني ذا أفق بيرقراطي ضيق ، كان الاول يملك خيال الشاعر. وبينما كان ستالين قد انفرد بالسلطة ووطد مواقع أقدامه فيها الى حد انه جعل من الارهاب مسألة روتينية ، كان ماو قد خرج لتوه من صراع دام عشرين عاما استطاع أثناءها ان يفرض نفسه بقوة شخصيته الساحرة وحكمته وبفضل اخلاص عدد كبير من الرجال الموهوبين الذين ما كانوا له خدما أذلاء شأن معظم اولئك الذين اعتمد عليهم ستالين.

ولقد اكتسب ماو بنفسه بعد مرور اكثر من عقد من الزمن بعض صفات الاوتوقراطي الواقف عند عتبة الشيخوخة ، ولكن هذا لا يعني انه قد أصبح بكل

بساطة ((ستالين جديد)) كما اعتاد بعضهم ان يزعم. وسوف نعود الى هذا الموضوع فيما بعد. أما الآن فلن نولي اهتمامنا الا للسنوات الاولى من تاريخ الجمهورية الشعبية الصينية ، ومن بديهيات الامور ان واقع البلدين في تلك الحقبة وشخصية قادتهما قد فرضا على الصين ان تسير في طريق مغاير لطريق روسيا.

ماو تسي تونغ والتناقضات

لقد كان ذهن ماو تسي تونغ مليئا ، شأن الصين نفسها ، بالمشاحنات والتناقضات بين الجديد والقديم ، بين ما هو صيني وما هو أجنبي. ورأي ماو تسي تونغ بصدد التناقضات هو على وجه التحديد من أبرز السمات واكثرها دلالة على الصعيد النظري. ولئن كان هيغل أول من صاغ فكرة ان التناقضات عامة شاملة وأنها محرك كل تغير ، ولئن طورها انجلز من بعده واستخدمها لينين على نطاق واسع[1]، فان الطريقة التي عالج بها ماو تسي تونغ هذا الموضوع ، الذي تطرق اليه أول ما تطرق في مقال له في عام ١٩٣٧ ، تكشف النقاب عن بعض من السمات الخاصة.

لقد وجد مؤخرا من يزعم ان ماو ، بالنظر الى المستوى الشديد الانخفاض من المعارف النظرية الذي دلل عليه مقاله في عام ١٩٤٠ حول ((المادية الجدلية)) ، كان عاجزا في عام ١٩٣٧ عن كتابة مقالة ((في التناقض)) التي تمت ((فبركتها)) بالتالي فيما بعد (فهي لم تنشر الا في عام ١٩٥٢)[2]. وصحيح ان مقال ١٩٤٠ باهت فعلا ، ولكنه لا ينطوي على جميع تلك الأخطاء الفظة التي نسبت اليه. وعلاوة على ذلك فان مقالة ((في التناقض)) ليست مرهفة كل تلك الرهافة فيما يتعلق بالجزء النظري والفلسفي الممض منها.

---

[1] - انظر هيغل ((علم المنطق)) ، وانجلز ((جدل الطبيعة)) ، ولينين ((الدفاتر الفلسفية)).

[2] - أرثر كوهن : ((ما الجديد في الماوية؟)) في مجلة ((مشكلات الشيوعية)) – المجلد ١٠ – العدد ٦ – تشرين الثاني وكانون الاول ١٩٦١.

والواقع ان ماو تسي تونغ لا يولي كبير اهتمام للجدل من حيث انه لعبة فلسفية. وما يستأثر باهتمامه حقا هو تطبيق المفاهيم النظرية على الموقف العيني. واذا كان تصوره عن التناقضات بوجه عام لا يتميز بالابتكار ، فان الطريقة التي طبقه بها على الواقع السوفياتي والصيني كانت مبتكرة فعلا. وهذا الحرص على البقاء بالقرب من الواقع وعلى تفهم تعقيده اللامتناهي سمة أساسية من سمات تفكير ماو (على الأقل الى عهد قريب). ولكن قبل محاولة ابراز قيمة غنى المجتمع الصيني المتناقض ، كان لا بد أولا من اعادة توطيد وحدته. وهذا ما أخذه ماو على عاتقه منذ عام ١٩٤٩ بواسطة ((دكتاتورية الشعب الديمقراطية)).

البورجوازية و ((الشعب))

لقد رسم ماو في تموز ١٩٤٩ ، وهو يتكلم بكل الصراحة التي يأذن بها امتلاك السلطة كاملة ، معالم مخطط لتحويل المجتمع الصيني بقيادة البروليتاريا. وقد أعطى، بعمله هذا ، تكريسا نظريا للتعاون الطويل الأمد مع البرجوازية ، هذا التعاون الذي كان يقوم حتى ذلك العهد على أساس ذرائعي. وكلمة ((الشعب)) هي في موقع القلب من هذه الصياغة الجديدة. فلقد كان الكلام يدور حتى ذلك الحين عن كتلة الطبقات الاربع او عن جبهة متحدة ، ولكن البورجوازية الوطنية لم تدرج فقط في عداد ((الجماهير الشعبية)). وقد تبلورت أفكار ماو تسي تونغ رويدا رويدا في مجرى أعوام ١٩٤٥ – ١٩٤٩. ووجدت صياغتها الحاسمة والنهائية في ((دكتاتورية الشعب الديمقراطية)).

وقد توافقت تجديدات ماو النظرية هذه زمنيا مع تطور نظرية ((الديمقراطية الشعبية)) في روسيا وأوربا الشرقية ، ولكن مضمونها مختلف كبير الاختلاف عنها. فالنظريات التي جرى تطويرها في أوربا الشرقية لم تكن تقبل البتة بأدنى تنازل فيما يتعلق بالقابضين على زمام السلطة السياسية ، وان كانت قد أقرت مؤقتا بهامش من الحرية للمشروع الخاص. وهي لم تبدل شيئا في مسلمتها القائلة بأن

السلطة السياسية تخص العمال وحدهم. أما ماو تسي تونغ بالمقابل ، فلم يكتف بادراج البورجوازية في عداد ((الشعب)) فحسب ، بل أيضا في عداد ((الدكتاتوريين)).

وبديهي ان ماو قد نوه بأن الديكتاتوريين ليسوا جميعا متساوين. فالسلطة الفعلية تخص البروليتاريا (أي من يمثلها ، أي الحزب الشيوعي)[1]. ثم يأتي الفلاحون في المرتبة الثانية بوصفهم حلفاء البروليتاريا الموثوقين. أما البورجوازية ، الصغيرة والقومية ، فلا يقبل أعضاؤها في نادي ((الشعب)) الا اذا كان سلوكهم حسنا. وان لم يكن سلوكهم كما يجب ، لا يعد هناك بد من ((اعادة تثقيفهم)) ، بنعومة اذا كان موقفهم ايجابيا ، وبالقوة في الحالة المضادة شأن الملاك العقاريين والكمبرادوريين.

ومن حقنا ان نتساءل ، بعد كل هذه التحفظات ، عما اذا كان لأدراج البورجوازية في عداد ((الشعب)) من معنى ، ولا سيما بعد الاعلان عن ان دكتاتورية الشعب هي في جوهرها دكتاتورية البروليتاريا. وتقديرنا ان نعم. فالدور المنسوب الى البورجوازية في صيغ ماو النظرية يعبر من جهة أولى عن حقيقة ان أقلية من الطبقات صاحبة الامتيازات قد أيدت فعلا النظام. ونستطيع من الجهة الثانية ان نرى في نظرية الدكتاتورية الديمقراطية تجليا جديدا لرغبة ماو في الكلام باسم غالبية السكان الساحقة ، صيغة جديدة من نظرية الارادة العامة.

تسريع الثورة الصينية ونظرية الثورة الدائمة

لقد اقترنت نظرية دكتاتورية الشعب الديموقراطية بسياسة اقتصادية معتدلة كل الاعتدال. ففي المدن لبث الرأسماليون ((الوطنيون)) في غالب الاحيان مدراء أجراء لمشاريعهم ، بل كانوا ينالون جزءا من الارباح. أما في الريف ، وبعد برهة وجيزة من الارهاب ومن التصفية العنيفة لقسم من الملاك العقاريين ومن توزيع الاراضي ، فلم يتخذ أي تدبير طيلة سنوات عدة للاسراع بتطبيق الجماعية على

---

[1] - راجع ما ورد في الهامش رقم (٣) ، ص ١٦ من هذه النسخة الالكترونية. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

الزراعة ، ولم تتجاوز الحركة التعاونية بوجه عام ((فرق المساعدة المتبادلة)) التي احتفظ أعضاؤها بكامل ملكيتهم الزراعية. وقد ساد الاعتقاد في الصين كما في العالم الخارجي بأن هذه الوتيرة البطيئة غاية البطء ستستمر على مدى عشرة أو عشرين عاما. ثم تغير المناخ السياسي على حين بغتة في عام ١٩٥٥ ، وتغير معه مضمون فكر ماو تسي تونغ.

ففي عام ١٩٥٥ كان النظام الجديد قد وطد مواقع أقدامه ، وأخذ الاقتصاد يبل من الاجهاد الذي عانى منه طوال ربع قرن من الحرب الاهلية والحرب الاجنبية ، وكانت حرب كورية قد انتهت. وفي تموز من ذلك العام عقد ماو تسي تونغ العزم فجأة على زج الفلاحين الصينيين برمتهم في تعاونيات حقيقية تستثمِر الارض وتنظم العمل جماعيا – حتى ولو كان مقضيا على هذه التعاونيات بأن تبقى ((نصف اشتراكية)) ، وذلك بقدر ما يظل تعويض كل فرد منوطا جزئيا بمقدار مساحة الارض التي قدمها الى التعاونية وليس بمقدار عمله وحده.

وتسريع الثورة الصينية هذا ما يزال مستمرا حتى أيامنا هذه ، بالرغم من بعض التقلبات الثانوية. وقد تميز انعكاسه في فكر ماو تسي تونغ بتشديد اللهجة اكثر فاكثر على ((دور البروليتاريا القيادي)) ، أي – بتعبير آخر – على التوكيد بأن الحزب الشيوعي سيحاول ان يدفع بالناس الى ان يفعلوا ما لن يفعلوه من تلقاء أنفسهم. ولكن ليست هذه أبرز سمات فكر ماو تسي تونغ في تلك الحقبة. ذلك ان ماو ينظر الى صراع الطبقات نظرته الى ظاهرة في سبيلها الى الزوال. وبديهي ان الصراع مستمر ، وان خوضه بحزم واجب عندما تقتضيه التأثيرات البورجوازية. ولكن الهدف الرئيسي المحدد من قبل الايديولوجيا يصبح من جهة أولى النضال ضد الامبرياليين في الخارج ، ومن الجهة الثانية ((الحرب ضد الطبيعة)). ولعل الموضوعة الثانية هذه ، بالرغم من الظواهر كافة ، هي الموضوعة الاساسية ، ولعله في وسعنا ان نصف مرحلة ما بعد عام ١٩٥٥ في فكر ماو تسي تونغ بأنها المرحلة ((البروميثيوسية)).

ان فكرة ((الحرب ضد الطبيعة)) فكرة مركزية في الماوية ، وتعود في تاريخها الى عام ١٩٣٨ على الاقل. ولكن فكر ماو لا يأخذ وجهه الخاص به الا اذا ربطنا فكرة التحويل السريع والعنيف للطبيعة بمجمل التصورات الفلسفية التي بسطها ماو في مقالته ((التناقض)).

والنص الاساسي الاول من هذا المنظور هو افتتاحية ((صحيفة الشعب اليومية)) في ٥ نيسان ١٩٥٦ التي عبرت عن وجهة النظر الصينية في المناقشة التي دارت حول مسألة ((تصفية الستالينية)) في أعقاب خطاب خروتشيف السري أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي. وقد اكد محررو الافتتاحية التي شارك ماو نفسه على الارجح في كتابتها: ((انه لمن السذاجة الاعتقاد بأنه ليس في الامكان بعد الآن ان توجد تناقضات في المجتمع الاشتراكي. وما نفي وجود التناقضات إلا نفي للجدل. والتناقضات تختلف في طبيعتها تبعا لاختلاف المجتمعات ، وتختلف بالتالي وسائل حلها. ولكن تطور هذه المجتمعات يستمر دوما عبر تناقضات غير منقطعة)).

وعندما يقول لنا كاتبو هذا المقال ان تطور المجتمع يستمر ((دوما)) وسط التناقضات ، فانهم لا يقصدون بذلك المجتمع الاشتراكي وحده ، بل أيضا المجتمع الشيوعي في المستقبل. والاهم من ذلك ان هذه التناقضات لن تكون بين الانسان والطبيعة فحسب ، بل أيضا بين الافراد والفئات الاجتماعية. وقد ذهب ماو تسي تونغ الى أبعد من هذا الحد. فأكد في خطابه في ٢٧ شباط ١٩٥٧ وجود تناقضات بين القادة السياسيين وأعضاء المجتمع[١].

ان هذا الخطاب يقع عند نقطة تمفصل مرحلتين اثنين من مراحل الثورة الصينية، مرحلتين تبدوان للوهلة الاولى متمايزتين كل التمايز ، ولكنهما متصلتان فيما بينهما بصلة محددة في واقع الامر. فعندما ألقى ماو تسي تونغ ذلك الخطاب ، كانت حملة ((المئة زهرة)) في أوجها. وكان أعضاء الحزب ، بل حتى المواطنون العاديون ، يَلقَونَ التشجيع ، كل التشجيع ، لينتقدوا بلا تحرز السلطات على مختلف المستويات:

---

[١] - وهو الخطاب المعروف باسم : ((في الحل الصحيح للتناقضات داخل الشعب)). ((المعرب))

السلطات الادارية والاقتصادية والسياسية. ويبدو ان هدف هذه السياسية كان مزدوجا : من جهة أولى تجنب حدوث انفجار كذلك الذي حدث في المجر والذي ألقى ماو مسؤوليته على روح الحكام البيروقراطية وأساليبهم القمعية ، ومن الجهة الثانية اثارة موجة من الحماسة ومن الارادة الطيبة لدى القاعدة ، باتاحة المجال أمام كل فرد للتعبير عن آرائه وللتنفيس عن مكنونات صدره ، بحيث تكون النتيجة تسريعا مرموقا للبناء الاقتصادي. وكل الظواهر تشير الى ان ماو تسي تونغ كان يعتقد بأنه اذا ما أطلقت الحرية للمواطنين على هذا النحو فانهم لن يستخدموها الا في انتقاد كل مظهر من مظاهر سوء استعمال السلطة ، وانهم لن يشككوا البتة في مبادىء النظام الجديد.

وعندما نشرت في حزيران ١٩٥٧ نسخة معدلة مخففة من هذا الخطاب (الذي لم ينشر قط بنصه الاصلي) ، كان قد اتضح ان ذلك الحساب خاطىء. فقد راح الطلاب والفلاحون والمثقفون المعروفون يهاجمون بقحة وبلا تحرز سيطرة الحزب الشيوعي على مختلف مجالات المجتمع. وهذا ، والحق يقال ، مطلب لا يمكن لأي لينيني ان يقبل به. وهكذا دار ماو تسي تونغ على أعقابه ١٨٠ درجة ، وحسب اهتمامه على ان يُحَقق بواسطة التنظيم والانضباط ما لم يُستَطَع تحقيقه عن طريق تحرير المبادهة الفردية ، وأعني ((تسريع التطور الاقتصادي والثقافي)) للبلاد. وكان من نتائج ذلك ، في ميدان الانتاج ، ((القفزة الكبرى الى الامام)) ، وفي ميدان التنظيم الاجتماعي ، انشاء الكومونات الشعبية. ووجَدَ مجمل هذه السياسة الجذرية الجديدة تعبيره الايديولوجي في نظرية ((الثورة الدائمة)).

ان ماو يريد ان يجعل من الصين بلدا حديثا عظيما يقف على قدم المساواة مع الدول الكبرى في العالم. وفي سبيل ادراك هذا الهدف ، يقترح وسيلتين : تطوير الاقتصاد ، وتحويل البشر[1]. وهو لا يميز أصلا بين هاتين الوسيلتين : فنظرا الى ان الصينيين فقراء فان روحهم ثورية وهم يريدون التغيير من كل قلبهم ، ونظرا الى أنهم ((بيض)) ، أي جهلة وغرباء عن العالم الحديث ، فانهم مطواعون وقابلون

[1] - انظر مقاله في العدد الاول من مجلة ((العلم الاحمر)) في ١٥ نيسان ١٩٥٨.

للتطبع. ولكن هذا غير ممكن الا اذا قبلوا عن طواعية بالاهداف المقترحة عليهم. وصحيح ان اللهجة قد شُدِّدَت بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨ على الانضباط بدلا من المبادهة الفردية ، ولكن موضوعتي العمل الواعي والتنظيم لبثتا ثابتتين في فكر ماو تسي تونغ.

ان ماو لم يتولى عرض نظرية ((الثورة الدائمة)) في أي من كتابته. ولكن لا مجال للشك في انه هو واضعها ، لان هذه النظرية ، شأن كل النتاج الايديولوجي في مرحلة ((القفزة الكبرى الى الامام)) ، تتجاوب كل التجاوب مع النوابض العميقة لشخصيته. وهي مظهر من مظاهر اندفاعه البروميثيوسي الذي يصبو الى تحويل البشر والطبيعة في آن واحد. وسمتُها الاساسية الروح الكفاحية التي شحذها ربع قرن من النضال المسلح. كما انها تتميز بشيء من نفاذ الصبر ازاء الواقع ، وبتصميم لا يتزعزع على ارضاخ البشر والاشياء والواقع والنظريات للغايات المنشودة، وعلى تحطيمهم اذا رفضوا الرضوخ.

وليو شاو شي هو أول من أعاد الاعتبار الى مصطلح ((الثورة الدائمة)) في خطابه في ٥ أيار ١٩٥٨ ، في الدورة الثانية للمؤتمر الثامن للحزب الشيوعي الصيني. وقد تقلب مضمون النظرية السياسية تبعا للظروف الداخلية والخارجية. والنواة المركزية في النظرية تصور لصيرورة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية شبيه بالتصور اللينيني عن الانتقال من الثورة الديمقراطية الى الثورة الاشتراكية. والاهم من هذا المظهر السياسي الصريح ما تتضمنه نظرية الثورة الدائمة من عنصر بروميثيوسي وجد تعبيره الرسمي في مقال نشر في ايلول ١٩٥٨ :

((كلما زادت قدرة البشر على القيام بثورة واعية على صعيد علاقاتهم الاجتماعية الخاصة ، تعاظمت طاقتهم في مناضلة الطبيعة ، وأمكن لهم ان يتحكموا بحرية ، كما لو بسحر ساحر ، بقوى الانتاج الكامنة التي يبرزونها الى الوجود ويضمنون لها التطور السريع . . .))[١].

---

[١] - من مقالة لوو يانغ بعنوان : ((لا بد لنصير نظرية الثورة الدائمة ان يكون بالضرورة ماديا جدليا منطقيا)).

وبديهي ان الموضوعة البروميثيوسية تشكل جزءا لا يتجزأ من الفكر الماركسي بوجه عام. ويُكثر المؤلفون الصينيون عادة من الاستشهاد في هذا السياق بكلمات انجلز بصدد البشر الذين ((يصبحون لاول مرة سادة فعليين وواعين للطبيعة ، لانهم – وبوصفهم – سادة علاقاتهم الاجتماعية الخاصة))[1]. ولكن من الممكن ان نتساءل في الوقت نفسه عما اذا لم تكن الاهمية التي يحيط بها المؤلفون الصينيون اليوم ، وعلى رأسهم ماو تسي تونغ ، هذا المظهر من الماركسية ، انعكاسا للاهتمامات التي تشغل في هذه الآونة بال شعوب البلدان المتخلفة بوجه عام. فلقد كانت نظرة ماركس وانجلز الى الطبيعة نظرة يونانية في جوهرها. فقد كانا يريان فيها وسطا يتوجب على البشر ان يعدلوه ، ولكن من دون ان يغيب عن أذهانهم أنها وسط مضياف أيضا. أما شعوب آسيا وأفريقيا فترى في الطبيعة بالأحرى عدوا ينبغي ((اعلان الحرب)) ضده ، حتى يصبح في وسعها ان تنتزع منها القوت الضروري للبقاء والموارد الضرورية للقوة العسكرية والاقتصادية.

ان الاسس الفلسفية لنظرية الثورة الدائمة ، تلك الاسس المستقاة مباشرة من كتابات ماو تسي تونغ ، تعكس أيضا مميزات المجتمع الصيني التي سبقت الاشارة اليها : التضاد بين الجديد والقديم، وما ينجم عنه من عدم استقرار ومن تغيرات مختلفة الالوان والاشكال. وقد استخلص المفكرون الصينيون من فكرة ان التغرات الكمية تفضي الى تغيرات نوعية رؤية للعالم تقوم على مبدأ الحركة الدائمة. فحتى بعد فناء الطبقات فناء تاما ستستمر التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. وستستمر بالتالي التناقضات بين أعضاء المجتمع. وسوف تُحل هذه التناقضات عن طريق سلسلة لا متناهية من ((القفزات النوعية)) التي يطلق عليها اسم الثورات والتي لن يكون عنها غناء حتى بعد بناء الشيوعية بناء كاملا.

وسواء أكانت نظرية الثورة الدائمة من وضع ماو تسي تونغ وحده أم كانت من وضع غيره أيضا ، فانها تشكل مساهمة أصيلة في تطوير اللينينية ، مساهمة متولدة عن الشروط الخاصة بالبلدان المتخلفة. ولقد كان تروتسكي نفسه ، مبتكر نظرية

---

[1] - انجلز ((ضد دهرينغ)) – ص ٣٢٢.

الثورة الدائمة ، يعتقد ان المجتمع ((يغير جلده باستمرار)) طوال حقبة غير محددة من الثورة الاشتراكية ولكن ليست غير محدودة[١]. أما في نظر الصينيين بالمقابل فان الثورة دائمة من منظورين اثنين : فهي تنطوي على تغيرات نوعية لا متناهية ، وهي لن تتوقف أبدا.

(٣)
القومية والاممية في فكر ماو تسي تونغ

كثيرا ما طرح هذا السؤال : هل أبدع ماو تسي تونغ أم لم يبدع صيغة جديدة من الماركسية – اللينينية ملائمة للشروط الخاصة بالبلدان المتخلفة؟ ان تصريحات ليو شاو شي بهذا الخصوص لها دلالتها الكبيرة :

((ان مساهمة ماو تسي تونغ الكبرى هي تحويل الماركسية من شكل أوربي الى شكل آسيوي. لقد كان ماركس ولينين أوروبيين ، وكتبا بلغات أوربية عن . . . مشكلات أوربية . . . ولا مراء في ان المبادىء الاساسية للماركسية موائمة لجميع البلدان ، ولكن ليس من السهل تطبيق هذه الحقيقة العامة على الممارسة الثورية العينية في الصين. و ماو تسي تونغ . . . هو أول من نجح في فعل ذلك . . . فقد خلق شكلا صينيا او آسيويا من الماركسية . . . والشروط مشابهة في سائر بلدان شرقي جنوبي آسيا. ولسوف يمارس طريق الصين تأثيره على الجميع))[٢].

((شكل صيني او آسيوي من الماركسية)) : هذا هو جوهر المشكلة. و ماو تسي تونغ نفسه لم يتكلم الا عن ((تصيين)) الماركسية ، وذلك في تقريره الى الدورة السادسة للجنة المركزية في تشرين الاول ١٩٣٨ : ((ان الشيوعي ماركسي أممي ، ولكن لا بد أن تتخذ الماركسية شكلا قوميا قبل ان يصبح في المستطاع تطبيقها في

---

١ - ل. تروتسكي: ((الثورة الدائمة)) – الطبعة الفرنسية لعام ١٩٢٠ – ص ٣٦.

٢ - آنا لويس سترونغ : ((فكر ماو تسي تونغ)) – مجلة ((امير آسيا)) – حزيران ١٩٤٧– ص ١٦١.

الممارسة. فلا وجود البتة لماركسية مجردة. واذا ما تكلم الشيوعيون الصينيون ، الذين يشكلون جزءا لا يتجزأ من الشعب الصيني الكبير ويرتبطون بهذا الشعب بروابط اللحم والدم ، عن الماركسية خارج اطار خصائص الصين ، فان هذه الماركسية ستكون مجردة وفارغة. ومن هنا فان تصيين الماركسية – أي تحميلها في جميع مظاهرها علامة خصائص الصين ، واستخدمها بالانسجام مع خصائص الصين – يصبح مشكلة يتوجب على الحزب قاطبة ان يفهمها ويحلها بلا تأخير)). ولكن عبارة ((تصيين الماركسية)) ، بالرغم مما توحي به من دقة في الظاهر ، لا تحدد بصورة لا لبس فيها طبيعة التحويل الذي أجراه ماو تسي تونغ على الماركسية. فعلاوة على تصيين اللغة حتى تصبح مفهومة من الشعب ، يمكن أن يعني ((التصيين)) تكييف الماركسية مع شروط الصين بوصفها بلدا آسيويا ، وبالتالي جعلها اكثر قابلية للتطبيق على مجمل البلدان المتخلفة. ويمكن ان يعني ((التصيين)) أيضا صبغ الماركسية بنزعة قومية ، بله عرقية ، صينية خالصة ، والتقليل بالتالي من شمولية قابليتها للتطبيق في آسيا.

ومن الممكن نظريا ان نتصور نوعا ثالثا من ((التصيين)) ، أبعد مدى وأعمق ، يتمثل في خلق مقولات تحليلية نوعية قابلة للتطبيق على الصين بوصفها قطرا له تاريخه وحضارته المنفردان. ولكن ماو تسي تونغ في الواقع لم يقدم مساهمة من هذا القبيل. فهو عندما يتكلم عن تطور الصين التاريخي ، لا يتقدم بأفكار نظرية مبتكرة لتوضيح بعض السمات الخاصة بالمجتمع الصيني وحده، بل يبذل جهده ، شأنه شأن أي مؤرخ سوفياتي ، لأدخال تاريخ بلاده في سرير بروكوست[١] المعروف باسم المخطط التاريخي : الشيوعية البدائية – الرق – الاقطاع – الرأسمالية – الاشتراكية ، وهو المخطط الذي قال عنه ماركس بنفسه انه لا يصلح للتطبيق أينما كان بلا استثناء[٢].

---

[١] - في الاساطير ، قاطع طريق كان يمدد ضحاياه على سريره ، فاذا كان الجسد قصيرا مدده بالقوة ، واذا كان طويلا قطع منه ما زاد عن طول السرير. ((المعرب))

[٢] - اكد ماو في النص الاصلي لمقالته ((الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني)) ان المجتمع الصيني لبث في حالة من الركود طوال قرون عدة، ولم يشرع بالتحرك من جديد ←

لقد قام ماو تسي تونغ بمساهمات نظرية فعلية. واذا كانت هذه المساهمات قد أملتها عليه تجربته في الصين ، فمن الواجب ألا ننسى ان شروط الصين ليست وحيدة من نوعها ، وان لها ما يوازيها في غيرها من أقطار آسيا وأفريقيا. ومن قبيل ذلك ، على سبيل المثال ، نموذج الاستيلاء على السلطة بواسطة حرب الانصار والثورة الزراعية. ومن قبيل ذلك أيضا نظرية دكتاتورية الشعب الديمقراطية وما تتضمنه من امكانية بناء الشيوعية في ظل دكتاتورية الطبقات الاربع. ولئن كان ماو قد صاغ أفكاره في جميع هذه الحالات على أساس تجربته الصينية ، فان العوامل التي شيدت عليها تلك النظريات – الاستياء الزراعي ، نفاذ الصبر تجاه الشروط القائمة ، التضامن القومي في مواجهة الغرب – مشتركة بين العديد من البلدان الاخرى.

ولكن اذا كانت مساهمات ماو تسي تونغ النظرية تمثل محاولة للتكيف مع شروط بلد متخلف ، فانها تمثل أيضا شكلا ((صينيا)) من الماركسية اكثر مما تمثل شكلا ((آسيويا)) ، وذلك بمقدار ما هي متسمة عميق الاتسام بالنزعة القومية الصينية. والتوازن بين المركب القومي والمركب الاممي في فكر ماو تسي تونغ لا يمكن الا ان يترك أثره في علاقات الصين مع بلدان العالم الثالث ، ومع الاتحاد السوفياتي ، ومع الغرب.

الصين والبلدان المتخلفة

لقد ترسخت منذ عام ١٩٣٦[1] على الأقل القناعة لدى ماو تسي تونغ بأن رسالة الصين هي بيان طريق التحرر للبلدان المستعمرة ونصف المستعمرة. ولكن اهتمامه بتسريع الثورة العالمية لا ينفصل عن اهتمامه بتعزيز قوة الصين ونفوذها. وليس

← الا تحت تأثير الغرب. أما في النص الراهن من تلك المقالة ، فانه أدخل الاطروحة التي تقول ان التغيرات التي كانت تتم في المجتمع الصيني كانت ستؤدي الى ولادة الرأسمالية حتى بدون تدخل أجنبي.

[1] - انظر مقابلته مع ادغار سنو في ٢٣ تموز من ذلك العام.

من المستبعد في بعض الحالات ، كما في مثال النزاع الصيني – الهندي ، ان تتصادم الدوافع القومية والدوافع الثورية. ومن الحق ان نتساءل في هذه الحال هل ماو تسي تونغ ثوري لينيني يستخدم النزعة القومية لغايات ثورية أم انه قبل كل شيء قومي لا تعدو الماركسية – اللينينية ان تكون بالنسبة اليه اكثر من شعار مناسب؟ يقيننا ههنا أنه لا هذا ولا ذاك. فهو من جهة أولى قد أحسن تمثل المقولات الماركسية ، وهو مخلص كل الاخلاص للثورة العالمية وللأممية البروليتارية ، ومن لغو القول الادعاء بأنه قومي النزعة قبل كل شيء وبأنه يستغل الماركسية – اللينينية لغايات قومية النزعة ليس الا. ولكن النزعة القومية لم تكن في نظره من الجهة الثانية ، كما كانت في نظر لينين ، شرا لا بد منه. ومجد الصين لا يقل قيمة بالنسبة اليه عن الثورة. ويمكن القول ان مقولات محاكماته العقلية ماركسية في جوهرها ، في حين ان نوابضه العاطفية العميقة مشدودة على الدوام باتجاه الأمة الصينية. وهو اذا كان يريد ان يحول بسرعة مجتمع الصين واقتصادها ليجعل منها بلدا حديثا قويا ، فهذا قبل كل شيء لكي تستعيد مكانتها المشروعة بين الامم.

وبهذا المعنى يكون ماو قد أنجز ((تصيين)) الماركسية بصورة تبعث مشاعر مختلطة بين أبناء البلدان المتخلفة الاخرى. ونحن اذ نؤكد عمق ارتباط ماو تسي تونغ بالصين ، فاننا لا نقصد ان الدوافع الايديولوجية ليس لها من شأن في نظره. فمثل هذا التوكيد باطل كل البطلان ، ولا سيما في هذه الآونة التي يشهر فيها الشيوعيون الصينيون لواء الاخلاص لحرف اللينينية ويندِّدون بهرطقة رفاقهم الاجانب. ولكن النزاع الصيني – السوفياتي ، الذي هو الى حد كبير نزاع أيديولوجي ، يدلل هو نفسه على أهمية العوامل الاخرى ، الانفعالية اكثر منها أيديولوجية.

ماو تسي تونغ ضد خروتشيف

ان الجذور العميقة للخلاف بين بكين وموسكو كامنة في اختلاف الوضع في كل من البلدين. ولقد سبقت الاشارة الى ((تناقضات)) المجتمع الصيني التي تجد

تعبيرها في فكر ماو وفي نظرية ((الثورة الدائمة)). وتجاه التناقض بين أشكال التفكير التقليدية وبين المواقف الديناميكية التي هي شرط التقدم التقني ، تبنى القادة الصينيون تدابير هي في غاية الجذرية رافقت انشاء الكومونات الشعبية واستهدفت لا تنظيم الانتاج تنظيما أفضل فحسب ، بل أيضا تحطيم عادات التفكير والسلوك القديمة. وتجاه التناقض بين القطاعات الصناعية الحديثة للغاية وبين الطابع البدائي للزراعة والصناعة اليدوية ، وجد ماو ورفاقه حلا مبتكرا في السياسة المسماة بسياسة ((السير على ساقين)) ، أي التوفيق بين التقنية الحديثة والمشاريع الجبارة وبين أساليب اكثر بدائية بكثير تتفق والمستوى الراهن من المعارف التقنية لدى الجماهير. وبديهي ان هذا الوضع والسياسة المتبناة لمواجهة – وهي السياسة التي تعتمد الى حد كبير على المبادرة من الاسفل – لا يمكن ان يتولد عنها نفس النوع من الايديولوجيا التي تتولد عن تنظيم اجتماعي وسياسة قائمين في جوهرها ، كما هي الحال في الاتحاد السوفياتي ، على الصناعة المخططة على نطاق واسع.

ان أحد المظاهر الاساسية للخلاف بين الاتحاد السوفياتي والصين يتمثل في الطريقة التي يتكلم بها الايديولوجيون في كلا البلدين عن التناقضات في ظل النظام الاشتراكي. وقد سبق ان لخصنا تطور فكر ماو بهذا الخصوص. أما في الاتحاد السوفياتي فنظرا الى ان لينين هو أول من صاغ فكرة ان ((التناقضات غير المتناحرة)) تستمر في ظل النظام الاشتراكي ، فان الايديولوجيين السوفياتيين لا يستطيعون نبذها نبذا كاملا ، وان لم تجد لها تطبيقا ذا دلالة بين ١٩٣٨ و ١٩٥٢. ولما كان ستالين نفسه قد اكد في عام ١٩٥٢ في مقالته عن ((مشكلات الاشتراكية الاقتصادية)) بأن التناقضات ما تزال موجودة فعلا في الاتحاد السوفياتي ، فلم يكن من الممكن الاستمرار في تجاهلها ، ولكن الحرص كان كبيرا على ارجاع تناقضات المجتمع السوفياتي الى جدل بين الانسان والطبيعة ، بين طلب السلع الاستهلاكية ومستوى الانتاج. أما التناقضات بين اعضاء المجتمع الاشتراكي – كما اكد ماو وجودها في عام ١٩٥٧ – فلم تطرح قط على بساط البحث ، اللهم فيما عدا ((التناقض)) بين بعض عملاء الامبريالية المعزولين وبين مجمل الشعب السوفياتي.

هذا عن المجتمع الاشتراكي ، أما بالنسبة الى مجتمع المستقبل الشيوعي ، فيكاد يكون هناك نفي مطلق لاحتمال وجود تناقضات داخلية فيه ، وذلك بعكس أطروحة ماو تسي تونغ. وأخيرا يؤكد الايديولوجيون السوفياتيون ان تناقضات المجتمع الاشتراكي تحل لا بالثورات بل عن طريق تحولات تدريجية ، بلا انقطاع وبلا قفزات نوعية.

ولقد كان الصينيون واعين ، حتى منذ عام ١٩٥٨ ، للاختلاف بهذا الخصوص بين موقفهم وموقف السوفييت ، وقد رأوا في موقف هؤلاء الآخرين برهانا ساطعا على تبرجزهم. وقد كتب وو يانغ في مقاله الآنف الذكر (١٩٥٨) يقول : ((يرى بعضهم ان انتصار البروليتاريا وظهور المجتمع الاشتراكي يعني نهاية الثورة الاجتماعية)). وفي نيسان ١٩٦٠ كان لو دينغ يي ، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني ، اكثر صراحة أيضا ، عندما فضح ((بعض النظريات)) التي ترى ((انه يكفي تدعيم النظام الاشتراكي دونما حاجة البتة الى تطويره ، وانه حتى اذا لم يكن هناك بد من تطويره ، وحتى اذا لم يكن هناك بد من التقدم باتجاه الشيوعية ، فلا ضرورة البتة للمرور بصراع او بقفزة نوعية. وبموجب هذا التصور فان صيرورة الثورة الدائمة للمجتمع الانساني ستستمر الى نقطة معينة ثم تتوقف. وهذا التصور يتطابق ، من وجهة النظر الفلسفية ، مع وجهة نظر ميتافيزيقية ، لا مع وجهة نظر المادية الجدلية))[1]. والحال ان ((بعض النظريات)) تلك هي نظريات ستالين نفسه الذي كان أول من أعلن في ((الماركسية ومسائل علم اللغة)) ان التناقضات في النظام الاشتراكي تحل عن طريق التبدلات التدريجية لا عن طريق القفزات النوعية.

ان اختلافات من هذا النوع تعكس وتشحذ الخلاف بين مناخ موسكو وبكين ، وتجعل التفاهم بين العاصمتين في غاية الصعوبة. كما ان ادعاء ماو تسي تونغ بأنه وجد ((طريقا)) يمكن ان يكون هاديا للبلدان الاخرى يشكل مصدرا آخر للنزاع. ومن المفيد ان نلاحظ ههنا ان نفوذ ماو ، بعد فترة وجيزة من وصوله الى السلطة ،

---

[1] - صحيفة الشعب اليومية – ٢٣ نيسان ١٩٦٠.

قد تجاوز حدود آسيا. فاليسار في أميركا اللاتينية أولى اهتماما مبكرا للنموذج الصيني. كما صرح رئيس دولة ألبانيا في أيلول ١٩٥٤ وهو يتلقى أوراق اعتماد أول سفير للصين في تيرانا : ((لقد سددت الثورة الصينية ضربة قاصمة الى الامبريالية ، وشجعت آمال الشعوب المضطهدة في آسيا والعالم ، وأظهرت لها طريق حريتها)).

فالى أي حد يشكل ((الطريق الصيني)) – طريق التحويل السريع للمجتمع من خلال تعبئة طاقات الجماهير – منافسا حقيقيا لدى شعوب العالم الثالث للنموذج السوفياتي ، نموذج التحديث عن طريق التنمية المستمرة والعقلانية للاقتصاد المخطط؟ الحق ان ذلك الطريق له جاذبيته ، حتى عندما يقع في بعض الاخطاء. واخفاقات الصينيين بالذات ستبدو لبعض شعوب البلدان غير الاوربية اخفاقات بطولية في مجرى النضال من أجل قضية مشتركة.

ماو تسي تونغ والغرب

اذا كان من الممكن ، في العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، أن يقع في بعض الاحيان صدام بين الدوافع القومية والدوافع الثورية ، فان رد الفعل الغاضب للقومي الآسيوي ونزعة عداء الامبريالية المنهجة لدى الثوري اللينيني يلتقيان ويعزز كل منهما الآخر عندما تنطرح مسألة العلاقات مع الغرب. وهذان النوعان من العوامل يلعبان دورهما في موقف ماو.

ان نقص معرفة ماو بالعالم الخارجي ، وبوجه خاص بالعالم غير الشيوعي ، يشجعه على الاعتقاد بأن الحكومة الامريكية او الفرنسية مكروهة من ٩٥ % من السكان ، وبأنها لا تصمد أمام هذه الكراهية الا بواسطة ارهاب غير محدود. ولعله اليوم قد أدرك العكس. ولكن حتى اذا كان قد أدرك ذلك ، فمن المرجح ، رغم اعلانه المتكرر عن ثقته ب ((شعوب)) البلدان الامبريالية ، أنه يعتبر أوروبا وأمريكا ((بؤرة ثورية مطفأة)) على حد تعبير البلشفي المسلم سلطان علييف.

ان موقف ماو من الغرب قد استقر ، على ما يبدو ، على عداء عنيد عضال. وقد اختفت من تصريحاته كل محاولة للتمييز بين العناصر الامبريالية والعناصر التقدمية نسبيا في الحكومات الغربية. وقد تكلم ماو مرارا عديدة عن حرب متواصلة لا هوادة فيها ضد أمبريالية الغرب. ومن المؤكد ان نظرية الثورة الدائمة الماوية تجد ههنا واحد من جذورها.

(٤)
خاتمة

لقد تتبعنا تطور ماو تسي تونغ الفكري على مدى نصف قرن من الزمن. ورأينا أنه اذا كانت عناصر عديدة قد تبلورت ، فان عناصر عديدة اخرى قد ظلت ثابتة. وفي محاولتنا الآن تلخيص مكانته في تاريخ الصين الحديثة وتأثيره في العالم قاطبة، سنتكلم أولا عما يمكن ان يكون موازيا له في بلدان أخرى ، ثم عن حدود دوره التاريخي.

القومية والتغريب في البلدان المتخلفة

لقد أشرنا في مستهل هذا البحث الى أن ثلاثة ردود أفعال تعاقبت على الصين منذ احتكاكها بالغرب : النزعة القومية التقليدية او المحافظة ، ونزعة التغريب الجذري، والنزعة القومية الثورية. ولقد قلنا ان النزعة القومية الثورية تمثل ، بالرغم من اتجاهها السياسي المعادي للغرب، أداة لتغريب المجتمعات غير الاوربية. فلئن كان أنصارها يرفضون بعض الافكار والمؤسسات مثل المذهب الفردي او الديمقراطية الليبيرالية ، فانهم يتبنون بحماس بالمقابل مفاهيم التقدم والفعالية ، ومثال مجتمع ديناميكي ذي حركية اجتماعية عالية ، وهدف تحويل الطبيعة.

وماو تسي تونغ متأثر الى أبعد حدود التأثر بالسمتين : الرئيسيتين للنزعة القومية الثورية : العداء السياسي للغرب ، وهو العداء الذي يؤلف بين قلوب جميع القوميين في البلدان المتخلفة ، وارادة تحويل المجتمع والموقف البروميثيوسي تجاه الطبيعة ، وهما ما يميزان القوميين الثوريين عن القوميين التقليديين. وقد قفز ماو مباشرة ، خلال تطوره الفكري ، من النزعة القومية التقليدية الى النزعة القومية الثورية ، من دون ان يمر ، ولو لفترة قصيرة ، بمرحلة التغريب الجذري التي تقع في منتصف الطريق بين المرحلتين الاوليين. وهذا على وجه التحديد ما أهله لان يكون زعيم الثورة الصينية. ولعلنا لو درسنا التطور الفكري لرجال من أمثال عبد الناصر وكاسترو وبيرون وسيكو توري ، بل حتى تيتو وغومولكا ، لوجدنا بينهم اكثر من ماو واحد ، بمعنى ان معظمهم ، ان لم نقل أجمعهم ، قوميون ثوريون ، انتماؤهم الى القومية أعمق في غالب الظن حتى من انتمائهم الى الثورة الاجتماعية ، أو على كل الاحوال سابق له زمنيا. ومن تعداد تلك الاسماء يتضح لنا ان اللينينية ليست الشكل الوحيد للنزعة القومية الثورية المزدهرة اليوم في البلدان المتخلفة. ولكن بمقدار ما ان ماو قومي أصيل وليس ثوريا لينينيا فحسب ، فان أفكاره ومثاله يمكن ان تجد قدرا من الحظوة حتى في أنظار أولئك الذين لا يشاطرونه مذهبه الماركسي.

هل تجاوز الزمن ماو تسي تونغ؟

لقد نوهنا ، عبر مجمل هذا البحث ، بالعناصر الارادية النزعة في تفسير ماو تسي تونغ للماركسية. وبديهي ان ((المذهب الارادي)) ليس غائبا لدى ماركس ولا لدى لينين اذا فهمناه على أنه مذهب تشديد اللهجة على العمل الواعي. ولكن هذا المذهب الارادي يكاد يكون مصابا بفرط التضخم في نظرية ((الثورة الدائمة)). يقول وو يانغ في مقاله الآنف الذكر:

((ليس البشر عبيدا للواقع الموضوعي. ويكفي ان يكون وعي البشر منسجما مع القوانين الموضوعية لتطور الاشياء. حتى يأخذ نشاط الجماهير الشعبية الذاتي كامل

مداه ، فيتغلب على الصعوبات كافة ، ويخلق الشروط الضرورية، ويتقدم بالثورة الى الأمام. وبهذا المعنى فان الذاتي يخلق الموضوعي)).

ولقد سبقت الاشارة الى ان لينين هو الذي فتح الباب لمثل هذا النوع من التطور بنظريته القائلة بأن ما هو سياسي يتقدم على ما هو اقتصادي في الازمات الثورية. ولكن لا ريب في ان الشيوعيين الصينيين يخطون ههنا خطوة اضافية كان لينين يرفض ان يخطوها. وأحد جذور هذه النزعة في الايديولوجية الصينية يكمن بلا مراء في وضع الصين بوصفها بلدا متخلفا ، وما ينجم عن هذا الوضع من نفاذ صبر ومن رغبة في تحويل العالم بين عشية وضحاها. وفي حالة ماو ، تضخم هذا العامل بنتيجة مزاجه الخاص وحبه للصراع وللدراما.

وهذه السمة الاخيرة هي التي باتت متناقضة مع طبيعة المهام التي يفرضها تحويل الاقتصاد الصيني. وكما كتبت انريكا كولوتي بيشل في دراستها الممتازة عن تطور الصين :

((لقد أنشأ ماو ، بدءا من الفلاح وو سونغ ، الذي خنق نمرا بيديه لانه كان أعزل من السلاح ولا يريد ان يموت ، رامزا بذلك الى طابع الثورة الصينية التي لا يمكن ان تقهر ، الى ((ريح الشرق التي تغلب ريح الغرب)) ، أنشأ منظومة من الموضوعات لا يمكن للاوروبي الا في أضيق الحدود ان يتفهم مقدار فاعليتها في أوساط الجماهير الصينية. وهذه القدرة على اجراء تراكيب خصبة وشعبية تمثل أداة رئيسية في المجهود المبذول لحفز الثورة وقيادتها في الصين ، وكذلك لتحويل جزء من الاندفاع الثوري الى مهام البناء السلمي. بيد ان هذه القدرة تصبح ذا أثر محدود اكثر فأكثر كلما تقدمت المشكلات التقنية والموضوعية لبناء الاشتراكية على النضال الثوري المسلح. ففي مجتمع معقد وأقل قابلية للتأثر بالعوامل الانسانية الخالصة ، وبوجه خاص العوامل الارادية والاخلاقية ، تفقد ((تبسيطات)) ماو جزءا من فاعليتها ويمكن ان تقع بسهولة عرضة للتكرار الميكانيكي والدوغمائي وان تشجع التهرب من مشكلات العالم الحديث العينية والنوعية))[1].

---

[1] - انريكا كولوتي بيشل ((الثورة اللا منقطعة)) – تورانو ١٩٦٢ – ص ٧١ – ٧٢.

ان الصينيين يواجهون اليوم المهام اليومية للتنظيم والانتاج في العالم الحديث ، وهي مهام أقل ما يقال عنها أنها بعيدة عن الروح الدرامية. ولا ريب في أنهم قد اضطروا الى التكيُّف مع هذا الواقع ، والى التخفيف من اتكالهم على كونهم ((حمرا)) ليزيدوا من اتكالهم على ضرورة كونهم ((خبراء)) ، والى التقليل من اعتمادهم على حماسة الجماهير ليزيدوا من اعتمادهم على المعارف التقنية في مشاريعهم لتحويل البلاد ، ولكنهم ما يزالون يرفضون الى الآن تكريس هذه التنازلات أيديولوجيا. وحتى لو وجدوا أنفسهم مكرهين على ان يفعلوا ذلك ، فمن غير المرجح ان يساهم ماو في ذلك: فهذا شيء يتناقض اكثر مما ينبغي مع شخصيته.

وصحيح ان شخصية ماو معقدة وتشتمل على تفهم غريزي للتنظيم بوصفه تقنية سياسية. ولكن التنظيم بالنسبة الى ماو وسيلة اكثر منه هدفا. وفي مقدورنا ان نلخص الفارق بينه وبين زملائه السوفياتيين بقولنا انه اذا كانت طوبائية هؤلاء الاخيرين هي طوبائية العقلانية ، فان طوبائية ماو هي طوبائية النضال. وعلاوة على ذلك فانه اذا كان نصير المذهب الجماعي ، واذا كان يعرف كيف يمارس السلطة بصورة غير مشفقة عند الحاجة، فانه في أعماقه رومانسي ، ان لم نقل فردي النزعة ، في تصوره عن الحياة. ولب التجربة السياسية هو في نظره اظهار طاقة الجماهير، باعتبار انه هو نفسه تجسيد لارادة الجماهير فهو مزيج من لينين وغاريبالدي ، مزيج غريب من الزعيم المتوقد ومن رجل الحكم الخبير، تماما كما ان صين القرن العشرين هي مزيج غريب من عصر النهضة وعصر الاتمتة. ولئن كان عصر النزعة الانسانية الفردية قد دام في الغرب قرونا خمسة ، فانه لم يدم في الصين اكثر من أجل حياة رجل واحد. ولقد بدأ ماو تسي تونغ حياته متمردا على القيود التي كان المجتمع التقليدي يفرضها على الفرد. وهو يواجه الآن أغلال التقنية الجديدة.

ان مأساة ماو تسي تونغ هي مأساة رجل جاهدَ طوال حياته ليتكيف مع شروط وأفكار جديدة ، وأفلح في ذلك اكثر من غالبية معاصريه ، ولكنه اكتشف على حين

غرة ان العالم الذي حاول التكيف معه على مدى نصف قرن من الزمن لم يعد له وجود او انه تبدل الى درجة لم تعد معها الصيغ القديمة صالحة للانطباق عليه. فلقد بدأ حياته قوميا هونانيا متأثر بالمواقف التقليدية ، ثم جعل هدف وجوده مكافحة التقاليد وهدم سيطرة الخرافات والاعراف والبنية الاجتماعية الهرمية على حياة مواطنيه حتى يتاح لهم ان يبرهنوا بملء الحرية على طاقاتهم في بناء صين جديدة. وخلال فترة التعلم التي دامت عشرين حولا توصل الى الربط بين الاساليب الثورية اللينينية وتراث الحركات الثورية الفلاحية ، والى تعبئة الجماهير باسم التضامن الطبقي ضد املاك العقاريين وباسم التضامن القومي ضد الغزاة اليابانيين في آن واحد. وفي عام ١٩٤٩، وبفضل موهبته وعدم كفاءة خصومه وانحلالهم، نجح في ادراك غايته ، ووجد نفسه سيدا بلا منازع على الصين. ولكن تحقيق النصر في طول البلاد وعرضها ليس ، كما قال هو نفسه ذات يوم ((إلا الخطوة الاولى في مسيرة طويلة من ١٠٠٠٠ فرسخ)). والدروس التي تعلمها خلال هذه المسيرة الطويلة وفي مجرى النضال من أجل السلطة كانت ذات قيمة محدودة. وصحيح انه قال بنفسه في عام ١٩٤٩ : ((اننا نستطيع ان نتعلم ما لا نعرفه)) ، ولكن القفزة من حرب الانصار الى حملات بناء اقتصاد صناعي حديث كانت قفزة هائلة وتحديا قاسيا لطاقات ماو على التكيف.

ولا ريب في ان المهام التي كان عليه ان يواجهها ليست هي على وجه الدقة نفس المهام التي يواجهها حكام البلدان الصناعية المتقدمة. فالاتحاد السوفياتي من جهة ، والولايات المتحدة وأوربا الغربية من جهة ثانية ، تواجه اليوم ، في شروط مختلفة ، مشكلة اعطاء معنى للنشاط الانساني بعد ادراك مستوى معين من الرفاه المادي. أما بالنسبة الى الصين ، فان هذه المشكلة ما تزال في غيب المستقبل. فالصين تمر اليوم بالمرحلة التي تكون فيها ((الحرب على الطبيعة)) والنضال من أجل المساواة على الصعيد العالمي كافيين لاعطاء معنى للنشاط الاجتماعي. ولكن حتى في هذه المرحلة المبكرة من التطور الاقتصادي يتوجب على ماو ورفاقه ان يواجهوا مشكلة الدور العظيم والمتعاظم للتنظيم في حياة المجتمع والاقتصاد. وأسطورة المسيرة

الطويلة لا تفيد كثيرا في حل هذه المشكلة ، تماما كما لم تفد في حلها أسطورة بروليتاريا القرن التاسع عشر في الاتحاد السوفياتي او أسطورة الرواد في أمريكا اليوم.

ولعل ماو يعرف ذلك، ولكن حتى اذا كان يعرفه فمن غير المرجح ان يكون راغبا في التغير او قادرا عليه ، وهو في السبعين من العمر ، ليتكيَّف مع عصر التنظيم. ومنذ بضع سنوات تتردد أصداء شائعات تقول انه انتهى الى موقف من الرضوخ يتسم بكل مرارة من بات يعلم انه لم يعد بمستطاعه ان يقدم شيئا جديدا. ولعل هذا لا يعدو ان يكون اكثر من انعكاس لمرحلة عابرة من البلبلة ، وليس من المستبعد ان يعرف ماو كيف يتصدى من جديد لهذا الواقع الذي أحسن التلاؤم معه خلال الاربعين سنة الاولى من نشاطه الثوري[1]. ولكن هذا ليس مؤكدا أيضا. بيد انه مهما تكن مساهمته في المستقبل ، فلا ريب في ان نظرياته وتجربته في شق الطريق الى السلطة في البلدان المتخلفة ستظل نافذة التأثير على مدى سنوات طويلة. وبالمقابل فان السؤال المتعلق بمعرفة ما اذا كان ما يزال قادرا على ان يقول شيئا ما بصدد الطريق الى تصنيع البلدان المتخلفة وتحديثها ما يزال الى اليوم سؤالا بلا جواب.

مقدمة

((ماو تسي تونغ : نصوص مختارة))

١٩٦٣

[1] - ان قيام ((الثورة الثقافية)) في الصين في الاعوام الاخيرة يؤكد ان ماو حاول على الاقل شيئا من هذا القبيل. ((المعرب))

روجيه غارودي :

الماوية بين الثورة الدائمة والثورة الثقافية

الخطة الخمسية الاولى
والنموذج السوفياتي

في الاول من تشرين الاول ١٩٤٩ تم الاعلان عن قيام الجمهورية الشعبية الصينية.

وفي المراحل الاولى ، أي حتى عام ١٩٥٦ ، لم يثر بناء الاشتراكية في الصين أي مساجلات نظرية كبيرة.

فلقد كان كل شيء يسير كما لو ان هذا البناء يطابق ((النموذج)) الكلاسيكي الذي أقيم في الاتحاد السوفياتي بعد ثورة اكتوبر.

وكانت النقطة الوحيدة التي تتميز بها الصين عن ذلك النموذج هي تصور الدولة. ولقد أشار ماو تسي تونغ الى هذا الفارق في تقريره الى المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الصيني في ٢٤ نيسان ١٩٥٤ : ((ان النظام الذي قام في روسيا كان مشروطا بتطور روسيا التاريخي)) ، وقد أفضى الى دكتاتورية البروليتاريا والى نظام الحزب الواحد. ويضيف ماو بأن هذا ((كان ضروريا كل الضرورة ، مشروعا كل المشروعية بالنسبة الى روسيا . . . وتطور الصين التاريخي في العصر الراهن سيولد بنية مطابقة له. فلسوف يقوم ، لفترة طويلة من الزمن ، شكل مناسب من اشكال الدولة ، شكل مبتكر من تنظيم السلطة ، ضروري كل الضرورة، مشروع كل المشروعية بالنسبة الينا ، ومختلف في الوقت نفسه عن النظام الروسي: دولة الديموقراطية الجديدة ، دولة تحالف عدة طبقات ديموقراطية)).

لقد كانت المشكلة المركزية مشكلة العلاقات مع البورجوازية. فقد كان الطابع القومي لنضال الشعب الصيني ضد الاوروبيين واليابانيين والامريكيين قد أحدث

فرزا بين مختلف الطبقات لا من وجهة نظر علاقاتها مع شغيلة المدن والارياف فحسب ، بل أيضا من وجهة نظر علاقاتها بالسيطرة الاجنبية.

ففي مجرى النضال القومي كان كبار الملاك العقاريين والبورجوازيون ((الكومبرادوريون)) قد تعاونوا مع جميع أعداء الامة. و ((دكتاتورية الشعب)) انما ستكون موجهة ضد هذه الفئات. وما يسميه ماو تسي تونغ ب ((الشعب)) هو كتلة العناصر الاربعة التي تتألف منها الجبهة المتحدة المناوئة لليابانيين : ((ما الشعب؟ انه في الصين ، وفي المرحلة الراهنة ، الطبقة العاملة ، والفلاحون ، وبورجوازية المدن الصغيرة ، والبورجوازية الوطنية. وقد اتحدت هذه الطبقات تحت قيادة الطبقة العاملة والحزب الشيوعي لتنظم دولتها الخاصة . . . ولتقيم دكتاتورية على أذناب الامبريالية ، أي على طبقة الملاك العقاريين والرأسماليين البيروقراطيين وممثليهم طغمة الكيومنتانغ الرجعية والمتواطئين معها))[1].

وما يميز تصور الدولة هذا عن تصور الديموقراطيات الشعبية الاخرى التي أقيمت في أوروبا في العصر نفسه هو كما نرى مساهمة اكبر من جانب البورجوازية الوطنية لا في الثورة فحسب بل أيضا في الدكتاتورية الشعبية في ظل هيمنة البروليتاريا. ويرجع هذا الفارق الى الطابع النوعي للبلدان التي رزحت طويلا تحت نير الاستعمار والتي يمكن فيها للتناقض بين البورجوازية الوطنية والامبريالية ان يصبح أشد حدة من التناقض بين هذه البورجوازية وبين البروليتاريا.

أما الوظائف الاقتصادية والاجتماعية لهذه الدولة فكانت منسجمة في جوهرها مع ((النموذج)) السوفياتي فيما يتعلق بالانتقال الى الاشتراكية في الريف عن طريق التطور التعاوني ، وبتصنيع البلاد عن طريق خطة خمسية تعطي الاولوية للصناعة الثقيلة. ولم تظهر معالم الخِلاف الى الوجود الا بعد عام ١٩٥٦.

---

[1] - ماو تسي تونغ : ((دكتاتورية الشعب الديموقراطية)) – دار النشر للغات الاجنبية – بكين ١٩٤٩ – ص ١٣.

كان الاصلاح الزراعي الذي أعطى الارض للفلاحين قد مزق العلاقات الاقطاعية في الريف ، وشرع بالقضاء على الربا الذي كان معدله ٥% شهريا في عام ١٩٣٧ ، و ١% يوميا في عام ١٩٤١ في ظل حكم شيانغ كاي شيك.

ومنذ ان أقيمت ((القواعد الحمر)) في الارياف في عام ١٩٢٧ ، تصدت القوانين الزراعية لتصفية العلاقات الاقطاعية وللنضال ضد كبار الملاك العقاريين المرابين عن طريق المصادرات والتوزيع المتساوي للارض.

وقد تم تنسيق هذه التدابير مع صدور ((قانون الاصلاح الزراعي لجمهورية الصين الشعبية)) في ٢٨ حزيران ١٩٥٠ ، وهو القانون الذي استفاد منه ٣٠٠ مليون فلاح. وقد كان الهدف تصفية الاستغلال الاقطاعي. وكانت الوسيلة الاعتماد على الفلاحين الفقراء والتحالف مع الفلاحين المتوسطين.

وكان هذا الجواب على طموح الفلاحين الى امتلاك الارض غير كاف لتطوير القوى المنتجة في الزراعة على النطاق الضروري لاحداث تغيير عميق في شروط حياة الشعب الصيني.

وفي خريف ١٩٥٢ كان الاصلاح الزراعي قد أنجز في شتى أرجاء البلاد. ولكن هذا النثار من قطع الاراضي ، بين أيدي الفلاحين الصغار المتحررين من العبوديات القديمة والمالكين لأرضهم ولكن المنعزلين في استثماراتهم ، لم يكن يَسمح بتقدم كبير في الانتاجية.

وبالاضافة الى ذلك ، وبالنظر الى هيمنة الفلاح المتوسط على اقتصاد القرية ، ظهرت شروط موائمة لتطور الرأسمالية في الزراعة وأشكال جديدة من استغلال الانسان.

ولحل هذه المشكلة الجديدة ، أي للمضي الى الامام في عملية التحويل الاشتراكي المنافي لامكانية معاودة ظهور علاقات الاستغلال ، ولخلق شروط انطلاقة كبرى للقوى المنتجة في الزراعة في آن واحد ، إتُخِذَ قرار ابتداء من عام ١٩٥٢ بتنظيم التعاون الزراعي في شكل ((فرق المساعدة المتبادلة)) التي تجاوزت الروح الانعزالية والفردية ، ورفعت معدل الانتاجية ، وهيأت الفلاحين لاشكال أعلى من

العمل الجماعي. وفي تلك المرحلة كانت الملكية الخاصة للارض ما تزال قائمة ، ولكن العمل كان مشتركا اما بصورة موسمية واما بشكل دائم ، وكانت تؤديه فرق مؤلفة من حوالي عشر أسر.

وكانت المرحلة التالية هي مرحلة تشكيل تعاونيات حقيقية يساهم فيها كل فلاح بحصته من الارض وبوسائل انتاج أخرى برسم الاستثمار الجماعي.

أما الانعطاف الكبير في تطبيق الجماعية في الارياف ، وهو الانعطاف الذي شمل اكثر من ٥٠٠ مليون نسمة ، فيعود تاريخه الى أواسط عام ١٩٥٥. وبالرغم من ان ماو تسي تونغ اكد بهذه المناسبة ان ((التجربة السوفياتية تهدينا ، هنا أيضا ، الى سواء السبيل)) ، فإنه ألح بصورة تسترعي الانتباه على فكرة ان ((التعاون في ميدان الزراعة يجب ان يسبق استخدام المكننة على نطاق واسع بالنظر الى شروط بلادنا النوعية)) ، وكذلك على فكرة ان ((تحويل التقنية سيستغرق تحقيقه فترة أطول من تحقيق التحويل الاجتماعي بالنظر الى الشروط الاقتصادية التي تواجهها بلادنا)).

وماو يعبر ههنا ، من وجهة النظر النظرية ، عن أحد الفروق النوعية لبناء الاشتراكية الصينية بالمقارنة مع الشروط الغربية : ففي البلدان الرأسمالية المتقدمة تتأخر علاقات الانتاج عن تطور القوى المنتجة ، أما في الصين فان هذه العلاقة معكوسة وماو تسي تونغ لا يتردد في تشديد اللهجة على تفاوت مزدوج : دفع تطور علاقات الانتاج الى الامام بحيث تتخطى من بعيد الحالة الواقعية للقوى المنتجة ، ودفع تطور الايديولوجيا الى الامام بحيث تتخطى من بعيد علاقات الانتاج القائمة. وهذا ما سيتجلى بوضوح اكبر عند انشاء ((الكومونات الشعبية)) في عام ١٩٥٨، ثم عند اندلاع ((الثورة الثقافية)) في عام ١٩٦٦.

اما التصنيع فقد تحقق ، في مراحله الاولى في الصين ، تبعا للنموذج الكلاسيكي الذي يعطي الاولوية لتطور الصناعة الثقيلة.

وكان ماركس قد أقام البرهان في ((الرأسمال)) (وقد أثبتت التجربة السوفياتية تجريبيا صحة هذا البرهان) على ان التنمية الاقتصادية المتناغمة غير ممكنة الا اذا كانت وتيرة نمو انتاج وسائل الانتاج أعلى من وتيرة نمو انتاج سلع الاستهلاك.

وفي حالة الصين ينضاف الى ذلك سبب قومي : فقد دعا ((الخبراء)) الغربيون ، في أيام تبعية الصين ، الى اتباع الاسلوب المعاكس ، بهدف ابقاء الصين في أغلال هذه التبعية. ومن هنا فان التصنيع الذي يعطي الاولوية لانتاج وسائل الانتاج كان يلبي بالنسبة الى الصين ضرورة مزدوجة :

– خلق القاعدة الاقتصادية والتقنية لبناء الاشتراكية.

– خلق القاعدة الاقتصادية والتقنية لاستقلالها القومي.

ولقد كانت هذه مهمة جبارة نظرا الى التركة الموروثة عن النظام القديم نصف الاقطاعي ونصف الاستعماري.

ففي عام ١٩٣٧ لم تكن الصناعة الحديثة تمثل سوى ١٠% من انتاج البلاد. وكانت الصناعة الخفيفة هي السائدة ، ولم تكن وظيفتها تلبية حاجات الصين بل حاجات الدول الاستعمارية. وكان ٧٠% منها مُرَكّزا في المناطق الساحلية ، قرب الموانىء. أما الصناعة الثقيلة فكانت مقتصرة ، كما في جميع البلدان المستعمرة ، على صناعات استخراج المعادن او التحويل الاولي.

ثم ان الحرب ضد اليابان وعمليات السلب التي قام بها رجال شيانغ كاي شيك والاحتكارات الاميركية أصابت الانتاج بتدمير شديد الى درجة ان الهدف الاول للحزب الشيوعي الصيني فور التحرير كان في عام ١٩٥٢ ادراك مستوى الانتاج الصناعي لعام ١٩٤٣.

ولقد كان الشعار المرفوع منذ أيلول ١٩٤٩ : ((تحويل الصين من بلد زراعي الى بلد صناعي)). وكان الطريق الى ذلك التخطيط وتطوير الصناعة الثقيلة. وتلافيا للاصطدام في كل لحظة بالمصالح الخاصة أتخِذت بعض تدابير التأميم. وفي عام ١٩٥٠ لم تكن حصة قطاع الدولة من مجمل الانتاج الصناعي تتجاوز ١٥%.

وبالمقابل وضعت رأسمالية الدولة يدها في عام ١٩٥٤ على ٨٦% من الانتاج الصناعي الخاص.

ولقد كانت وتيرة التصنيع ابان الخطة الخمسية الاولى التي بدأت في عام ١٩٥٢ مرتفعة جدا الى درجة ان الاهداف المحددة لعام ١٩٥٧ قد تم تجاوزها منذ عام ١٩٥٦ بنسبة ١٣%.

ولئن كانت الصين في عام ١٩٤٩ اكبر بلد متخلف في العالم اذ كانت تحتل المرتبة السادسة والعشرين في انتاج الفولاذ والمرتبة الخامسة والعشرين في انتاج الكهرباء ، فانها أمست بعد عشر سنوات من قيام الاشتراكية تحتل المرتبة السابعة في انتاج الفولاذ والمرتبة التاسعة في انتاج الكهرباء.

تداخل مشكلات التنمية

ومشكلة بناء الاشتراكية

ان هذا التراكم البدائي الضروري لرفع مستوى حياة شعب عانى من المجاعات الفتاكة طوال آلاف السنين ولضمان استقلاله القومي قد اقتضى جهودا وتضحيات لا حصر لها وتركيزا شديدا للسلطة.

وردا على ((الاخلاقيين)) الذين أنحوا بالائمة على الاتحاد السوفياتي أولا ثم على الصين لانهما ضحيا بالجيل الراهن على مذبح سعادة الاجيال اللاحقة وأعطيا الاولوية لمقتضيات الانتاج، يجدر بنا ان نعيد الى الاذهان ان هذين البلدين كان عليهما ان ينجزا مهمتين في آن واحد. المهمة الاولى خاصة بالاشتراكية : تحويل علاقات الانتاج. والمهمة الثانية : التراكم والتصنيع ، وهي مهمة أنجزتها الرأسمالية قبل اكثر من قرن من الزمن في البلدان الرأسمالية المتقدمة.

لقد كان تداخل مشكلات بناء الاشتراكية وتصفية التخلف بمثابة مأساة بالنسبة الى الشعوب التي كان عليها ان تقيم الاشتراكية في بلدان متأخرة تقنيا واقتصاديا. فقد كان عليها ان ترتضي بتضحيات مرهقة وطويلة الامد. كما لم يكن هناك مناص من

ان تتخذ سلطة حازمة جميع التدابير الضرورية للاستمرار في هذا المجهود بالرغم من التخريب والعدوان الخارجي ، وبالرغم من عدم التفهم في الداخل حيث كانت ضمائر الناس ترزح تحت وطأة قرون مديدة من العبودية.

وعندما يُلقي المرء نظرة على الشوط الذي تم قطعه ، فانه سيتوصل بلا أدنى ريب ، فيما اذا كان موضوعيا في حكمه ، الى الاستنتاج بأن الانحرافات الرهيبة التي ظهرت في الاتحاد السوفياتي في عهد ستالين لم تنبثق عن طبيعة النظام الاشتراكي بالذات ، وانما عن تداخل مشكلات تصفية التخلف مع مشكلات بناء الاشتراكية[1].

وسوف نتطرق بالروح نفسها الى المنظورات الجديدة ل ((الثورة الثقافية)).

ولو تذكر ((أخلاقيو)) الغرب ، المتطاولون بشراسة على الستالينية او الماوية ، الشروط التي حققت بها بلدانهم ((الرفيعة الحضارة)) تراكمها البدائي وتصنيعها في العصر الذي أسماه ماركس عصر ((عربدات الرأسمال)) ، لالتزموا على الاقل جانب من التواضع.

فقد كان مصدرا هذا التراكم البدائي الضروري للتصنيع :

أ – استعمار مستفرس أفقر قارات بأكملها وأحيا العبودية ، من أميركا اللاتينية الى أفريقيا السوداء.

ب – سحق بربري للبروليتاريا الاوروبية.

[1] - لا يتفق الصوت الشيوعي مع هذا الرأي حيث اننا نرى عكس ذلك : ان الانحرافات الرهيبة التي ظهرت في الاتحاد السوفياتي في عهد ستالين انبثقت بالذات وبصورة أساسية عن طبيعة النظام الاشتراكي ، فنمط الاشتراكية الروسية القائم على الالغاء التام للملكية الخاصة بكل احجامها ، بما في ذلك الملكية الخاصة الصغيرة ، ادى الى خلق نظام اجتماعي "اشتراكي" مغلق يجرد الافراد من حريتهم الفردية ويضيق عليها بما يتناقض وطبيعة الانسان. كذلك اتسام هذا النمط بالغاء الحوافز المادية التي تراكي كمية العمل والاقتصار على الحوافز المعنوية والحوافز المادية التي تراعي نوعية العمل ادى الى كون هذا النظام "الاشتراكي" نظام فاشل لا يحث على العمل. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

ومن هنا ، وعندما نقيم التشويهات التي تعرض لها نموذج الاشتراكية في البلدان التي واجهت تداخل مشكلات التراكم البدائي الضروري للتصنيع مع مشكلات بناء الاشتراكية ، فان أبسط معايير الموضوعية تلزمنا :

١ – بألا نعزو الى مبدأ الاشتراكية بالذات ما هو ناجم عن ضرورة حل مشكلة التراكم والتصنيع ، وبأن نلاحظ ان هذه المهمة التاريخية ، بالرغم من كل الاخطاء المقترفة ، قد أنجزت في البلدان الاشتراكية بأقل بكثير من اللاانسانية مما في البلدان الرأسمالية.

٢ – بألا نعمم بصورة تعسفية الطرائق والتشويهات المشروطة بانجاز تلك المهمة على البلدان الاوروبية التي ستحقق الاشتراكية من دون ان تكون ملزمة بانجاز مهمة التراكم والتصنيع التي سبق للرأسمالية ان أنجزتها (وبأي وحشية!).

ان التشويهات التي يمكن ان تنشأ عن تداخل مشكلة التراكم والتصنيع ومشكلة بناء الاشتراكية قابلة للتصنيف في مجموهتين :

١ – ميل الى النزعة الارادية المنافية لروح الاشتراكية العلمية بالذات. فعندما تكون علاقات الانتاج متقدمة على حالة القوى المنتجة والايديولوجيا متقدمة على علاقات الانتاج ، وعندما تكون القرون الطويلة من العبودية والبؤس قد أوجدت حالة متوترة من نفاد الصبر ، فان الاغراء يكون كبيرا ، على حد تعبير لينين ، في ((انزال نفاد الصبر منزلة المبدأ النظري)) ، وفي المبالغة من أهمية اللحظة ((الذاتية)) ، وفي الايمان بالقوة الفائقة للقرارات المتخذة بمعزل عن الشروط الموضوعية.

٢ – ميل الى تشخيص السلطة والنفوذ. فالتركيز الشديد للقوى والانضباط الصارم الضروريان لانجاز تلك المهمة الجبارة ، يخلقان الشروط الموائمة لتجسيد كل قوة الجهود الجماعية في شخص القائد ، فتعزى اليه كل النجاحات المتحققة وتنسب اليه القدرة على معرفة الحقيقة كلها. وعندما تظهر مثل هذه الحركة لدى شعوب عرفت في ظل الانظمة الطبقية أحط أشكال التدين البدائي ، فان ذلك الميل الى تشخيص السلطة يأخذ شكل عبادة الشخصية مع كل ما تنطوي عليه هذه العبادة

من تبسيط ودوغمائية (لنتذكر الموقف من كتيب ستالين ((المادية التاريخية والمادية الجدلية)) الذي قيل انه يشتمل على كل فلسفة الاشتراكية و ((علمها)) ، والموقف اليوم من كتيب ((أقوال الرئيس ماو)) الذي يؤدي الوظيفة عينها).

بيد ان هذه التشويهات ليست ((ضرورة)) تاريخية ، وذلك ما دامت بلدان أخرى من أمثال منغوليا وكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية قد تصدت لتلك المهام من دون ان تمر بالمرحلة التي تمر بها حاليا الثورة الصينية.

فما الشكل الخاص بالصين الذي تجلت فيه نتائج هذا التداخل بين مشكلات التخلف ومشكلات الاشتراكية؟

القفزة الكبرى الى الامام

حتى عام ١٩٥٦ ، بل حتى حوالي عام ١٩٥٨ ، كانت الصين قد سارت ، بوجه الاجمال ، في طريق الاتحاد السوفياتي لبناء الاشتراكية.

وقد أخذ النموذج الصيني ينفصل واضح الانفصال عن النموذج السوفياتي في حوالي عام ١٩٥٨.

فما أسباب هذا الانعطاف وما دلالته؟

لقد كان المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، الذي انعقد بين ١٤ و ٢٥ شباط ١٩٥٦ ، مرحلة حاسمة في تاريخ الحركة العاملة العالمية.

ففي الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفياتي قد أفلح ، بالرغم من دمار الحرب العالمية الثانية ، في انجاز تصنيعه ، راح يتضح ان الطرائق التي اعتمدت حتى ذلك الحين ما عادت مناسبة للتصدي للمهام الجديدة.

ان النجاحات الرائعة التي تم انجازها قد فتحت آفاقا جديدة للمستقبل في الداخل والخارج على حد سواء : ففي الداخل بات في الامكان دمقرطة جميع مظاهر حياة البلاد ، من الاقتصاد الى السياسة والثقافة ، وفي الخارج بات التعايش السلمي القادر

على منع الامبريالية من افلات الزمام لكل نتائجها ومن اشعال حرب عالمية ثالثة ممكنا بفضل ما اكتسبه المعسكر الاشتراكي من قوى جديدة.

وقد أتاحت حصيلة هذه الانتصارات وما فتحته من آفاق امكانية توجيه نقد عميق للاخطاء التي خلقت مهام التراكم والتصنيع شروطها الموضوعية. ولقد كانت هذه الاخطاء دامية وباهظة التكاليف بنتيجة الخرق الذي يتزايد فظاظة لمبادىء الحزب والدولة الاشتراكية وما ينجم عن الدوغمائية والارهاب من تشويه لدكتاتورية البروليتاريا.

ومن المؤسف ان ن. س. خروتشيف ، الذي يعود اليه الفضل الكبير في فضح هذه المجموعة المعقدة من الظاهرات ، قد بسطها تحت اسم ((عبادة شخصية ستالين)) التي هي في الواقع نتيجة هذه التشويهات وليست جذرها.

ولقد كانت صدمة المؤتمر العشرين قاسية. من جهة أولى بسبب الشروط التي تم فيها في الاتحاد السوفياتي نقد ستالين. ومن الجهة الثانية – وهذا هو السبب الاهم بما لا يقاس – بسبب استغلال الوقائع التي أسفر النقاب عنها من قبل جميع أعداء الاشتراكية الذين لم يروا في المؤتمر العشرين حصيلة الانتصارات والآفاق المفتوحة ، وانما فرصة سانحة للتهجم ، بذريعة نقد ستالين ، على مبدأ الاشتراكية بالذات.

ودراسة ردود الفعل الاولى للحزب الشيوعي الصيني تجاه المؤتمر العشرين وتجاه ما تلاه من أحداث في بولونيا والجمهورية الالمانية الديموقراطية ، وبوجه خاص في المجر ، تتيح لنا ان نضع اصبعنا على المعالم الاولى لواحد من عوامل الانعطاف الذي سيحدث في الصين ، وهذا بالرغم من ان المؤتمر العشرين لم يكن سبب الخلافات ولا حتى مصدرها الرئيسي ما دامت ردود الفعل الصينية الاولى تجاه هذا المؤتمر ايجابية في جوهرها.

فمن المقال الاول المنشور في ٥ نيسان ١٩٥٦ تحت عنوان ((حول التجربة التاريخية لدكتاتورية البروليتاريا))[1] ألح الحزب الشيوعي الصيني الحاحا شديدا على موضوعة التناقضات في ظل النظام الاشتراكي : ((من السذاجة الاعتقاد بأنه ما عاد ممكنا ن توجد تناقضات في مجتمع اشتراكي. ان انكار وجود التناقضات يعني انكار الجدل . . . وتطور المجتمع يستمر دوما وسط تناقضات متواصلة. والمجتمع الاشتراكي أيضا يتطور عبر التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج)).

وفي المقال الثاني ، المكرس للموضوع نفسه ، والمنشور في ٥ كانون الاول من العام نفسه ، بعد أحداث بولونيا وألمانيا والمجر ، شدد الحزب الصيني اللهجة على تناقضات أخرى : التناقضات الناجمة عن القطيعة بين القادة والجماهير : ((ان العامل الحاسم هنا حالة الانسان الفكرية . . . فستالين انفصل عن الجماهير والمجتمع)).

والاستنتاجات العملية والسياسية التي استخلصتها قيادة الحزب الشيوعي الصيني من أحداث المجر دفعت في بادىء الامر الى السعي الى التجاوب تجاوبا أفضل مع صبوات الجماهير ، ولو على حساب تنازلات لصالح العفوية ونفاد الصبر والآمال في الخلاص السريع والنهائي : ((ان الجماهير العريضة في البلاد قاطبة . . . متلهفة الى ازاحة العقبات المتمثلة في التأخر التقني والثقافي . . . وترى لجنة الحزب المركزية والرفيق ماو تسي تونغ انه قد آن الاوان لرفع شعار ثورة تقنية وثورة ثقافية في آن واحد))[2].

وكانت المرحلة الاولى في هذه المحاولة لاطلاق العنان لمشاعر نفاد الصبر ذات طابع ((ليبرالي)) ، مرحلة ((لتتفتح مئة زهرة)). وقد بدأت مع خطاب ماو تسي تونغ في شباط ١٩٥٧ ودامت حتى الربيع. وكانت ((الآفات الثلاث)) التي جرى

---

[1] - النص الكامل لهذا المقال منشور في كتابنا المترجم ((في التنظيم الثوري)) – دار الطليعة – بيروت – ص ٨٩ الى ١٠٧.

[2] - من تقرير ليو شاو شي الى اللجنة المركزية في ٥ ايار ١٩٥٨.

التنديد بها رسميا آنذاك هي : البيروقراطية والعصبوية والنزعة الذاتية. ولكن سرعان ما انعكس التيار ازاء انفلات النقد من عقاله ، وبدأ النضال ضد اليمينيين.

ويومذاك أطلقت الوعود الجزافة عن ((القفزة الكبرى الى الامام)) و ((الكومونات الشعبية)). ثم بدأ التشكيك بشمولية النموذج السوفياتي ، والبحث عن طريق صيني خاص لبناء الاشتراكية : ((ان جزءا من تجربة النجاحات التي حققها الاتحاد السوفياتي له طابع أساسي وقيمة عامة في المرحلة الراهنة من تاريخ الانسانية. انه الجزء الرئيسي من التجربة السوفياتية. والجزء الآخر من هذه التجربة ليس بذي مدى شمولي. وعلاوة على ذلك فان تجربة الاتحاد السوفياتي تنطوي أيضا على أخطاء واخفاقات))[1].

((اننا قادرون تماما على تفهم ضرورة معالجة اخطاء الماضي الدوغمائية وصعوبة ذلك بالنسبة الى الرفاق في بولونيا والمجر في الوقت الراهن . . . ولقد وجد في تاريخ الحزب الشيوعي الصيني دوغمائيون كانوا ينكرون خصائص الصين وينسخون ميكانيكيا بعض تجارب الاتحاد السوفياتي ، الامر الذي جعل القوى الثورية في بلادنا عرضة لمتاعب جدية))[2].

وقد قاد هذا التصور القادة الصينيين ، من منظور الممارسة السياسية والاقتصادية ، الى عقد العزم على تسريع مفاجيء للمسيرة نحو الشيوعية.

وهكذا أطلق في شباط ١٩٥٨ ، بمناسبة بدء العمل بالخطة الخمسية الثانية ، شعار ((قفزة كبرى الى الامام)) في الصناعة. وكان التطور الصناعي قد تحقق حتى ذلك الحين – طريقة الاتحاد السوفياتي وبمساعدته – في شكل انشاء وحدات صناعية حديثة كبيرة.

وانطلاقا من فكرة ان القطاع المديني من الاقتصاد الصيني ليس أساسيا وان المجهود الرئيسي يجب ان ينصب على مؤخرة البلاد ، أي الارياف ، بهدف تعبئة طاقات الشعب العميقة في اطار رحب من اللامركزية ، إتُّخِذَ قرار بعدم الاكتفاء

---

[1] - المصدر نفسه – ص ٣٢.
[2] - المصدر نفسه – ص ٥٢.

بالتصنيع ((من الاعلى)) وبمضاعفة وحدات التنمية. وكان هذا يعني عمليا ((السير على ساقين)) على حد تعبير ماو تسي تونغ ، أي التطوير المتواقت للوحدات الصناعية الكبيرة ولعدد كبير من المراكز الريفية.

وكانت نتيجة ذلك ولادة المئات من الافران العالية الصغيرة ، ومن معامل فحم الكوك الصغيرة، ومن معامل الاسمنت والحديد والورشات من كل شكل ولون ومن مختلف المستويات التقنية. ومن الصعب ان نُقدِّر بدقة النتائج التي تم احرازها ، ولكن ليس من المغالاة القول بان معظم هذه المشاريع كان خاسرا ، والدليل ان العديد منها مات او أُلغي في عام ١٩٥٩ في أعقاب الدورة الاستثنائية للجنة المركزية التي انعقدت بين ٣ و ٢٥ أيار لبحث موضوع ((التقويم)). وقد إتُّخِذَ قرار بالامتناع منذ ذلك اليوم عن نشر احصاءات.

ولا ريب في ان الاهداف المحددة ما كانت تقيم كبير اعتبار للامكانيات الموضوعية ، وقراءة القرارات المتعاقبة تكفي وحدها لادراك حقيقة ان ((نفاد الصبر قد أنزل منزلة المبدأ النظري)).

وقد كتب مراقب عاش بين ١٩٥٨ و ١٩٦١ في الصين يقول بحق : ((لقد بدأت قيادة الحزب الشيوعي الصيني في عام ١٩٥٨ بالابتعاد عن التحليل العلمي للموقف))[1]. وقد تترجم هذا الانفصال عن الواقع لا بوقت نشر الاحصائيات منذ عام ١٩٥٩ فحسب ، بل أيضا بعدم اخضاع النتائج لرقابة الحزب : فالمؤتمر القومي للحزب الذي يُفترَض فيه بموجب الانظمة الداخلية ان يعيد انتخاب اللجنة المركزية كل خمس سنوات وان يجتمع هو نفسه كل سنتين لم يُدعَ للانعقاد منذ عام ١٩٥٨.

ان نقدنا هذا ، المستند الى وقائع صريحة واضحة للعيان ، لا ينطوي على أي رأي مسبق تجاه خصوصية الطريق الصيني : فليست الطوبائية ان نريد الانتقال مباشرة من نظام اقطاعي الى الاشتراكية ، بل الطوبائية ان نريد انجاز هذا الانتقال من دون ان نحقق ، داخل الاشتراكية ، مهام التراكم والتصنيع التي حققتها

---

[1] - جان اميل فيدال : ((الى أين تسير الصين؟)) المنشورات الاجتماعية ١٩٦٧ – ص ١٢.

الرأسمالية في أقطار أخرى ، وان نزعم اننا نحرق المراحل من دون ان نقيم كبير اعتبار للشروط الموضوعية.

والحال ان هذا الميل أشد وضوحا أيضا في تأسيس ((الكومونات الشعبية)) خلال صيف ١٩٥٨.

الكومونات الشعبية

ان ((الكومونة الشعبية)) هي أولا اندماج عدد من التعاونيات في وحدة اقتصادية كبيرة تجمع بين الصناعة والزراعة والتجارة. وهي ثانيا التنظيم الاساسي للسلطة السياسية من حيث أنها تمارس وظائف الدولة كافة : الامن عن طريق تسليح الشعب قاطبة وتشكيل الميليشيا ، العدالة والشرطة ، الادارة المالية ، التعليم والثقافة. وهي أخيرا أداة التربية المدنية والاخلاقية للشعب بروح الشيوعية.

ولقد كان الغرض من الكومونة الشعبية ، تلك الوحدة القاعدية للانتاج ، وتلك الوحدة القاعدية لسلطة الدولة ، وتلك الوحدة القاعدية لتثقيف الامة أيديولوجيا وأخلاقيا ، أقول : كان الغرض منها تسريع الانتقال الى الشيوعية.

وكثيرا ما جرى تعريفها بأنها ((طريق مختصر الى الشيوعية)) وبأنها النمط التنظيمي لجميع العلاقات الاجتماعية المميزة للطريق الصيني الى الشيوعية ، والعنصر النوعي في النموذج الصيني.

والمهام الاساسية الثلاث المنوطة بالكومونات هي :

١ – تنمية القوى المنتجة بوتيرة متسارعة عن طريق تصنيع مؤخرة البلاد بأسرها ، ومكننة الزراعة ، وكهربة الارياف ، عن طريق شن معركة كبرى ضد الطبيعة وتعبئة طاقات الجماهير.

٢ – تسريع تحول علاقات الانتاج في مرحلة الانتقال من الاشكال التعاونية للملكية الاشتراكية الى الملكية الشيوعية للشعب قاطبة.

٣ – تربية انسان مجتمع المستقبل الشيوعي فكريا وسياسيا وأخلاقيا.

وعلى هذا فان مبادرة ((الكومونات الشعبية)) هي مركب من سياسة ((القفزة الكبرى الى الامام)) ومن أيديولوجيا ((الثورة الدائمة)) اللتين يتجسد فيهما ، على الصعيد العملي وعلى الصعيد النظري كل نفاد صبر القادة الصينيين وكل أوهامهم.

وبين أيلول وتشرين الثاني من عام ١٩٥٨ تم تنظيم ٢٧٠٠٠ كومونة شعبية تضم ١٢٠ مليون أسرة فلاحية. وأبرز سمة في التدابير التي أُتخِذَت لتغيير نمط حياة ٥٠٠ مليون فلاح في مدى أشهر قليلة هي جماعية وسائل الانتاج. وهذه الجماعية لم تكن تلبي حاجة موضوعية لانه لم يكن هناك وجود عمليا لادوات تقنية حديثة تفترض الانتاج الزراعي الكبير. بل العكس هو الصحيح. فعجز الدولة عن تقديم التوظيفات الضرورية لانشاء الصناعات دفع بها الى تشجيع الصناعات المحلية مثل ((الافران العالية الصغيرة)) التي اتضح فيما بعد ان انتاجها من الفولاذ والحديد الصلب غير قابل للاستعمال في معظم الحالات.

وقد أفضت التدابير التي أُتخِذَت في عام ١٩٥٨ والتي طبقت بسرعة وعلى نطاق واسع دونما اعتبار للامكانيات الموضوعية ، أفضت في مدى أشهر قلائل الى اختلال اقتصادي وسياسي أرغم اللجنة المركزية ، ابتداء من كانون الاول ١٩٥٨ ، على التقليل من حجم الاهداف التي كانت قد حددت بصورة غير واقعية وعلى محاربة الاوهام التي رافقت قرار انشاء الكومونات.

فقد كان ٥٠٠ مليون فلاح قد دعوا الى تغيير نمط حياتهم في مدى أسابيع قلائل من دون ان توضع تحت متناولهم وسائل تقنية جديدة. وكان ماو تسي تونغ قد انتقد منذ عام ١٩٥٥ أولئك الذين ارتأوا ان وجود الجرارات والوسائل التقنية الحديثة ضروري كيما يمكن لنظام التعاونيات الزراعية ان يتجاوب مع واقع موضوعي.

والباعث على الاستغراب في قرارات ١٩٥٨ الدور شبه المستقل المعزو الى العوامل الذاتية ، والايمان بالفعالية المباشرة للحوافز الاخلاقية بغض النظر عن الشروط العملية الاقتصادية او التقنية لتطبيق تلك القرارات. يقول مرسوم ٢٧ آب ١٩٥٨ (مرسوم تعميم تجربة الكومونات الشعبية) : ((يبدو ان تحقيق الشيوعية في

الصين لم يعد منظور بعيد جدا. ولسوف نعتمد على الكومونات الشعبية في محاولة شق طرق جديدة الى المجتمع الشيوعي)).

ومحور فكر ماو تسي تونغ هو ، هنا أيضا ، أولوية علاقات الانتاج على القوى المنتجة ، وأولوية الايديولوجيا على علاقات الانتاج ، أي عكس ارادي النزعة للموضوعة المركزية في الماركسية.

ولقد كانت النتيجة الرئيسية لقرارات آب ١٩٥٨ خلق أوهام متجاوزة الحد ولدت لدى الفلاحين الآمال في خلاص سريع نهائي. كما اقترنت هذه الآمال لدى القادة المحليين بعودة من اشتراكية ماركس العلمية الى الطوبائيات ما قبل الماركسية. أما الجماهير العريضة فقد غُرِسَت في أذهانها فكرة ان تحقيق الشيوعية ممكن عن طريق حرق المراحل ، وينضاف الى ذلك أمل ، غير متجرد من النزعة القومية ، في وصول الصين الى الشيوعية قبل سائر الشعوب ، وقبل الاتحاد السوفياتي بوجه خاص.

ولقد آمن الفلاح الصيني أخيرا بأنه ستتحقق ، مع الكومونات الشعبية ، أسطورة العصر الذهبي التي طالما داعبها آباؤه طوال ألفي سنة من الانتفاضات الفلاحية.

وهكذا أفضت ((القفزة الكبرى الى الامام)) عمليا الى عودة الى الشيوعية الطوباوية القديمة. بل ان الملاكات المحلية بلغت بها الحماسة مبلغا تخطت معه الاهداف المحددة ((من الاعلى)) ، وراحت تطبق الجماعية على جميع مظاهر الحياة ، بدءا من المطاعم المشتركة الى الغاء التعويض تبعا للعمل والغاء كل حافز مادي ، غير معتمدة الا على وجدان الشغيل الشيوعي الاخلاقي وحده. وكان الاعتقاد سائدا بأنه عن هذا الطريق وحده يمكن القضاء على كل أثر من العقلية الفردية القديمة وبناء روحية الانسان الشيوعي[1].

[1] - تبين للقيادة الماوية الصينية لاحقا خطأ هذا الطريق مما حدا بماو تسي تونغ إلا اسقاط مبدء ماركس القائل بأن الاشتراكية هي المرحلة الاولى للشيوعية ، حيث اعتبر ماو – بعد فشل تجربة الكومونات الشعبية – ان الاشتراكية ليست المرحلة الاولى للشيوعية بل مرحلة انتقالية بين الرأسمالية والشيوعية وبالتالي وجوب خضوعها لقوانين مزدوجة شيوعية-رأسمالية : أي وجوب استعمال الحوافز المادية جنبا الى جنب مع الحوافز المعنوية لحث العامل على زيادة ←

ومن الخطل الافتراض بأن كل شيء كان سلبيا في مثال هذا المشروع : فانشاء مزاود الاطفال ومغاسل الثياب الجماعية والاستشارات الطبية المجانية والمدارس يمثل تجديدا بالغ الأهمية ومساهمة في تحرير النساء من الكثير من العبوديات التقليدية ، بالاضافة الى الروح الجديدة التي أدخلها الى الارياف.

كما تم تحقيق تقدم محدد في علاقات الانتاج. يقول قرار اللجنة المركزية في ١٠ كانون الاول ١٩٥٨ : ((صحيح ان انشاء الكومونات الشعبية قد أضاف بعض عناصر ملكية الشعب قاطبة الى الاقتصاد الجماعي. وهذا لان الكومونات الشعبية الريفية والمنظمات القاعدية لسلطة الدولة قد دمجت معا ، ولان المصارف والمخازن وبعض المشاريع الاخرى التابعة لملكية الشعب قاطبة والموجودة من الاصل في الارياف قد وضعت تحت اشراف الكومونات ، ولان الكومونات ساهمت في انشاء بعض مشاريع البناء الصناعي التي تعود في طبيعتها الى ملكية الشعب قاطبة . . . ولكن وسائل الانتاج ومنتجات الكومونات الشعبية الريفية ما تزال الى الآن بوجه عام ملكية جماعية للكومونات وتختلف عن وسائل الانتاج ومنتجات مشاريع الدولة التابعة لملكية الشعب قاطبة . . . والقول بأن ملكية الكومونات الشعبية ، كما هي موجودة في الوقت الراهن في الريف ، هي من الآن ملكية للشعب قاطبة لن يكون قولا مطابقا للوضع الحقيقي)).

وعلى هذا ، واذا كان قد أمكن احراز بعض النتائج على مستوى علاقات الانتاج – وهي على كل الاحوال نتائج أدنى بكثير من الهدف المحدد : تحقيق ملكية من النمط الشيوعي في مدى زمني قصير – فان المحصلة العامة كانت اكثر سلبية على جميع المستويات الاخرى.

فتطور القوى المنتجة لم يتسارع ، أولا لان التوظيفات لم تكن مطابقة للاهداف المحددة ، وثانيا لان تلك اللامركزية الجذرية لم تُقِم وزنا لنوعية الملاكات التقنية

← الانتاج مع اعطاء الاولوية للحافز المعنوي. ويعتبر هذا المبدأ من اهم المبادىء الاساسية في النهج الماوي والذي يميز الماوية عن باقي مدارس الفكر الشيوعي. وللمزيد عن ذلك راجع مؤلف الرفيق كيم إيل سونغ "حول مسائل مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا". – ملاحظة الصوت الشيوعي.

الجديدة التي تحتاجها ، وأخيرا لان ملايين الفلاحين الذين انصرفوا الى بناء مشاريع صناعية محلية واهنة المردود قد انصرفوا عن الاشغال الزراعية. وقد لاحظ البيان المنشور بعد انتهاء أعمال اجتماع لجنة لوشان المركزية بين ٢ و ١٦ آب ١٩٥٩ ان التوقعات الاحصائية لم تكن مشتطة كل الاشتطاط فحسب ، بل ان ((توزيع اليد العاملة لجني محصول الخريف الوفير لم يكن توزيعا ملائما ، وان الحصاد والدراس والتخزين لم تتم بالصورة التي كان من المستحسن ان تتم بها)).

وبعد ثلاث سنوات ، في دورة اللجنة المركزية في أيلول ١٩٦٢ ، كشف النقاب عن عنصرين سالبين آخرين في تلك المحصلة : فقد أُطلقت حملة الكومونات من دون توقع صحيح للملاكات اللازمة ، الامر الذي أدى الى انخفاض الانتاج ، وكانت نتيجة ذلك ظهور أمارات الاستياء والتذمر والمعارضة في أوساط الجماهير : ((ان بعض فرق الانتاج وبعض المشاريع الصناعية والتجارية قد فوجئت اما بانخفاض انتاجها واما بسوء استقبال الجماهير لها)). وقد تحدث البلاغ في معرض اشارته بلا ريب الى المناضلين غير الموافقين على سياسة المغامرة هذه عن ((ظهور الايديولوجيا التحريفية داخل الحزب)).

ولم تكن الاوهام السياسية بأقل من الاوهام الاقتصادية ، ولم يكن هناك مناص بالتالي من العودة الى نظرة الى الامور اكثر واقعية : ان الكومونات لا يمكن ان تعني ((فناء الدولة في أجل قصير)). وكان غوان فينغ قد حذر من مثل هذا التعجل في مقال له نشر في ٢٧ آب ١٩٥٨ ، ((ان فناء دكتاتورية البروليتاريا لن يكون البتة نتيجة أمر صادر فجأة ذات صباح مشرق ، بل سيأتي نتيجة التلاشي التدريجي لوظيفتها. والحال أن وظيفة السلطة السياسية التي تمارسها الكومونة يمكن أن تتلاشى تدريجيا بعد انجاز مهامها التاريخية. ولكن حتى يمكن العمل على افنائها في المستقبل فلا مفر الآن من العمل على تدعيمها)). وهذا هو على وجه التحديد المنهج الجدلي وهذا ((الجدل الموضوعي)) ، كما سنرى عند كلامنا عن ((الثورة الثقافية))، قد عبر عن نفسه بقوة اكبر متناسبة مع قوة المقاومات والمعارضات التي أثارتها الأخطاء التي ارتكبت بنتيجة الشطط في النزعة الذاتية.

ونظرا الى انعدام النقد الذاتي والتقييم الصحيح للامكانات الموضوعية ، أدى التمسك بالخط الارادي النزعة الى تدعيم مطرد لدكتاتورية تُمارَس لا ضد الطبقات المستغِلة القديمة فحسب بل أيضا ضد جميع أولئك الذين انتقدوا طرائق الحزب في القيادة. وهكذا بدأت مطاردة ((الشياطين))، وأعيد تبني أسوأ أطروحات ستالين : الاطروحة القائلة بتفاقم التناقضات الطبقية طردا مع التقدم في بناء الاشتراكية. وكانت هذه الاطروحة قد أفضت ، في عهد ستالين ، الى قمع لا نهاية له ، والى تدمير متواصل لملاكات الحزب ، والى خرق دائم لمبادىء الديموقراطية في الحزب والدولة.

و ((القرار بصدد بعض المسائل المتعلقة بالكومونات الشعبية)) الذي اتخذته اللجنة المركزية في ١٠ كانون الاول ١٩٥٨ قد سجل بعض جوانب الفشل ، ولكنه لم يوجه نقدا جذريا الى المشروع الطامح الى تحقيق الشيوعية بدون قاعدتها المادية. وقد اقتصر التصحيح على ما يلي :

١ – ان تسمية ((الكومونات الشعبية)) ستظل سارية ، ولكن مضمونها سيتبدل. فالكومونات لن تعود اكثر من اجهزة للتنسيق الاقتصادي وقاعدة التنظيم الاداري المحلي.

٢ – ان البرنامج الذي كان يفترض أن تنفيذه سيتم في فترة وجيزة جدا سيُمدد زمنيا. واللازمة المركزية في قرارات كانون الأول ١٩٥٨ هي : العملية ستدوم طويلا! ((ان تحقيق تصنيع البلاد على نطاق واسع سيستغرق فترة طويلة . . والانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية صيرورة طويلة ومعقدة نسبيا . . . والانتقال من الملكية الجماعية الاشتراكية الى الملكية الجماعية للشعب قاطبة والانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية يتطلبان كلاهما مستوى محددا من تطور القوى المنتجة . . وما يزال علينا أن نقطع مسافة طويلة بما فيه الكفاية للوصول الى وفرة كبيرة في المنتجات . . . والى تخفيض كبير في ساعات العمل . . . وعلينا ألا نعلن بلا مسوغ أن الكومونات الشعبية الريفية ((ستحقق فورا ملكية الشعب قاطبة)) أو أنها ستدخل مباشرة في الشيوعية)).

٣ – ان الفشل العملي سيعوض عنه بانشاء أيديولوجيا تبرر نفاد الصبر والنزعة الارادية : أيديولوجيا ((الثورة الدائمة)). ومما له دلالته ههنا أن اطلاق شعار ((الثورة الدائمة)) معاصر بدقة لأول إقرار بفشل سياسة الكومونات الشعبية. ففي خاتمة قرار ١٠ كانون الاول ١٩٥٨ يظهر لاول مرة مفهوم ((الثورة الدائمة)) : ((اننا انصار النظرية الماركسية – اللينينية عن الثورة الدائمة. وتقديرنا أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد "سور كبير" بين الثورة الديموقراطية والثورة الاشتراكية ، ولا بين الاشتراكية والشيوعية)).

الثورة الدائمة

لقد ولدت نظرية ((الثورة الدائمة)) في الصين كمبرر نظري لتلك المحاولة الارادية النزعة في تسريع الانتقال الى الشيوعية. وقد كتب ستيوارت شرام بسداد رأي يقول : ((ابان الأشهر الأولى التالية لظهور مصطلح ((الثورة الدائمة)) بقي مضمون النظرية السياسي غائما بعض الشيء : فقد كان المقصود المضي الى الامام بسرعة اكبر ، ولكن كيفية ذلك كانت غير معروفة تماما))[1].

وقد حددت النظرية معالمها بانتهاجها أسلوبين اثنين :

١ – تعميم تصور ماركس وتطبيقه على أوضاع مغايرة تماما.

٢ – تعميم أطروحة ماركس تأويلا ارادي النزعة.

ان مفهوم ((الثورة الدائمة)) لدى ماركس يتيح لنا امكانية التمييز ، في الحركة الثورية في أواسط القرن التاسع عشر ، بين العناصر البورجوازية التي تريد ايقاف الثورة بمجرد ادراك الأهداف الخاصة بالطبقة البورجوازية ، وبين عناصر البروليتاريا ((الطبقة الثورية الوحيدة حتى النهاية)) التي لا تنوي التوقف في منتصف الطريق والتي تريد ان تحقق ، بتجاوزها المجتمع البورجوازي ، المجتمع الاشتراكي ثم المجتمع اللاطبقي. كتب ماركس في ((بيان المجلس المركزي لرابطة

---

[1] - ستيوارت شرام : ((الثورة الدائمة في الصين)) – ص ١٧.

الشيوعيين)) في آذار ١٨٥٠ : ((ان البورجوازيين الصغار الديموقراطيين الذين لا يريدون قلب المجتمع قاطبة لصالح البروليتاريين الثوريين ، يتطلعون الى تغيير الوضع الاجتماعي بصورة تجعل المجتمع القائم محتملا ومقبولا قدر الامكان . . . انهم يطالبون باقامة نظام المُلكية البورجوازية في كل مكان من الريف عن طريق الالغاء الكامل للنظام الاقطاعي . . . أما بالنسبة الى العمال فلا نقاش في أنهم سيبقون ، من بعد كما من قبل ، أجراء. والشيء الوحيد الذي يتمناه البورجوازيون الصغار الديموقراطيون للعمال هو أجر افضل وحياة مضمونة اكثر. . . ولكن هذه المطالب لا يمكن أن يكتفي بها حزب البروليتاريا . . . فالمسألة لا يمكن ان تكون في نظرنا مسألة تحويل للملكية الخاصة ، وانما هي مسألة إلغائها. وليست المسألة مسألة تمويه التناحرات بين الطبقات ، بل هي مسألة تشييد مجتمع جديد . . وفي حين يريد البورجوازيون الصغار الديموقراطيون انهاء الثورة باسرع ما يمكن . . . فان من مصلحتنا وواجبنا ان نجعل الثورة دائمة الى أن تطرد جميع الطبقات المالكة بهذا القدر او ذاك من الحكم . . .)).

وبهذا يكون ماركس ، على أساس من تحليل العلاقات الطبقية وأهداف كل طبقة ، قد رسم حدود آفاق البورجوازية الصغيرة ، ونوه بضرورة تجاوزها بالنسبة الى البروليتاريا حتى لا تحل سيطرة طبقية محل سيطرة طبقية اخرى وحتى يوضع حد نهائي لكل اضطهاد ولكل استغلال طبقي وحتى يقوم مجتمع بلا طبقات.

وقد طور لينين ، في شروط تاريخية جديدة ، المفهوم الماركسي عن ((الثورة الدائمة)) انطلاقا من تحليل موضوعي وعيني للعلاقات الطبقية وقد أغنى أطروحة ماركس بتمييزه تمييزا واضحا بين الطابع الطبقي لهذه المرحلة او تلك من مراحل الثورة ، وهو الطابع المتحدد بآفاق الثورة (الغاء الملكية الاقطاعية ، الذي هو هدف الثورة البورجوازية ، يمكن أن يُنجَز بقيادة البروليتاريا). ولقد كان لينين ، مثله مثل ماركس ، يرى ان دور البروليتاريا هو على وجه التحديد ان تحول دون تجمد الثورة عند تلك المرحلة : ((فور انجاز الثورة الديموقراطية سنشق طريقنا ، على قدر قوانا وقوى البروليتاريا الواعية والمنظمة ، الى الثورة الاشتراكية. اننا مع

الثورة الدائمة. ولن نتوقف في منتصف الطريق . . ومن دون أن نستسلم لروح المغامرة ، ومن دون أن نخون وعينا العلمي ، ومن دون أن نسعى وراء شعبية سهلة ، لن نقول ولا نستطيع أن نقول سوى شيء واحد : اننا سنساعد بكل قوانا الطبقة الفلاحية على انجاز الثورة الديموقراطية حتى يغدو من السهل علينا ، نحن حزب البروليتاريا ، أن ننتقل بأسرع ما في الامكان الى مهمة جديدة وأعلى : الى الثورة الاشتراكية)).

ان مفهوم ((الثورة الدائمة)) يستند ، لدى لينين كما لدى ماركس ، الى تحليل علمي للعلاقات الطبقية. وهو يعبر عن قانون تاريخي موضوعي : قانون تحول الثورة الديموقراطية الى ثورة اشتراكية. ومفهوم ((الثورة الدائمة)) يتيح للبروليتاريا أن تحدد لنفسها هدفا واضحا دقيقا في موقف تاريخي محدد : هدف تحقيق الثورة الديموقراطية البرجوازية قبل الانتقال الى المرحلة التالية ، مرحلة بناء الاشتراكية. كتب لينين يقول : ((لقد عرف البلاشفة كيف يميزون أدق التمييز بين الثورة البورجوازية والثورة الاشتراكية : فهم لم يفتحوا الباب للثورة الثانية الا بانجازهم الأولى الى غاية شوطها. وهذه هي السياسة الثورية الوحيدة ، السياسة الماركسية الوحيدة)).

ومع تروتسكي أخذ مفهوم ((الثورة الدائمة)) معنى جديدا ، مختلفا عن معنى ماركس ولينين. فمفهوم ((الثورة الدائمة)) لدى ماركس ولينين اساس التمييز بين شتى مراحل الثورة ، أما لدى تروتسكي فانه أساس فكرة امكانية حرق المراحل.

ففي الوقت الذي ينطلق فيه تروتسكي من أطروحة ماركس ولينين القائلة بان على البروليتاريا أن تبذل المساعدة أولا لانجاز الثورة الديموقراطية حتى لو كانت تتمتع في تلك المرحلة بالهيمنة، ينفصل عنهما ليضيف :

((ان على الطليعة الثورية أن تتغلغل عميقا ، من الايام الاولى لسيطرتها ، في الميادين المحظورة للمُلكية البورجوازية والاقطاعية على حد سواء. ولا مناص من أن تصطدم ، في هذه الشروط ، بمظاهرات عدائية من جانب الفئات البورجوازية التي تكون قد أيدتها في مستهل نضالها الثوري ، وكذلك من جانب الجماهير

الفلاحية التي تكون مؤازرتها قد دفعت بها الى السلطة. ان المصالح المتناقضة المسيطرة على وضع حكومة عمالية في بلد متأخر تتألف غالبية سكانه من الفلاحين، لا يمكن أن تجد لها حلا الا على الصعيد الاممي ، أي في حلبة الثورة البروليتارية العالمية))[1].

في هذا النص تبرز المركبات الاساسية الاربعة لتصور تروتسكي عن ((الثورة الدائمة)) :

١ – الريبة تجاه دور الفلاحين.

٢ – رفض التحالف مع أي فئة كانت من البورجوازية.

٣ – نفي امكانية الثورة في بلد واحد.

٤ – فكرة امكانية حرق المراحل.

ولقد قضى تروتسكي حياته يطور كلا من هذه الاطروحات الأربع.

١ – ان احدى النقاط الأساسية في مناظرته مع لينين هي تقييم دور الفلاحين في الحركة الثورية. فقد كتب يقول : ((لقد تناولت مناظرتي مع لينين امكانية استقلال الطبقة الفلاحية اثناء الثورة ، وبوجه خاص امكانية حزب فلاحي مستقل . . . وقد إتهَمتُ لينين بالمبالغة في الدور المستقل للطبقة الفلاحية. واتهمني لينين بدوره بالتهوين من أهمية الدور الثوري للطبقة الفلاحية)).

والخلاف مع لينين بصدد هذه النقطة عميق بالفعل. ففي الوقت الذي كان يؤكد فيه لينين على ضرورة توفير قيادة بروليتارية للحركة الفلاحية من دون أن ينفي امكانية قيام سوفييتات فلاحية في بلدان آسيا الزراعية ، بل من دون أن ينفي امكانية قيام حزب ذي بنية متناسية مع هذا التفوق الفلاحي العددي ، كان تروتسكي يرى أن الطبقة الفلاحية في أقطار كالصين ((أقل قدرة أيضا على لعب دور سياسي قيادي أو حتى مستقل منها في عصر الثورات البورجوازية القديمة)). وقد قال ايضا : ((ان الطبقة الفلاحية ستلعب في ثورات الشرق ايضا دورا حاسما. ولكن هذا الدور لن يكون ، هنا أيضا ، قياديا ولن تكون له من قيمة ذاتية)).

---

[1] - تروتسكي : ((نتائج وتوقعات)).

ولقد كان الخلاف بين لينين وتروتسكي بصدد هذه النقطة خلافا فعليا ، ولكنه لم يكن عميقا الى الدرجة التي زعمها ستالين في عام ١٩٢٤. ولقد أرجع لينين بنفسه المناظرة الى أبعادها الحقيقية في ((رده على سؤال أحد الفلاحين)) المنشور في ((البرافدا)) في ١٥ شباط ١٩١٩ ، ((أما بصدد الشائعات القائلة بأن لينين وتروتسكي غير متفاهمين وبأنهما على خلاف عميق بصدد الفلاح المتوسط . . فقد سبق للرفيق تروتسكي أن رد عليها . . . وقال ان الشائعات عن خلافات بينه وبيني لهي كذبة منكرة ومجانبة للصواب تماما . . وأنا بدوري أؤيد كل التأييد تصريح الرفيق تروتسكي))[1].

ولكن بالرغم من ذلك فقد كان رأي لينين ، وحتى ستالين ، في الامكانيات الثورية للطبقة الفلاحية ، اكثر ايجابية بكثير من رأي تروتسكي. وعلى هذا ، لو انتصر الاتجاه التروتسكي في سياسة الكومنترن تجاه الصين ، لوقعت أخطاء أفدح من تلك التي ارتكبها ستالين.

٢ – وكذلك الحال فيما يتعلق بالعلاقات مع البورجوازية الوطنية. فقد كان تروتسكي يعارض بقوة تصور ((كتلة الطبقات الأربع)) ، ولا يقبل بحال من الاحوال التحالف مع ((البرجوازية الوطنية)). وهذا هو بالفعل جوهر الانتقادات التي وجهها اليه لينين في عام ١٩٠٥ بصدد موضوع المشاركة في حكومة ثورية مؤقتة : ((ان البروليتاريا لا تشكل في الوقت الراهن سوى أقلية السكان الروس. وليس في مستطاعها ان تصبح اكثرية هائلة ، ساحقة ، الا باتحادها مع جمهرة أنصاف البروليتاريين وانصاف أرباب العمل . . . وهذا التركيب للقاعدة الاجتماعية للدكتاتورية الثورية الديموقراطية ، الممكنة والمرغوب فيها ، سيؤثر بلا ادنى ريب على تركيب الحكومة ، وسيجعل من المحتم دخول ممثلي الديموقراطية الثورية الاكثر تنافرا الى الحكومة بل حتى هيمنتهم عليها)). وبالمقابل رفض لينين توكيد تروتسكي وبارفوس القائل بأن هذه الحكومة ستكون اشتراكية – ديموقراطية بمجرد

---

[1] - لينين : ((المؤلفات الكاملة)) – الطبعة الفرنسية – المجلد ٣٦ ص ٥١٥. (هذا وقد حُذِفَ هذا النص من الطبعة الروسية الرابعة الصادرة في عهد ستالين).

مساهمة الاشتراكيين – الديموقراطيين فيها. اذ ينبغي أولا تحقيق مهام الثورة الديموقراطية البورجوازية. فالثورة ((لا بد أن توقظ على الحياة الفعالة والجهود البطولية والعمل الخلاق جماهير هائلة تنتشلها من قرارة جهلها ومن اضطهادها الذي لا حدود له ومن بلادتها التي لا تصدق ومن خمولها اليائس)).

ولكن هذه الجماهير ((لا يمكنها ان تصبح فورا اشتراكية – ديموقراطية ما لم تمر بسلسلة من الامتحانات الثورية ، لا بسبب جهلها فحسب (فالثورة ، لنكرر ذلك، تثقف الناس بسرعة أسطورية) ، بل أيضا لأن وضعها الاجتماعي ليس بروليتاريا ، ولأن المنطق الموضوعي للتطور التاريخي يفرض عليها في الوقت الراهن هدف ثورة ديموقراطية لا ثورة اشتراكية بأي صورة من الصور))[١].

٣ – ان تصور استحالة تحقيق الاشتراكية في بلد واحد ينبثق عن الأطروحتين السابقتين : فاذا كانت البروليتاريا لا تعدو أن تكون اكثر من أقلية في قطر من الاقطار واذا كانت الطبقة الفلاحية لا تشكل قوة ثورية لها قيمتها الذاتية الخاصة ، واذا كان التحالف غير ممكن مع أي فئة من فئات البورجوازية ، فان تضامن البروليتاريا الاممي هو وحده الذي يستطيع ان يجعل انتصار الطبقة العاملة في قطر محدد ودائما[٢].

٤ – وثمة نتيجة أخرى تنبثق عن التهوين من شأن دور الطبقة الفلاحية وعن نبذ الفكرة القائلة بأن البورجوازية الوطنية قادرة على أداء دور ثوري ، وتتمثل تلك النتيجة في الاطروحة القائلة بامكانية ((قفز المراحل)) وبالانتقال مباشرة ، على سبيل المثال ، الى الثورة الاشتراكية دونما تخلف عند الثورة الديموقراطية. يقول تروتسكي في ((الثورة الدائمة)) : ((انه لمن باطل الكلام القول باستحالة قفز المراحل. فالمسار الحي للأحداث التاريخية يقفز دوما فوق المراحل التي هي نتيجة تحليل نظري للتطور منظورا اليه في كليته)).

---

١ - لينين : ((الاشتراكية – الديموقراطية والحكومة الثورية)) – المؤلفات الكاملة – م ٨ – ص ٢٩١ – ٢٩٢.

٢ - تروتسكي : ((الثورة الدائمة)) – ص ٣٦ – ٣٧.

وبذلك يكون تصور الجدل قد تعرض الى تحريف عميق : فبدلا من أن تفهم الحركة التاريخية على انها تطور متناغم ومتوازن ، له أهدافه المتمايزة في كل مرحلة من المراحل ، تُفهَم على انها سلسلة من أحداث وتغيرات متعاقبة ، يعاد النظر فيها برمتها في كل لحظة من اللحظات ، ولا يقام اعتبار لأي ((وقفة)) لسبر مستوى وعي الجماهير والاهداف التي تستطيع أن تصبوا اليها وتدركها قبل ممارسة التجربة الثورية التي ستتيح لها أن تتصور هدفا أسمى. يقول تروتسكي في ((الثورة الدائمة)) أيضا : ((ان جميع العلاقات الاجتماعية تتحول في مجرى نضال داخلي متواصل. والمجتمع لا ينـي يبدل جلده باستمرار . . . وتتناوب انفجارات الحرب الاهلية والحروب الخارجية مع مراحل الاصلاح الموصوفة بأنها ((سلمية)). وتؤلف الانقلابات في الاقتصاد ، وفي التقنية ، وفي العلم ، وفي العادات والأعراف ، تركيبات وعلاقات متبادلة بالغة التعقيد يستحيل معها على المجتمع الوصول الى وضع متوازن. وفي هذا يتجلى الطابع الدائم للثورة الاشتراكية)).

ان هذه الرؤية لعالم متقلب ، دائم التحول والتبدل ، أقرب الى تصور هيراقليتس البدائي عن الصيرورة منه الى الجدل الذي أنشأه ووضع بنيانه هيغل وماركس.

ومن وجهة النظر هذه يبدو أن المنظرين الصينيين يسيرون في الاتجاه نفسه. واذا ما اخذنا بعين الاعتبار الدور العملي الذي تنسبه سياسة الحزب الشيوعي الصيني الى الجدل ، فاننا لن نفاجأ اذا ما علمنا أن بعض الفلاسفة ممن درسوا تصور مُختَلف المدارس التاوية[1] عن العالم ، شأن فينغ يو لان ، قد زعموا في نهاية المطاف أن لاو تسو كان ماديا جدليا. وعندما ندرس مشكلة التناقض لدى ماو تسي تونغ ، نستطيع بالفعل أن نتساءل ، على العكس ، عم اذا لم تكن مادية ماو تسي تونغ الجدلية أقرب الى فلسفة لاو تسو والتاوية منها الى فلسفة ماركس ولينين.

وبذلك نستطيع ان نحدد ونوضح العلاقات المعقدة القائمة بين تصور تروتسكي عن ((الثورة الدائمة)) وبين تصور المنظرين الصينيين.

---

[1] - التاوية : دين صيني شعبي مبني على تعاليم الفيلسوف لاوتسو في القرن السادس قبل الميلاد. ((المعرب))

ان القادة الصينيين لا يستطيعون بالطبع ان يقبلوا الاطروحة التروتسكية المبدئية القائلة باستحالة بناء الاشتراكية في قطر متأخر اقتصاديا ، لأن البروليتاريا تكون فيه ضعيفة للغاية ، ولأنه لا يمكن الاعتماد لا على الطبقة الفلاحية ولا على البورجوازية الوطنية وانما فقط على الثورات البروليتارية في البلدان الرأسمالية المتقدمة.

وبالفعل ، ان هذه الأطروحة تتناقض جذريا مع كل نظرية ماو تسي تونغ وممارسته. وهذا ما يفسر الحدة التي ينبذ بها المنظرون الصينيون تروتسكي.

((لقد سرق تروتسكي مصطلح الثورة الدائمة هذا ، ضاربا عرض الحائط بالحدود الفاصلة بين الثورة الديموقراطية والثورة الاشتراكية ونابذا النظرية الماركسية اللينينية عن المراحل في تطور الثورة. ففي عصر الثورة الديموقراطية في روسيا كانت نظرية تروتسكي عن ((الثورة الدائمة)) تعني القفز فوق الثورة الديموقراطية للشروع مباشرة بالثورة الاشتراكية . . وكان من الممكن أن تكون نتيجتها تحطيم التحالف بين العمال والفلاحين وتخريب الثورة الديموقراطية في روسيا في ذلك العهد. وفي عصر ثورة اكتوبر الاشتراكية كانت نظرية تروتسكي عن ((الثورة الدائمة)) تعني التوكيد بأنه لا بد من انتظار انتصار الثورة الاشتراكية البروليتارية في الاقطار الغربية كافة حتى تتاح للاشتراكية امكانية الانتصار في الاتحاد السوفياتي وحتى يصبح في المستطاع بناء الاشتراكية. ان هذه النظرية الباطلة منافية لنظرية لينين عن انتصار الاشتراكية وعن بنائها في قطر واحد. ولقد كان من الممكن ان تؤدي في الحقيقة الى ايقاف الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي والى تخريب البناء الاشتراكي. ان نظرية تروتسكي عن ((الثورة الدائمة)) رجعية من ألفها الى يائها ومتناقضة من حيث الجوهر مع النظرية الماركسية – اللينينية عن الثورة الدائمة))[١].

---

[١] - رو كيان : ((نظرية الثورة الدائمة ونظرية المراحل في تطور الثورة)) – ((صحيفة الشعب اليومية)) – ٢٧ حزيران ١٩٥٩.

ان النقد الصيني لنظرية تروتسكي عن الثورة الدائمة ينصب على عدد من النقاط التاريخية المحددة : فلقد أخطأ تروتسكي اذ جعل مصير الثورة المبدوءة في بلد متأخر اقتصاديا رهنا بمصير الثورة البروليتارية في البلدان المتقدمة ، وهذا لانه كان يسيء تقدير أهمية الدور الثوري للطبقة الفلاحية وللبورجوازية الوطنية. ولقد كان حرق المراحل في روسيا سيؤدي الى تحطيم تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين وسيورد ثورة اكتوبر موارد التهلكة.

ولكن اذا كان من التجني ارجاع التصور الصيني عن الثورة الدائمة الى تصور تروتسكي واعتباره نسخة طبق الاصل عنه ، فانه لمن المستحيل أيضا أن نغض الطرف نهائيا عما أخذته النظرية الصينية من تصورات تروتسكي.

ان القادة الصينيين الحاليين يتبنون بعض أطروحات تروتسكي الاساسية ولكن في سياق تاريخي مختلف : فهم لا يطبقون نظرية الثورة الدائمة على مرحلة الانتقال من الثورة الديموقراطية الى الاشتراكية ؛ ولكنهم يقولون بها بالنسبة الى الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية : ((ان أهم ما يميز فكر ماو تسي تونغ . . هو أنه عرف كيف يطبق النظرية الماركسية – اللينينية عن الثورة الدائمة تطبيقا مبدعا على شروط بناء الاشتراكية وعلى شروط الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية))[1].

والقادة الصينيون يتقدمون ، بالنسبة الى هذه المرحلة من التطور التاريخي ، تقيدا حرفيا بأطروحات تروتسكي.

وقبل كل شيء بامكانية ((القفز فوق المراحل)) : ينبغي ألا تُحرَق المراحل ، ولكن هل يعني هذا أنه يتوجب الامتناع عن الربط ربطا وثيقا بين كلتا المرحلتين ، وانزال المرحلة الاشتراكية منزلة المطلق؟ بديهي أن هذا غير ممكن))[2]. والواقع ان تجربة الكومونات الشعبية ، تدل على ان المراحل متداخلة يزحم بعضها بعضا.

---

[1] - مقال لوو يانغ في كانون الاول ١٩٥٨ – نقلا عن ستيوارت شرام : ((الثورة الدائمة في الصين)) – ص ٢٠.

[2] - المصدر نفسه – ص ٢٦.

وبعد ذلك ، بفكرة أنه لا وجود لوقفة في التطور : ((ما هي نظرية الثورة الدائمة؟ انها تعني ان ثورة يجب أن تعقب ثورة أخرى ، بلا توقف ولا انقطاع ، وأنه من الواجب انجاز الاستعدادات لثورة المرحلة التالية))[١].

وأن تكون ((الثورة الدائمة)) شعارا وعظيا رومانسيا ، هدفه الاثارة الدائمة للجماهير ، فهذا ما قد يحصل أن يقر به المنظرون الصينيون أحيانا : ((ان أمل الجماهير العريضة وتطلعها الى تغيير شروط حياتها لا حد لهما ولهذا فان ثورتنا لا تستطيع هي الاخرى ان تتوقف . . . ان فكرة الثورة الدائمة فكرة حافزة على الدوام لحماسة الملاكات والجماهير))[٢].

ان الطابع ((الأداتي)) لأيديولوجيا الثورة الدائمة واضح صريح ههنا. بيد ان ما لا يعدو ان يكون اكثر من وسيلة للتحريض يسعون الى توفير أساس موضوعي له ببنائهم تصورا عن العالم يبرره.

وهكذا تصبح أيديولوجيا الثورة الدائمة أيديولوجيا تبريرية لممارسة ((تنزل نفاد الصبر منزلة المبدأ)).

وبذلك تكون المادية الماركسية قد توارت وراء نزعة ارادية اخلاقية. ويكون الجدل الماركسي قد أُوِّلَ تأويلا نسبي النزعة ، وبالتالي سفسطيا.

المادية التاريخية
والمثالية السحرية

أين يمكن أن يكمن مصدر هذه النزعة الارادية الأخلاقية التي حلت في الصين المعاصرة محل بعض مباديء المادية الجدلية الأساسية؟

ان لمن مفارقات الأمور أن يكون الهدف الدائم للحزب الشيوعي الصيني استئصال شأفة مخلفات الصين القديمة التقليدية ، وأن تؤدي هذه الجهود في الوقت نفسه الى انبعاث الوراثة التاريخية.

١ - المصدر نفسه – ص ٣٧.
٢ - المصدر نفسه – ص ٥٧ – ٥٨.

ففي الصين التي يبلغ تعداد سكانها اليوم ٨٠٠ مليون نسمة ، والتي يمتد تاريخها على مدى ثلاثة آلاف عام قضتها في عزلة عن سائر العالم ، لا تعدو الماركسية ان تكون اكثر من طعم في شجرة التقاليد الكونفوشية الماردة.

ان التقاليد الموروثة عن التعاليم الكونفوشية ، في القرن السادس قبل الميلاد ، تتصف بصفتين اثنتين على الاقل تتيحان للمثقفين الذين ترعرعوا عليها الا يكونوا غرباء كل الغربة عن الماركسية :

١ – فبخلاف التقاليد المسيحية المتأثرة بالافلاطونية وذات النزعة الثنائية التي تفصل بين الأرض والسماء ، بين الانسان والله. وتدعو في غالب الاحيان الى الانصراف عن هذا العالم لبلوغ ((العالم الآخر)) ، عالم الله ، تضع الكونفوشية الانسان وأرض الانسان نصب عينيها : ((أنتم لا تعرفون كيف تخدمون البشر ، فلِمَ اهتمامكم بخدمة النفوس؟ أنتم لا تعرفون كيف تحيون، فلم تساؤلكم حول الموت؟)). ويضيف كونفوشيوس : ((ان الطريق ليس خارج الانسان. ومن يخلق طريقا خارج الانسان فلن يكون طريقه هو الطريق الصحيح. والانسان الصالح يكتفي بتغيير الانسان ، ولا يتعدى ذلك . .))[1].

٢ – بخلاف التقاليد المسيحية التي جعلت من التقوى الشخصية بديلا في غالب الأحيان عن ممارسة الانسان لمسؤولياته ومهامه الاجتماعية ، تشدد الكونفوشية اللهجة على ارتباطات الانسان والتزاماته الاجتماعية.

والنزعة الاخلاقية السياسية ، المميزة لأسلوب عمل القادة الصينيين ، هي ارث من الكونفوشية. يقول الدكتور نغوين سهاك فيين الذي عايش كلتا الثقافتين معايشة عميقة : ((ان الكونفوشية غالبا ما تمارس تأثيرها على الماركسية. وفي الارض الكونفوشية غالبا ما تنزع الاخلاقية الثورية الى الحلول محل مفهوم قانون التطور التاريخي))[2].

---

[1] - نقلا عن نغوين كاهك فيين : ((الكونفوشية والماركسية في فيتنام)) – مجلة ((الفكر)) – تشرين الاول ١٩٦٢ – ص ١٠.

[2] - المصدر نفسه – ص ٢٥.

وأن تدمج الماركسية بها كل ما هو ايجابي في تقاليد كل الشعب ، وأن تشدد اللهجة على اللحظة الذاتية في العمل ، وأن تكون استمرارا للاخلاقيات التي تولي أهمية كبيرة لتربية الانسان الشخصية ، فهذا ليس أمرا طبيعيا فحسب بل مرجوا أيضا.

بيد أن الصعوبة تبدأ عندما تنسب الأهمية ، كل الأهمية ، الى هذه المظاهر ، ولا يقام اعتبارا للتحليل الموضوعي ، العلمي ، للواقع الاجتماعي ، وعندما تؤدي تلك النزعة الأخلاقية الى ((نوع من مذهب ارادي يرى أن أي مهمة ممكنة بمجرد أن يصمم المناضلون على تنفيذها . . . والواقع ان الطابع العلمي هو ما يميز في خاتمة المطاف الماركسية عن الكونفوشية . . . في حين أن المستوى المتدني للقوى المنتجة والتأخر التقني يحملان النفوس على النظر الى التطور التاريخي من المنظور الأخلاقي وحده))[١].

وبالفعل ، ان القادة الصينيين ميالون على الدوام الى تشديد اللهجة على اللحظة الذاتية في العمل دونما اعتبار لاي عامل آخر ، بل على المظهر الأخلاقي لهذه الذاتية.

عندما يحدد ليو شاوشي في كتابه ((كيف تكون شيوعيا جيدا)) فضائل المناضل ، فانه يستشهد بكونفوشيوس الذي قال ان الحكمة ليست هبة من السماء بل هي نتيجة الدراسة والتجربة والجهد ، وبمانشيوس الذي افترض أن التنسك والزهد شرط ضروري لتربية الجسم والفكر والطبع ، وبتسينغ تسي ، تلميذ كونفوشيوس ، الذي يُقتَبَس عنه حكمته التي سارت على الألسن كالأمثال : ((انني أنكفىء على ذاتي ثلاث مرات في اليوم الواحد)) ، أو : على الانسان أن يربي نفسه ((كما يقص الجوهري ويبرد ، وينحت ويصقل)). واذا كان الحزب الشيوعي الصيني يحرص على تمثل تراث حكمة شعبه الغابرة ، فان عمله هذا لا ينسجم مع روح الماركسية فحسب ، بل يمثل أيضا قدوة جديرة بالاحتذاء ، ولا سيما عندما يضيف على لسان ليو شاوشي : ((بيد أن هناك العديد من تلك الطرائق والأشكال التي لا نستطيع الأخذ

---

[١] - المصدر السابق – ص ٢٥ – ٢٦.

بها لانها في غالبيتها مثالية ، شكلية ، مجردة ، ومنفصلة عن الممارسة الاجتماعية. ان أولئك المثقفين والمؤمنين يبالغون في دور المبادهة الذاتية . . ونحن لا نستطيع أن نربي أنفسنا بذلك الاسلوب. اننا ماديون وتربيتنا لا يمكن ان تنفصل عن الممارسة الاجتماعية . . أقول ان موقف الحزب الشيوعي الصيني مثال عظيم جدير بالاقتداء ، لان الاحزاب الماركسية الغربية اذا كانت قد نبذت منذ أمد طويل حتمية برنشتاين وكاوتسكي الميكانيكية ، واذا كانت قد تمثلت الدرس اللينيني عن أهمية ((اللحظة الذاتية)) في العمل السياسي[1] فانها لم تكرس لمشكلات الذاتية والشخص الانساني ودور الوعي الأبحاث الضرورية لعدم الاخلال بتوازن الماركسية وللامساك بالسلسلة من طرفيها ، وأساءت تقدير أهمية المجهود المبذول في سبيل التمثل النقدي للتراث المسيحي الغني بصدد مشكلات الحياة الداخلية ، والشخص الانساني.

ولكن مبالغة القادة الصينيين في تقدير أهمية تلك اللحظة الذاتية قد أفضت الى نزعة ارادية منقطعة الاتصال بالواقع الموضوعي ومديرة ظهرها للمادية وللتصور العلمي عن العالم.

ان ماو تسي تونغ ، الذي كتب في شبابه مقالة لها هذا العنوان الدال : ((قوة النفس)) ، كان على الدوام من أنصار تلك النزعة الارادية المتطرفة التي تعبر عن نفسها في التوكيد المزدوج القائل بأن من الممكن تحويل الطبيعة والبشر الى ما لا نهاية.

وماو تسي تونغ ليس بعيدا من وجهة النظر هذه عن نزعة رومانسية بروميثيوسية فيما يتعلق بامكانية تحويل الطبيعة والبشر. فقد كتب في ١٩٤٩ يقول : ((يكفي ان يكون هناك بشر حتى تصبح أي معجزة ممكنة. ويكفي أن يمسك هؤلاء الناس بمصائرهم بين ايديهم وأن يسيروا في طريق ماركسي – لينيني ، حتى لا تعود في العالم من صعوبة لا يستطيعون التغلب عليها)). وكتب في ١٩٥٠ : ((لقد

---

[1] - لينين : ((النقابات من جديد)) : ((ان السياسة لا بد ان تكون لها الاولوية على الاقتصاد. والتفكير بغير ذلك تناس لالف باء الماركسية)).

رأيت طاقة الجماهير الهائلة. ومن الممكن على هذا الأساس انجاز أي مهمة مهما تكن)).

وبديهي أن التلاميذ لا يجدون حرجا في المزايدة. وهكذا يكتب أحدهم :

((كلما زادت قدرة البشر على القيام بثورة واعية على صعيد علاقاتهم الاجتماعية الخاصة ، تعاظمت طاقتهم في مناضلة الطبيعة ، وامكن لهم أن يتحكموا بحرية ، كما لو بسحر ساحر ، بقوى الانتاج الكامنة التي يبرزونها الى الوجود ويضمنون لها التطور السريع)).

وهو يعرف هذا ((السحر . .)) بانه ((الذاتي الذي يخلق الموضوعي)) : ((ليس البشر عبيدا للواقع الموضوعي. ويكفي أن يكون وعي البشر منسجما مع القوانين الموضوعية لتطور الأشياء، حتى يأخذ نشاط الجماهير الشعبية الذاتي كامل مداه ، فيتغلب على الصعوبات كافة . . . وبهذا المعنى فان الذاتي يخلق الموضوعي))[١].

ومن السهولة بمكان ، على صعيد الممارسة ، ان يختفي شرط ((تلاؤم المعرفة مع القوانين الموضوعية)) ، وبذلك يتم بسرعة تخطي الحد الفاصل بين النزعة الانسانية النشيطة وبين ((النزعة الاشراقية الارادية)) (على حد تعبير السيدة كولوتي – بيشيل الموفق)[٢] والوهم المرافق لها بامكانية تغيير العالم بضربة عصا سحرية.

ومما له دلالته من وجهة النظر هذه ان يشتمل الكتاب المعروف باسم ((اكثر ثلاثة نصوص مقروءة)) لماو تسي تونغ ، وهو الكتاب الذي أصبح مع ((الكتاب الاحمر الصغير)) انجيل الملايين من الصينيين ، أقول : مما له دلالته ان يشتمل ذلك الكتاب على القصة التالية : لقد عزم يو كونغ ، كما تروي احدى الحكايات القديمة ، على هدم الجبلين الكبيرين اللذين كانا يسدان الطريق من بيته الى الجنوب. فأخذ جيرانه يسخرون منه. ولكن يو كونغ استمر ، دونما أي تردد، في الحفر بمعوَلِه يوما بعد يوم. فأثر ذلك في الآلهة التي بعثت الى الارض باثنين من مرسليها

---

١ - نقلا عن شرام (انظر البحث السابق)

٢ - انريكا كولوتي – بيشيل : ((الثورة اللامنقطعة)) – باريس ١٩٦٤ – ص ١٠٧.

حتى يرفعا الجبلين. وهذان الجبلان يرمزان ، في تأويل ماو تسي تونغ ، الى الاقطاعية والامبريالية. وقد كتبت ((صحيفة جيش التحرير)) في ٣ كانون الاول ١٩٦٦ بصدد هذا النص ذي الطابع السحري : ((ان تبديل تصورنا للعالم لمسألة جوهرية. وحتى نحسن دراسة فكر ماو تسي تونغ وتمثله ، فمن الواجب ان نبدأ ب ((اكثر ثلاثة نصوص مقروءة)) وبتبديل تصورنا للعالم. وبدون نقطة الانطلاق الصحيحة هذه . . . يستحيل ان نفهم ونتمثل فعلا النظرية والسياسة والمنهج التي صاغها الرئيس ماو)).

ان هذه المثالية السحرية لا تنطبق على ((الحرب ضد الطبيعة)) فحسب ، بل أيضا على تحويل البشر وتبديلهم. كتب ماو يقول : ((ان الشعب الصيني ، بملايينه الستمئة ، يتمتع بصفتين مرموقتين : فهو فقير وهو أبيض. وهذا في ظاهر الامر شيء سيء. ولكنه في حقيقة الامر شيء جيد. فمن هم فقراء يريدون تغيير الامور ، يريدون بذل الجهود ، يريدون الثورة. والصفحة البيضاء هي ما خلا من أي كتابة. فمن الممكن اذن ان نكتب عليها أجمل الكلمات واكثرها جدة ، وان نرسم عليها أجمل الصور واكثرها جدة)).

وانطلاقا من مُسَلمة غير مُسَلم بها ، مُسَلمة رفضها ماركس وكذبها تاريخ الحركة الثورية قاطبة ، تزعم ان البؤس هو عامل الثورة ، يشدد ماو اللهجة على لحظتين أساسيتين مما هو في نظره محرك التاريخ : حماسة الجماهير الثورية والامكانية اللامحدودة في تلقين هذه الجماهير أيديولوجيا تحولها تحويلا جذريا.

ان القوة الفائقة لهذه العوامل الانسانية لهي موضوعة مركزية في فكر ماو : ((ان القنبلة الذرية نمر من الورق . . . والشعب هو الذي يقرر مصير الحرب وليس هذا السلاح الجديد أو ذاك)).

وبنفس الروح أطلق فيما بعد شعار : ((ان تكون أحمر خير من ان تكون خبيرا))، وصيغ تصور ((الاولويات الاربع)) : ((أولوية الانسان على المادة ، والعمل السياسي على ما سواه من النشاطات ، والعمل الايديولوجي على العمل السياسي ، والافكار الحية على الافكار الكتبية في العمل الايديولوجي)).

وانما على أساس هذه المبادىء قامت ((الثورة الثقافية)).

مبدأ الثورة الثقافية

يبدأ البند الاول من ((قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بصدد الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى)) ، المتخذ في ٨ آب ١٩٦٦ ، على نحو التالي : ((ان الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى الجارية الان ثورة كبرى تمس من الانسان أعمق ما فيه . . . قال الرئيس ماو تسي تونغ : ((للاطاحة بنظام من الانظمة ، ينبغي بالضرورة وفي المقام الاول اعداد الرأي العام والعمل في المضمار الايديولوجي. وهذا مبدأ يسري على الطبقات الثورية كما يسري على الطبقات المناهضة للثورة . . . ان على البروليتاريا . . . ان تحدد السيماء الاخلاقية للمجتمع قاطبة بالفكر والثقافة والاعراف والتقاليد الجديدة المميزة للبروليتاريا)).

وينص البند ١٤ على ان ((الثورة الثقافية تهدف الى تثوير فكر الانسان)).

وقد لخصت ((صحيفة الشعب اليومية)) في ٢٦ أيلول ١٩٦٦ الاهداف المنشودة على النحو التالي : ((ان عملنا تحدده الآلاف من القواعد التي يمكن تلخيصها في التحليل الاخير بجملة واحدة : تحويل روح الانسان وتكنيس تأثيرات أيديولوجيا الطبقات المستغِلة المتسربة الى عقل الانسان ، بمساعدة فكر ماو تسي تونغ)).

وصحيح ان ماركس كان قد اكد ان الافكار تصبح قوة مادية عندما تتبناها الجماهير ، وصحيح انه أقر للبنى الفوقية باستقلال ذاتي نسبي عن القاعدة التي تولد هذه البنى على أساسها ، وصحيح ان لينين قد كافح دوما ((العفوية)) ونوه بأن الاشتراكية العلمية تولد ((خارج دائرة)) العلاقات بين العامل ورب العمل ، وعلى أساس تطوير كل الفكر العلمي السابق ، بيد ان هذا التحليل الصحيح لأهمية ((اللحظة الذاتية)) التي تميز مطلق التمييز المادية الماركسية ، الجدلية ، عن سائر الاشكال السابقة من المادية ، لا تترتب عليه البتة اساءة تقدير ارادية النزعة

للشروط الموضوعية ولا عزو دور مستقل كل الاستقلال وبالتالي مطلق الى اللحظة الذاتية.

والحال ان الثورة الثقافية لا تقول بأن الايديولوجيا هي المستوى الاستراتيجي الذي يتقرر فيه كل شيء فحسب ، بل تدعي أيضا انها تؤسس ايديولوجيا بروليتارية خالصة وانها تحدد من الآن سمات الانسان الشيوعي ، من دون ان تقيم اعتبارا دقيقا لمرحلة التطور التي بلغتها الصين فعلا ، أ سواء من حيث مستوى تطور القوى المنتجة ام علاقات الانتاج. ومن الصعوبة بمكان ان نتصور كيف يمكن لايديولوجيا بروليتارية خالصة ان تسود بلا منازع في قطر لا يؤلف فيه الفلاحون ٩٥% من السكان فحسب ، بل تفتقر فيه أيضا شروط العمل والحياة الى هيمنة التقنيات الصناعية. ان ((القرار)) بصدد الثورة الثقافية يتكلم عن ((اصلاح نظام التعليم والادب والفن وسائر فروع البنية الفوقية التي لا تتلاءم مع القاعدة الاقتصادية الاشتراكية)). وفي هذا تبجيل لفظي لمبادىء المادية الماركسية ، في حين ان التدابير المتخذة تشكل على العكس استباقا يفصل ((البنى الفوقية)) فصلا جذريا عن الحالة الفعلية للقاعدة الاقتصادية. ولينين ، الذي يُكثِر القادة الصينيون من ذكر اسمه ، لم يكف عن التحذير من أمثال هذه الاوهام : ((ان كل محاولة اليوم للتنبؤ عمليا بالنتيجة المستقبلة للشيوعية بعد ادراكها كامل تطورها . . أشبه ما تكون بمحاولة تعليم الرياضيات العليا لطفل في الرابعة من العمر))[١].

ومما يزيد في شكوكنا في صحة تقييمات القادة الصينيين للموقف الواقعي ان تحديدهم للتقدم الذي تم انجازه في ميدان تصفية مخلفات الماضي عُرضَة لتقلبات مقلقة. ففي المؤتمر الثامن المنعقد في أيار ١٩٥٨ قيل ان ((التناقض بين البروليتاريا والبورجوازية في الصين قد حُلَّ في جوهره)). وبعد ثمانية أعوام أشار شن يي الى وفرة من الناس ((يحيكون المؤامرات في الحزب والحكومة والجيش وفي جميع الاوساط الثقافية)) ، وجرى استنفار طاقات هائلة للتغلب على هذا التناقض الذي قيل في المؤتمر الثامن انه قد حل من حيث الاساس. فهل كان تقدير

---

[١] - لينين : ((مرض الشيوعية الطفولي)).

١٩٥٨ خاطئـا؟ أم ان الوضـع قـد تـدهور الـى درجـة ان الاعـداء يربـون اليـوم فـي مختلف أوساط الشعب الصيني؟

الحق أنه مهما يكن الوضع الـراهن لـذلك التنـاقض ، فـان الاسلوب المستخدم فـي حله يبدو غريبا من نوعه. فالمسألة ، علـى مـا يقـال لنـا ، مسألة صـراع طبقـي يشن على مستوى الايديولوجيا. ليكن الامر كذلك ، ولنعترف بأن مثل هذا المستوى بـالغ الاهمية. ولكن من يشن هذا الصراع؟ وضد من؟

لقد كـان الهدف عقد لـواء النصـر للـروح البروليتاريـة ، وكـان متوقفا بالتـالي ان تلعب الطبقـة العاملـة دورا هامـا. والحـال ان كـل شـيء يجـري كمـا لـو ان ((اللحظـة الذاتيـة)) قـد سـلخت عـن النضـال الطبقـي العمـالي ليتسـلم قيادتهـا طـلاب المـدارس والجامعات. فلقد أُكِلت اليهم ، هم ، مهمة تلقين الروح البروليتارية للعمال.

ان الانتماء الطبقي في نظر القادة الصينيين مسألة وعي : فالمرء ينتمـي الـى هذه الطبقـة او تلـك بعقليتـه ، والصـراع الطبقـي هـو الصـراع بـين مـن يفكـرون تفكيـرا صحيحا وبين من لا يفكرون تفكيرا صحيحا. اما ما المقصود بالتفكير الصحيح فهذا ما سنراه فيما بعد.

وعلى كل فان أول ما يلفت النظر في ((الثورة الثقافية)) ما تنطوي عليه من تملق محفوف بالمخاطر للشبيبة ، ولا سيما شبيبة المدارس. فالبند الثـاني مـن ((القـرار)) يكيل المديح للشبيبة الثورية ويقول : ((لقـد كـان اتجاههـا صـحيحا دومـا. وهـي تمثـل التيار الرئيسي في الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى)). ومعلوم ان الجيـل الحاضـر من الشباب لم يكن لـه من العمر اكثر من ثلاث سنوات يوم انتصرت الثورة الصينية في عام ١٩٤٩. فهو لم يُتَح له ان يعيش الصـراع الطبقـي فـي فتـرة مـا قبـل الثـورة ، ولا ان يمـارس تجربـة العمـل ومشكلات الطبقـة العاملـة. ومـع ذلـك فقد نُصِّب أمينـا على مستودع الوعي الطبقي والروح البروليتارية.

والروح التي تُخاطَب فيه هي روح التمرد وحدها. ((الثورة هي التمـرد. وجـوهر فكر ماو تسي تونـغ هو التمرد))[1]. وتقـول ((صـحيفة الشـعب اليوميـة)) فـي ٢٣ آب

---

[1] - ((انباء بكين)) – ١٢ كانون الاول ١٩٦٦.

١٩٦٦ : ((ان الماركسية تشتمل على ألف مبدأ تتلخص كلها في التحليل الاخير في عبارة واحدة : ان المرء على حق عندما يتمرد)).

ومن المفهوم في هذه الشروط ان تكون الحركة قد بدأت بمشكلات الثقافة قبل ان تمتد الى مجمل الحياة السياسية.

ويمكننا بالفعل ان نميز مرحلتين في تطور الثورة الثقافية :

١ – المرحلة الممتدة بين تشرين الثاني ١٩٦٥ وآب ١٩٦٦ ، وقد تركزت على مشكلات الثقافة وتناولت بالنقد المؤلفات والمجلات الادبية لتنتهي الى تطهير الجامعات والاجهزة الثقافية.

٢ – المرحلة التي تبدأ من آب ١٩٦٦ ، والتي تناولت فيها الحركة مجمل المشكلات الايديولوجية والاعراف والسياسة وانتهت الى تطهير الحزب.

الثورة الثقافية
ومشكلات الثقافة

((ما وني الرئيس ماو يذكرنا بأن البورجوازية التي تمت الاطاحة بها تسعى بكل الوسائل الى استخدام مواقعها الادبية والفنية بؤرة لافساد الجماهير ولتمهيد الطريق لعودة الرأسمالية))[1]. من هذه النقطة المحددة كان يجب ان تبدأ عملية التقويم. وقد تولت كيانغ تسن ، زوجة ماو تسي تونغ، استخلاص النتيجة العملية التالية : ((اذا كان الادب والفن القديمان غير متلائمين مع القاعدة الاقتصادية للاشتراكية ، فهل ينبغي ان نقوم بثورة أم لا؟)). وقد عددت كيانغ تسن المؤلفات والاعمال ((الفاسدة المنحطة التي تسمم الشعب وتحلله اخلاقيا)) ، فذكرت جنبا الى جنب : ((الروك اند رول والجاز والستريب تيز والانطباعية والرمزية والفن المجرد والوحشية والتحديثية الخ)) التي ينبغي ان يشن ضدها ((نضال طبقي حاد)).

[1] - ((انباء بكين)) – ١٢ كانون الاول ١٩٦٦.

وقد كُتِبَت مئات المقالات لانتقاد اوبرا كتبها في عام ١٩٦١ وو هان : ((إقالة هاي جوي)). وكانت جميع تلك المقالات تتصدرها عبارة لماو تسي تونغ : ((يجب ان نطرد الشياطين ذوي القرون والأبالسة الأشرار ، وأن نستأصل الأعشاب السامة)). وبذلك تكون سياسة مطاردة الأبالسة قد حلت محل سياسة ((دع مئة زهرة تتفتح)).

ان المأخذ الرئيسي على وو هان هوَ انه ((استخدام الماضي لينقد الحاضر)). فقد كان هاي جوي موظفا مثقفا أُقيل من منصبه لانه رفع عرائض انتقادية الى الامبراطور اعتبرها هذا الاخير مهينة بحق شخصه. وقد قيل ان تلك الاوبرا ترمز بصراحة الى بينغ تيه هواي الذي كان قد أُقيل من منصبه لانه رفع عرائض انتقادية الى الامبراطور اعتبرها هذا الاخير مهينة بحق شخصه. وقد قيل ان تلك الاوبرا ترمز بصراحة الى بينغ تيه هواي الذي كان قد أُقيل لانه عارض سياسة الكومونات الشعبية.

وقد لجأ الى مثل هذا الاسلوب أيضا تينغ توو في ((أسماء أمسيات يوشان)) و ((تاريخ قرية الثلاثة)) حيث انتقد سياسة ماو من خلال حكايات الماضي. ففي احدى القصص ينصح المثقف تشينغ هسينغ الامبراطور بقبول ((الاقتراحات الآتية من تحت)). وتندد قصة أخرى بالاوهام التي تقود المرء الى ((تحطيم رأسه على جدار الواقع فينتهي الى الهلاك)) وقد شعر أنصار ((القفزة الكبرى الى الامام)) بأنهم هم المقصودون. وبالفعل تشير احدى القصص الى ان عددا من رجال الدولة في العهود الغابرة ((اكتشفوا بعض القوانين الموضوعية التي تتحكم في زيادة قوة العمل وانقاصها)).

وقد أتُّهِمَ هذا الادب الذي ((يستخدم الماضي لنقد الحاضر)) ب ((التواطؤ مع الرجعيين في الداخل والخارج ، ومع التحريفيين الجدد ، وبالتهجم الخبيث على الخط العام للحزب في البناء الاشتراكي والقفزة الكبرى الى الامام والكومونات

الشعبية)) ، وكذلك بـ ((التتلمذ على مدرسة الاموات وبالترويج للافكار – الاقطاعية والبورجوازية))[1].

والواقع أننا اذا ما تجاوزنا فضح هذه المؤلفات ، لوجدنا ان مبدأ الادب النقدي بالذات هو الذي وُضِعَ موضِع اتهام.

ان الاساس الايديولوجي لهذا التصور عن الثقافة قد وضعه ماو تسي تونغ بنفسه في ((محاضراته عن مشكلات الادب والفن)) في يينان في أيار ١٩٤٢. وقد أشار ((قرار)) آب ١٩٦٦ الى انها الاساس في الثورة الثقافية.

لقد طور ماو تسي تونغ في تلك المحاضرات جميع موضوعات المفهوم النفعي عن الفن والادب ، ذلك المفهوم الذي اخذ يسود بعد سنوات قلائل من وفاة لينين ، والذي أرسى ، ابتداء من ستالين الى جدانوف ومن خروتشيف الى ايلتشيف ، أسس الاورثوذكسية الكاذبة التي ادعت انها هي الواقعية الاشتراكية. والموضوعة الاولى في ذلك المفهوم هي التصور النفعي الضيق عن الفن : ((ان مسألة معرفة من ذا الذي يجب على الادب والفن ان يخدماه هي مسألة أساسية ، مسألة مبدئية))[2].

والحال ان خدمة الشعب ، في هذا التصور ، تعني تصوير الواقع بصورة مثالية فيما يتعلق بأمور الشعب وتسويد صفحة أعدائه : ((ان مهمة الكتّاب والفنانين الثوريين فضح جرائم أعدائنا وأكاذيبهم ، وبيان حتمية هزيمتهم . . . أما فيما يتعلق بالجماهير الشعبية فالمطلوب ، بكل بداهة ، الاشادة بعملها وكفاحها))[3].

ويستشهد ماو تسي تونغ ، ضد أولئك الذين ((ينشرون التشاؤم والقرف من الوجود)) ، بالمثال السوفياتي في ذلك العصر وبالبطل الايجابي : ((ان ادب الاتحاد السوفياتي ، في مرحلة بناء الاشتراكية ، مكرس في جوهره لوصف النور)). والشعار هو ((الاشادة بالمعالم المضيئة للبروليتاريا)) وفضح ((الجوانب المظلمة من البورجوازية)).

---

[1] - ((الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى في الصين)) – بكين ١٩٦٦ – ص ٤٧.

[2] - ماو تسي تونغ : ((حول مشكلات الادب والفن)).

[3] - المصدر نفسه.

وتنزل الثورة الثقافية هذه ((الرومانسية الثورية)) منزلة القانون عندما تصدر اوامرها بـ ((ابداع صور بطولية للعمال والفلاحين والجنود. ان علينا ان نبدع نماذج لا ان تتوقف عند شخصيات وأحداث واقعية. لنستمع الى الرئيس ماو : ان الحياة ، عندما تعكس في الاعمال الادبية والفنية ، يمكن ويجب ان تكون أروع واكثف واكثر تركيزا ونمطية ، واقرب الى المثل الاعلى ، وبالتالي ذات طابع اكثر شمولية من الواقع اليومي))[1].

والمظهر الثاني لهذا التصور اعتبار الاعمال الضرورية للعمال والفلاحين هي فقط تلك التي في متناولهم و ((التي يسهل عليهم تمثلها)). يقول ماو تسي تونغ : ان المهمة الاساسية هي ابداع تكون في متناول الناس على نطاق واسع)). وهذا المطلب مشروع تماما فيما يتعلق بالدعاية والتحريض ، ولكنه معيار غريب فيما يتعلق بالاعمال الفنية بالنسبة الى الماركسيين الذين علمهم لينين ، بعد ماركس ، وجوب الحذر من العفوية. ولا ريب في ان من المفيد مساعدة الرسامين على النظر الى العالم بعيون العمال ، ولكن هذه فقط نصف الحقيقة ، ومن الخطأ التوقف عندها، لان ما نطمح اليه الاشتراكية ، على صعيد الثقافة ، هو أيضا ، وبوجه خاص ، مساعدة العمال على النظر الى العالم بعيون الرسامين.

والمسافة الفاصلة بين هذا الموقف وبين اخطاء ((الثقافة البروليتارية الخالصة)) خطوة واحدة ليس إلا. ولقد خطتها ((الثورة الثقافية)) بسرعة.

فلقد طرحت أولا فكرة أدب وفن من ابداع العمال والفلاحين والجنود ، تماما كما تصور بعضهم ، في احدى مراحل الحركة العاملة في أوربا ، ان بذرة أدب المستقبل تتمثل في كتابات المراسلين العماليين للصحافة الشيوعية : ((ان العمال والفلاحين والجنود يكتبون الان عددا كبيرا من المقالات الفلسفية الجيدة التي تعطي فكر ماو تسي تونغ تعبيرا مستمدا من الممارسة. وهم ينتجون أيضا أعمالا أدبية وفنية ممتازة تتغنى بالانتصار الكبير لثورتنا الاشتراكية)). وكذلك : ((ان العمل

[1] - ((الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى)) – ص ١٠.

الادبي او الفني لقواتنا المسلحة يساهم كبير المساهمة في اعطاء الاولوية للسياسية وفي تسريع تثوير الشعب))[1].

ولقد قال الكاتب كيو موجو ، رئيس أكاديمية العلوم ، في ((نقده الذاتي)) في ١٤ نيسان ١٩٦٦: ((ان كتاباتي السابقة ليس لها من قيمة بموجب المعايير الراهنة ، ومن الواجب حرقها . . . ان كتابات العمال والفلاحين والجنود ، بفضل دراسة أعمال الرئيس ماو ، خير من كتاباتنا)).

ان الديماغوجية ((العمالية)) في هذا الميدان وتملق الشعب وعفويته (كالديماغوجية ازاء الشبيبة وتملقها) يؤديان في الواقع الى ازدراء الشعب والى اعتباره عاجزا عن الارتفاع الى ما فوق أدب وفن دعائيين ، بدلا من مساعدته على اكتساب وتمثل ارفع ثقافات الماضي وعلى تفهم اجرأ محاولات المبدعين في عصرنا.

ان هذا التصور عن الثقافة الموزونة بالمعيار الطبقي وحده يؤدي الى اساءة تقدير بالغة الخطورة ، ان لم نقل الى نفي ، لقيمة ثقافة الماضي التي أبدعتها طبقات أخرى غير البروليتاريا ولقيمة الثقافة الراهنة للبورجوازية ، المعدودة جملة وتفصيلا ثقافة ((منحطة)).

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان للطبقة العاملة بوجه عام ، وللثوريين الصينيين بوجه خاص ، أسبابا مشروعة لانتقاد تراثهم الثقافي. وهذه الاسباب طبقية وقومية في آن واحد. كتب ماو تسي تونغ يقول : ((ان الثقافة في الصين هي منذ قرون وقرون وقف على الملاّك العقاريين)). وبالفعل ، ان الثقافة التقليدية كانت مكرسة للحفاظ على القيم الطبقية التي تبرر استغلال الشعب واضطهاده. أما الثقافة غير التقليدية فكانت ثقافة المضطهدين الاوربيين للصين ، وكان الشعب يقاطعها عفويا.

انها اذن لمشكلة واقعية يطرحها وجود مثقفين متشبعين بثقافة تقليدية تؤيد في وعي البشر مخلفات عهد الاقطاع ، ومثقفين بترتهم عن جذورهم القومية وأبعدتهم عن الجماهير نزعة غربية سطحية أورثتهم اياها الاستعمار القديم.

---

[1] - ((الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى في الصين)) – ص ٨ و ٢.

بيد ان من مفارقات الامور ان توكل الى الشباب ، الذي تربى على ايدي أولئك المعلمين ، مهمة تلقين العمال الروح البروليتارية الاصلية.

وليس مما يساعدهم في مهمتهم هذه ان توقَف دروسهم وان يرسَلوا الى الريف للتتلمذ على ((مدرسة الفلاحين)) وان يجري تلقينهم روح الازدراء العدمي لثقافة الماضي.

وماو تسي تونغ هو الذي قدم الاساس الايديولوجي لهذا الازدراء للثقافة الماضية. فقد كتب في عام ١٩٤٠ يقول : ((ان الثوريين الصينيين يناضلون ضد السياسة القديمة وضد الاقتصاد القديم وضد الثقافة القديمة ، المؤلفة من جزئين : السياسة والاقتصاد والثقافة نصف الاقطاعية ، والصينية الخالصة ، من جهة اولى ، والسياسة والاقتصاد والثقافة الامبريالية من الجهة الثانية. . . وكل هذه الفوضى المتراكمة ضارة ، ومن الواجب ازالتها تماما)).

ونقطة انطلاق هذا التصور نظرية ميكانيكية النزعة عن ((الانعكاس)) مطبقة على الثقافة : ((ان كل ثقافة هي انعكاس ، في الايديولوجيا ، للممارسة والاقتصاد في مجتمع من المجتمعات. ففي الصين توجد ثقافة أمبريالية تعكس هيمنة او شبه هيمنة الامبريالية في الصين سياسيا واقتصاديا . . . كما توجد في الصين ثقافة نصف اقطاعية تعكس السياسة والاقتصاد الاقطاعيين . . . والثقافة الامبريالية والثقافة نصف الاقطاعية تؤلفان كتلة واحدة رجعية في خدمة الامبرياليين وطبقة الاقطاعيين. ومن الواجب تحطيمها . . . اما الثقافة الجديدة فانها انعكاس ، في الايديولوجيا ، للسياسة الجديدة والاقتصاد الجديد ، وهي في خدمتهما))[1].

وهنا بالتحديد يكمن الاساس الايديولوجي للثورة الثقافية. فلو اخذ المرء على هذا النحو بالمادية الميكانيكية ، ولم يقم اعتبارا لذلك ((الاستقلال النسبي للبنى الفوقية)) الذي طالما ألح عليه ماركس بوصفه ماديا جدليا ، لما عادت الثقافة غير محض انعكاس ، ونكون قد عدنا ، على صعيد الفلسفة ، الى نظرية للمعرفة قريبة من نظرية التجريبية او من نظرية دولباخ وهلفيتيوس ، وعلى صعيد علم الجمال الى

[1] - ماو تسي تونغ : ((الديموقراطية الجديدة)).

تصور منحط وتقريظي للواقعية ، وعلى صعيد الثقافة الى موقف سلبي جذري تجاه الماضي : فانعكاس الانظمة الاجتماعية السابقة هو كهذه الانظمة نفسها بال وضار.

ولقد كان لينين قد شن نضالا متصلا ضد هذا التصور. ويكفي ان نذكر انه هو القائل : ((ان الشيوعية هي محصلة مجمل المعارف التي راكمتها الانسانية . . . ويجب ان تكون الثقافة البروليتارية التطور المنطقي وخلاصة المعارف التي انشأتها الانسانية تحت نير المجتمع الرأسمالي ومجتمع الملاك العقاريين والمجتمع البيروقراطي . . . وحتى يصبح المرء شيوعيا فلا بد ان يكون قد أغنى ذاكرته بمعرفة جميع الثروات التي أنشأتها الانسانية))[1].

ان هذا التصور الماركسي الاصيل عن الثقافة بعيد كل البعد في روحه عن تعليمات الثورة الثقافية : ((علينا ان نستأصل بحزم الايديولوجيا القديمة ، والثقافة القديمة ، والاعراف القديمة. والعادات القديمة لجميع الطبقات المستغِلة. علينا ان نصلح جميع أجزاء البنية الفوقية التي لا تنسجم مع القاعدة الاقتصادية للاشتراكية. علينا ان نطهر الارض من الحشرات كافة وان نكنس العقبات جميعا))[2]

ومن حسن الحظ ان العلماء قد ظلوا في منجى من الثورة الثقافية. فقد صدرت الاوامر بتركهم يعملون في أمان ، حتى لو لم تكن آراؤهم الفلسفية اورثوذكسية بما فيه الكفاية. والبند ١٢ من ((القرار)) بصدد الثورة الثقافية يقول بكل حكمة : ((اما عن تصورهم للعالم وأسلوبهم في العمل، فاننا نستطيع ان نساعدهم على تقويم أنفسهم تدريجيا)). وليس المطلوب تثويرهم ثقافيا ، وانما تقويتهم تدريجيا. وهذا الحق في الحصانة الايديولوجية كان قد منح أيضا في الاتحاد السوفياتي لعلماء الذرة ضد لغط وضجيج الفلاسفة. وفي الصين أيضا كانت النتائج ايجابية : ففي عام ١٩٦٦ وحده أجريت ثلاث تجارب ذرية ناجحة ، بالاضافة الى اكتشافات هامة اخرى كتركيب الانسولين المتبلور والبنزين الصناعي.

---

[1] - لينين : ((مهام اتحاد الشبيبة الشيوعية)).

[2] - لين بياو : خطاب في ١٨ آب ١٩٦٦.

الثورة الثقافية

ومشكلات الثورة

ان الثورة الثقافية ابتداء من آب ١٩٦٦ ما عادت تتوجه الى المثقفين وحدهم ، وانما الى الجماهير ، وصار هدفها ، بعد التطهير الجامعات والمدارس وعالم الثقافة، تطهير الحزب.

ويشير البند الخامس من قرار ٨ آب ١٩٦٦ حول الثورة الثقافية الى ان احد الاهداف هو تطهير الحزب : ((ان الحركة القائمة تستهدف بصورة رئيسية أولئك الذين يتسنمون في الحزب مناصب قيادية ويسيرون في طريق الرأسمالية)).

والواقع ان المقصود اولا تحطيم المعارضة التي واجهت المبادرات المتصفة بطابع المغامرة من أجل اختصار الطريق الى الشيوعية بواسطة ((القفزة الكبرى الى الامام)) و ((الكومونات الشعبية)). ففي نهاية عام ١٩٦٦ أُعتُقِلَ مدير معهد الاقتصاد التابع لاكاديمية العلوم ، سوين بيه فانغ ، الذي اتهمته ((العلم الاحمر)) في تشرين الثاني ١٩٦٦ بأنه ((اقترح برنامجا اقتصاديا تحريفيا برمته بأمل اعادة توطيد الرأسمالية في الصين . . فقد صرح بمجون ان وجهات نظره متفقة مع وجهات نظر الاقتصادي التحريفي السوفياتي ليبرمان)). وفي كانون الاول ١٩٦٦ أتخِذَ قرار بحل الهيئة الاتحادية للنقابات العمالية في الصين ، وفي الثالث من كانون الثاني جرى اعتقال بو أي بو ، مدير خطة الدولة ، بتهمة ((النزعة الاقتصادية)) الموجهة ضد اولئك الذين دعوا الى استخدام الحوافز المادية و ((ارادوا زيادة الاجور والاستهلاك))[1].

---

[1] - من الملائم هنا – والواجب – ان نعترف بأن ماو تسي تونغ ورفاقه الماويون في الحزب الشيوعي الصيني قد ارتكبوا بعض اخطاء "الانحراف اليساري" في الاقتصاد خلال مرحلة الثورة الثقافية البروليتارية العظمى : فعلى سبيل المثال ثم الغاء القطاع المختلط ومحاولة التقليل من الدور الذي تعلبه الحوافز المادية واعطاء الحوافز المعنوية اولوية ودور لا يتفقان مع مستوى وعي الجماهير ضمن المرحلة التاريخية التي يحياها المجتمع الصيني من تطور ، وبعبارة اخرى : تم رفع مستوى العلاقات الاشتراكية للانتاج الى ما هو اعلى من المستوى المتدني للقوى المنتجة ، وهو نفس الخطأ الذي كان السبب في حصول التشوهات الخطيرة ←

وفي ٥ تشرين الثاني ١٩٦٦ أشارت ((صحيفة الحرس الاحمر)) الى وجود ((خطين متصارعين داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني وفي الحزب بأسره)). وكان الماريشال لين بياو قد أطلق ، في ١٥ أيلول ، شعار قمع المعارضة

→ في التجارب الاشتراكية الاخرى ولا سيما التجربة الروسية خلال عهد ستالين. ***نعم يمكن للاشتراكية ان تقوم على ارض يسودها – بفعل تدني مستوى قوى الانتاج فيها – نظام ما قبل رأسمالي كالنظام الاقطاعي او شبه الاقطاعي ولكن المسألة في هذه الحالة ليست الاشتراكية بحد ذاتها بل نمط هذه الاشتراكية***. فنمط النظام الاشتراكي الواجب اقامته في حقبة تاريخية معينة – من حيث شكل علاقات الملكية – يجب ان يلائم مستوى تطور القوى المنتجة في تلك الحقبة وان لا يتقدم عليه بل يتناغم معه ، حيث يجب رفع مستوى القوى المنتجة وتنميتها اولا قبل التقدم نحو مزيد من الغاء الملكية الخاصة واستبدالها بملكية الشعب كله. ولكن علينا ان نستدرك ونؤكد الى ان ما وقع في الصين من "اخطاء يسارية" اقل واهون بكثير مما وقع في الاتحاد السوفياتي حيث لم يؤدي الى حصول عمليات ابادة وقتل جماعي غير مبرر للابرياء كما وقع في عهد ستالين. لكن من جهة اخرى لا يجوز التهوين من حجم "الاخطاء اليسارية" الصينية في الاقتصاد خلال مرحلة الثورة الثقافية ، فقد ادت الى انعزال اليسار عن المجتمع الصيني وساهمت في اعادة ترسيخ نفوذ اليمينيين وسهلت صعودهم اللاحق بع وفاة ماو تسي تونغ. ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد هو ان ماو نفسه عمل خلال فترة السبعينات على تصحيح هذه الاخطاء حيث اعيد فتح المجال للمبادرة الخاصة والحوافز المادية – ويعتبر هذا التصحيح من اعمدة النهج الماوي التي تميزه عن باقي مدارس الفكر الشيوعي – ولكن بعد فوات الاوان حيث سيطر اليمينيون بنتيجة من اخطاء اليسار وبسبب من انحراف ماو نفسه نحو اليمين في ما يتعلق بالتصالح مع الامبريالية الاميركية والتحالف معها ضد "الخطر السوفياتي"!!، حيث قام ماو بتصفية رفيقه في السلاح الشهيد لين بياو بسبب معارضة الاخير لسياسة ماو تسي تونغ الرامية الى التصالح مع الامبريالية الاميركية والتحالف معها ضد الاتحاد السوفياتي. فقد كان الرفيق لين بياو – وهو اشد قادة الحزب الشيوعي الصيني صلابة واعلاهم ثورية – يرى ان جميع الامم الاشتراكية يجب ان تتحد ضد الخطر الاعظم على الانسانية المتمثل بالامبريالية الاميركية. وقد اثبت التاريخ والاحداث التي وقعت بعد وفاة ماو تسي تونغ وانهيار الاتحاد السوفياتي صحة افكار الشهيد لين بياو وخطأ تفكير ماو في ما يتعلق بالتصالح مع الامبريالية الغربية. ومن الملائم ان نذكر هنا ان قيام ماو بتصفة لين بياو وتشن بوتا قد تلاه مباشرة زيارة الرئيس الاميركي نكسون وقد ترافق ذلك بعفو ماو عن الخائن دنغ زياو بينغ واعادته الى مناصبه الى سبق ان اطيح به منها خلال الثورة الثقافية. ان على الشيوعيين الثوريين ان يتذكروا من هذا الدرس التاريخي الذي طالما اظهرته التجارب الاشتراكية السابقة : الانحراف اليساري يسبق الانحراف اليميني ويمهد له وكلما كان الانحراف اليساري اشد كان الانحراف اليميني الذي يتبعه اقوى واكثر شمولية. ومما يدمي القلب ان عصابة دنغ زياو بينغ التي استولت على الحاكم في الصين بعد وفاة ماو ، قد وصفت مرحلة الثورة الثقافية كلها بانها "انحراف يساري" مستغلة بعض اخطاء اليسار الثوري الصيني خلال هذه الفترة. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

داخل الحزب : ((ان الهدف الرئيسي للحركة الراهنة الوصول الى أولئك الذين يتسنمون السلطة ، من بين أعضاء الحزب ويسيرون في الطريق الرأسمالي. فلنقصف بمدافعنا هيئات الاركان)).

والاسلوب المستخدم في ادراك هذا الهدف هو تجريد الحزب من احدى مهامه الاساسية : النضال الايديولوجي ، وذلك عن طريق ((أشكال تنظيمية جديدة)) تتمثل في أجهزة سلطة الثورة الثقافية البروليتارية وفي الحرس الاحمر.

والنموذج الذي وقع عليه الاختيار لتنظيم الحرس الاحمر ليس الحزب وانما الجيش. ففي تصريح لشو ان لاي في ٣١ آب ١٩٦٦ جاء قوله : ((ان حرسنا الاحمر منظم على طريقة الجيش. والشعار النضالي للحرس الاحمر هو التتلمذ على مدرسة جيش التحرير)).

وبديهي ان لهذا الجيش اصولا ماجدة : فقد كان في الماضي جيش المسيرة الطويلة والانصار ، والجيش الذي انجز مهام كبرى بالتعاون الوثيق مع الفلاحين في المناطق المحررة. ولقد قال ماو تسي تونغ في امر له في ٨ شباط ١٩٤٩ : ((ان الجيش ليس قوة قتالية فحسب ، بل هو في المقام الاول قوة عمل. ان على جميع ملاكات الجيش ان تتعلم كيف تستولي على المدن وتديرها . . . فالجيش مدرسة. وجيوشنا الريفية المؤلفة من مليونين من الرجال تعادل بضعة آلاف من الجامعات والمدارس الثانوية. اننا نعتمد على الجيش ليقدم لنا ملاكاتنا)).

لقد كان من المشروع ، بل من الضروري ان يلعب جيش التحرير ، في مرحلة التحرير ، مثل ذلك الدور. ولقد كان سلاحه الرئيسي الاصلاح الزراعي والادارة النزيهة وتثقيف السكان المحررين من المحتل الاجنبي ومن عملائه الاقطاعيين او الرأسماليين. ولكن ذلك حدث قبل سبعة عشر عاما ، في جو الثورة اللاهب. اما العسكريون الحاليون فانهم لم يمروا بمدرسة حرب الانصار والاصلاح الزراعي. ففي الثكنات اليوم جيل آخر ، واتخاذه قدوة لتنظيم الجماهير لا يمكن ان يعني سوى شيء واحد : احلال قيم الانضباط العسكري المتسلسل هرميا محل روح التفكير الشخصي والمنافسة الحرة على جميع المستويات.

ولكن ما الهدف من وراء هذه التعبئة ذات النمط العسكري؟

انها موجهة اساسا ضد المعارضة في الحزب. فكل من يبدي تحفظا تجاه الاساليب المستخدمة في ((القفزة الكبرى)) او ((الكومونات الشعبية)) او ((الثورة الثقافية)) يتهم بأنه يسير في الطريق الرأسمالية ويُعامَل معاملة العدو الطبقي. فالجماهير مدعوة الى ((كشف جميع الارواح الشريرة)) والى ((تصفية جميع الارواح الشريرة)) حسب تعبير لين بياو.

والاساس الايديولوجي ل ((مطاردة الشياطين)) هذه هو ((قانون)) ستالين المزعوم القائل بأن الصراع الطبقي يحتد بعد الاستيلاء على السلطة وقيام الاشتراكية ، بالتناسب طردا مع النجاحات المسجلة[١]. فقد كان ستالين يقول : ((ان القوة المتعاظمة للدولة السوفياتية تزيد من مقاومة آخر بقايا الطبقات المحتضرة)). وهذا المبدأ الكاذب الذي ألحقَ افدح الاذى بالحزب وبالدولة في الاتحاد السوفياتي ، والذي كلف العديد من الشيوعيين والمواطنين حياتهم وحريتهم ، والذي احسن المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي فضحه بوصفه تبريرا ايديولوجيا لكل اشكال اغتصاب الديموقراطية في الحزب والدولة. يتبناه اليوم من جديد القادة الصينيون ويطبقه الحرس الاحمر والجيش تحت ستار الثورة الثقافية والنضال ضد التحريفية داخل البلاد وخارجها.

---

[١] - كلام فارغ وافتراء على الماوية. لقد اسقط ماو نظرية ستالين هذه واستعاض عنها بنظرية مناقضة مفادها ان التناقضات التناحرية والصراع الطبقي يقلان بعد الاستيلاء على السلطة واقامة الاشتراكية ، حيث يتناسب عكسا مع النجاحات المسجلة ويميل لصالح الاشتراكية. ومن الملائم ان نوضح ان نظرية ستالين خاطئة في ما يتعلق بمرحلة بناء الاشتراكية إلا انها صحيحة تماما خلال فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، في حين ان ماو تسي تونغ قد اسقط حتى هذا الجزء الصحيح من نظرية ستالين ، فهو يرى ان التناقضات التناحرية والصراع الطبقي يقلان خلال فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية – وليس خلال مرحلة بناء الاشتراكية فحسب – بصورة عكسية مع النجاحات المحققة خلال هذه الفترة. وقد وقف الرفيق كيم إيل سونغ موقفا علميا موضوعيا من هذه المسألة حيث اعترف بصحة "قانون" ستالين خلال مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية" مع عدم انطباقه على فترتي بناء الاشتراكية والانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية حيث تصح خلال هاتين المرحلتين نظرية ماو تسي تونغ. وللمزيد حول هذا الموضوع راجع مقال "الفرق بين افكار ماو تسي تونغ كيم إيل سونغ حول التناقضات والصراع الطبقي". – ملاحظة الصوت الشيوعي.

ان هذا الجدل للتناقضات المعاودة ابدا لظهورها والمتولدة دوما من جديد ليس الا لحظة خاصة من ((الثورة الدائمة)) ، وهو لا يجد تبريره الايديولوجي الا في تشويه جذري للجدل الماركسي.

ماو تسي تونغ والجدل

ان نقطة الانطلاق لاعادة النظر الجذرية هذه في التصور الماركسي عن الجدل يجب ان نبحث عنها لا في الاختيارات التعسفية لهذا القائد ولهذا المُنَظِّر او ذاك ، وانما قبل كل شيء في شروط بناء الاشتراكية في الصين.

ان احد المآخذ الرئيسية التي يوجهها المنظرون الصينيون بصدد هذه المشكلة الى ماركسيي الاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية الاوروبية هو تمسكهم بتصور ((هيغلي)) عن التناقض بحكم ((نزعتهم الاقتصادية)). فهم اذ ينسبون الى الشيوعيين السوفياتيين والفرنسيين والايطاليين، وبصورة عامة الى جميع الشيوعيين غير الصينيين ، اطروحات برنشتاين وكاوتسكي التي لا تنتظر الثورة الا كنتيجة لحركة التناقضات الداخلية للرأسمالية ، يتهمونهم بيسر وسهولة بأنهم انتهازيون يسلسون قيادهم باستسلام وسلبية الى الحتمية الاقتصادية والى التطور العفوي للتناقض الهيغلي الجميل.

ان القادة الصينيين اذ ينسبون الى التحريفية الاقتصادية النزعة كل توكيد على ضرورة اخذ الشروط الموضوعية بعين الاعتبار ، لا يجدون حرجا في فصل الروح الثورية العلمية ، وفي الاشادة الأحادية الجانب بفضائل العامل الذاتي في العمل والنضال من اجل تحويل الطبيعة والمجتمع والانسان نفسه.

فانطلاقا من الفكرة المشروعة القائلة بامكانية الانتقال ، في شروط العالم الراهنة، من مجتمع ما قبل رأسمالي الى الاشتراكية ، دونما انتظار لتطور التناقضات الملازمة للرأسمالية كما حللها ماركس في ((الرأسمال)) ، ينتهي القادة الصينيون

الى تصور ارادي النزعة يفصل المشاريع الذاتية عن الشروط الموضوعية لامكانية تحقيقها.

والأسس النظرية لنزعة المغامرة هذه مستمدة من التصور الماوي عن الجدل والتناقض ، وهو التصور الذي يهدف اساسا الى اعتبار الجدل تبريرا للمذهب الارادي.

يعيد ماو تسي تونغ الى الاذهان ، في مقالته ((بصدد التناقض)) ، المبدأ الهيغلي القائل بأن ((الصلة الاساسية لتطور الاشياء لا تكمن خارج الاشياء وانما على العكس في داخلها ، تكمن في الطبيعة المتناقضة ، الملازمة داخليا للاشياء نفسها)). ثم يطبق على الفور هذا المبدأ على الثورة الصينية منوها من جهة اولى بوجود تأثير متبادل لا ريب فيه ، وبأن الشروط الخارجية تلعب بالتأكيد دورا ، وبأن ثورة اوكتوبر قد ادخلت تعديلا على العالم قاطبة ، ومؤكدا من جهة ثانية ان جدل التناقضات الداخلية في الصين هو الذي ولد قبل أي عامل آخر الحركة الثورية.

ان هذه التناقضات ، في مثال الصين النوعي ، ليست في جوهرها التناقضات الداخلية للرأسمال والعمل ، كما حللها ماركس بدءا من المجتمع الانكليزي. فالتناقضات الاساسية في الصين هي التناقضات بين الفلاح الصيني وبين الاقطاعية، وكذلك بين الشعب الصيني في مجمله تقريبا وبين الامبريالية ونظام التبعية نصف الكولونيالية الملازم لها.

واذ يضع ماو تسي تونغ نصب عينيه هذا ((الطابع النوعي للتناقض)) فانه يركز جهده لا على انشاء نظرية للاستثنائية الصينية ، بل على العكس ، على ربط الخاص بالعام من خلال الافتراض بأن نوعية التناقضات الخاصة بالصين هي حالة خاصة من تصور عام للجدل.

وللوصول الى ذلك يطور أطروحة ((انتقال التناقض)) القائلة بأن التناقض الرئيسي (التناقض الذي درسه ماركس على سبيل المثال في ((الرأسمال)) انطلاقا من تجربة البلدان الرأسمالية المتقدمة) يمكن ان يصبح تناقضا ثانويا ، والعكس بالعكس. يقول ماو : ((في البلدان نصف المستعمَرة ، شأن الصين على سبيل

المثـال، تشـكل العلاقـات بـين التنـاقض الرئيسـي وبـين التناقضـات الثانويـة لوحـة معقـدة... فالتنـاقض بـين الامبرياليـة وبـين البلـد المعنـي يصـبح التنـاقض الرئيسـي وتتراجع مؤقتـا جميـع التناقضـات بـين مختلـف الطبقـات داخـل البلـد (بمـا فـي ذلـك التناقض الرئيسي بين النظام الاقطاعي والجماهير الشعبية) الـى المرتبـة الثانيـة ولا تعود تشغل غير مركز تابع)).

ولا يسع احد ان يماري في ان المشكلة القومية قد تتقدم ، في شروط محددة ، على المشكلات الطبقية ، ولكن هذا بشرط عدم اساءة تقدير واقع ان تلك المشكلة القومية نفسها تكتسب دلالة خاصة لا تبعا للعلاقات الطبقيـة القائمـة داخـل تلك الامـة الخاصـة فـي مرحلـة محـددة مـن التـاريخ فحسـب ، بـل ايضـا تبعـا للعلاقـات الطبقيـة ولميزان قواها على صعيد العالم بأسره في القرن العشرين ، وعلى وجه التحديد منذ ظهـور الـدول الاشـتراكية. وتناسـي الصـلة بـين هـاتين المشـكلتين، او حتـى اسـاءة تقـديرها ، يعنـي الانتقـال مـن التقيـيم الصـحيح لأهميـة النضـال القـومي فـي النضـال الطبقي الى احلال مبدأ النزعة القومية محل الصراع الطبقي. وهذا معنـاه ، بصـورة أعم ، الخلط بين مـا يـأتي فـي المرتبـة الاولـى فـي مرحلـة محـددة او فـي قطـر محـدد وبين ما هو حاسم الأهمية في التحليل الاخير ، أي الخلط بين العرضي والجوهري، بين الظاهرة والماهية.

ويقيم مـاو تسـي تونـغ تمييـزا ثانيـا : بعـد تمييـز التنـاقض الرئيسـي مـن التنـاقض الثـانوي التمييـز بـين المظهـر الرئيسـي والمظهـر الثـانوي فـي كـل تنـاقض : ((ان الرئيسي هو ما يلعب الدور الحاسم في التناقض)). ولكنه يقرن هذا التمييز بتطبيق جديـد لنظريـة ((الانتقـال)) ، وهـذه المـرة علـى مسـتوى مظـاهر التنـاقض : ((ان المظهر الرئيسي والمظهر الثانوي للتناقض يحل كل منهما محل الاخر)). والامثلـة التـي يضـربها للتـدليل علـى هذه الأطروحـة لهـا دلالتهـا : ((يـرى بعضـهم ان هنـاك تناقضات لا تنطبق عليهـا هذه الأطروحـة. فـاذا كـان المظهر الرئيسـي فـي التنـاقض بين القوى وعلاقـات الانتـاج علـى سـبيل المثـال يتمثـل فـي القوى المنتجـة . . . واذا كان المظهر الرئيسي في التناقض بين القاعدة الاقتصـادية والبنيـة الفوقيـة يتمثـل فـي

القاعدة الاقتصادية ، فان موقع كل مظهر من هذه المظاهر لا يتبدل البتة حسب زعم ذلك البعض. والحال ان هذا تصور خاص بالمادية الميكانيكية وليس بالمادية الجدلية)).

وهذه التوكيدات تتجاوز من بعيد الاعتراف بالاستقلال النسبي للبنى الفوقية وبالدور الرفيع ل ((اللحظة الذاتية)) في العمل ، لتنتهي الى استبدال مبادىء المادية التاريخية بتصور ذاتي وارادي النزعة عن العمل التاريخي.

وما يلفت النظر في الطريقة التي يتصدى بها ماو تسي تونغ لهذه المشكلات هو الطابع الذرائعي لكل خطوة من خطوات انشاء مفهوم من المفاهيم النظرية. فسواء أكان المقصود تبرير اتجاه قومي ام اتجاه ارادي النزعة ، تُكتشف اطروحة نظرية تلبي هذه الحاجة. وهكذا يصبح الجدل ايديولوجيا تبريرية للسياسة. ويتحول الجدل الى سفسطة.

ومثل هذا النهج يفسح المجال واسعا لتحويل الجدل الى ايديولوجيا تبريرية ل ((الثورة الدائمة)).

وقد توصل القادة والمنظرون الصينيون الى ذلك مرحلة مرحلة وبالتدريج.

ومما له دلالته من وجهة النظر هذه مواقفهم من تقرير خروتشيف امام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ومن احداث بولونيا والمجر.

فقد نشر المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني في ((صحيفة الشعب اليومية)) في ٥ نيسان ١٩٥٧ دراسة استخلص فيها النتائج الاولى للحقائق التي كُشِف عنها النقاب للمرة الاولى فيما يتعلق بشروط بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي في عهد ستالين ، وبالموضوع الذي نجم عن ذلك في سائر البلدان الاشتراكية. وقد جاء في هذه الدراسة : ((من السذاجة الاعتقاد بأنه ما عاد ممكنا ان توجد تناقضات يعني انكار الجدل . . . فتطور المجتمعات يستمر دوما وسط تناقضات متواصلة. والمجتمع الاشتراكي ايضا يتطور عبر التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . . . وكل شيء سيُتابع تطوره على هذا النحو : ابدا في

ذهاب من تناقض الى تناقض. وعندما يتم حل التناقضات القديمة تظهر تناقضات جديدة))[1].

ان ما من احد يستطيع ان ينكر ، بدون دوغمائية لا تؤيدها أي تجربة تاريخية ، وجود تناقضات داخل المجتمع الاشتراكي. كما لا يستطيع ان ينكر ان هذه التناقضات ليست ارثا من الماضي وإن المجتمع الاشتراكي يولد تناقضاته الخاصة.

وقد لاحظ ماو تسي تونغ ، في خطابه في ٢٧ شباط ١٩٥٧ المعروف باسم ((حول الحل الصحيح للتناقضات داخل الشعب)) : ((ان حكومتنا الشعبية حكومة تمثل فعلا مصالح الشعب وتخدم الشعب ، ولكن هناك ايضا بعض التناقضات بينها وبين الجماهير الشعبية. وهذه التناقضات تشمل : التناقضات بين مصالح الدولة والمصالح الجماعية من الجهة الاولى وبين المصالح الشخصية من الجهة الثانية ، والتناقضات بين النزعة الديموقراطية وبين النزعة المركزية ، والتناقضات بين القادة والمقودين ، والتناقضات بين الاسلوب البيروقراطي لبعض شغيلة ادارة الدولة وبين الجماهير)).

وبديهي ان ماو تسي تونغ يميز بين التناقضات التناحرية والتناقضات غير التناحرية ، ولكنه يضيف ايضا بأنه من الممكن ان يحدث ((انتقال)) : ((ان التناقضات التي تظهر في صفوف الشعب ليست تناحرية في الشروط العادية. بيد انه اذا لم تتم تسويتها بصورة صحيحة . . . فان التناحر قابل لان يظهر)). ويضرب على ذلك مثالا الوضع الذي نشأ في المجر والذي اتاح الفرصة للثورة المضادة الداخلية والخارجية.

وقد قدمت التجربة التاريخية اللاحقة للصين نفسها أمثلة اخرى عن ذلك ((الانتقال)) : فهذا التناقض غير التناحري او ذاك (نقاش وتعارض في وجهات النظر داخل الحزب) اصبح تناحريا (وجرت تسويته بقوة القمع).

---

[1] - ((حول التجربة التاريخية لدكتاتورية البروليتاريا)). والنص الكامل لهذه الوثيقة منشور في كتابنا المترجم : ((في التنظيم الثوري)) – دار الطليعة – بيروت ١٩٦٩.

اذن فانطلاقا من معطيات واقعية يلجأ المنظرون الصينيون الى تعميم لا متناه. وآنذاك تصبح نظرية التناقضات الجدلية اساس ((الثورة الدائمة)). ففي معرض شرح خطاب ((حول الحل الصحيح للتناقضات داخل الشعب)) الذي شدد فيه ماو تسي تونغ اللهجة على تناقضات المجتمع الاشتراكي ، يعمم صن دينغ غوا الاطروحة على هذا النحو : ((قفزة الى الامام بعد الاخرى ، وثورة بعد الاخرى ، وقفزة متواصلة الى الامام ، وثورة متواصلة : هنا بالتحديد يكمن مظهر هام من التطبيق المنطقي والمعمق للمنهج الجدلي)).

وهذا التعميم وهذا التأويل اللذان يفضيان الى انزال التناقض منزلة المطلق بحيث يقوم على اساسه مفهوم ((الثورة الدائمة)) ، ذائعان ودارجان لدى المنظرين الصينيين. كتب وو يانغ يقول : ((ان نظرية الثورة الدائمة بأوسع معاني الكلمة هي تصور البروليتاريا للعالم ، وهي في الوقت نفسه منهج. فالاقرار بأن مجتمعنا ، وكذلك العالم في مجمله ، هو عالم مادي دائم التبدل ، يمثل تصورا للعالم. واستخدام وجهة النظر هذه لمواجهة مشكلة من المشكلات وحلها يمثل منهجا)).

ان هذا التأويل ل ((الثورة الدائمة)) يتجاوز من بعيد تصور تروتسكي نفسه الذي ما كان يرى ان الانقلابات الثورية تمتد فيما وراء تحقيق الاشتراكية. اما التعميم الصيني فانه يمد الى ما لا نهاية مفعول القانون. فقد استنكر لو تينغ يي ، عضو المكتب السياسي ، في معرض نقده المواقف السوفياتية ، الرأي القائل بأنه ((يكفي تدعيم النظام الاشتراكي ، وبأنه حتى اذا كانت هناك حاجة الى تطويره ، وحتى اذا كان من الواجب التقدم نحو الشيوعية ، فليس من الضروري المرور بصراع او بقفزة نوعية. وهذا معناه ان صيرورة الثورة الدائمة للمجتمع البشري ستستمر الى حد معين ثم تتوقف. وهذا معناه على صعيد الفلسفة تبني وجهة نظر ميتافيزيقية لا وجهة نظر المادية الجدلية)).

وهكذا يميل المنظرون الصينيون الى تحبيذ الفكرة القائلة بأن من يرفض تصوراتهم عن ((الثورة الدائمة)) وتأويلهم للجدل الذي يؤسسونها عليه يجد نفسه

منقادا بالحتم والضرورة الى تبني الاطروحة الميتافيزيقية القائلة بأن الشيوعية ستكون نهاية التاريخ والحد النهائي والثابت للتاريخ الانساني.

ان هذا التوكيد يقوم على مُسلمتَين : اولا المسلمة التي تطلق اسم ((الثورة)) على أي تغير نوعي مهما يكن. والحال انه من المفضل الحفاظ على تعريف ماركس العلمي للثورة بدلا من تضخيمها لفظيا : فالثورة ليست هي أي تغير نوعي مهما يكن، وانما هي ذلك التغير النوعي الذي يتمثل في الانتقال من نمط محدد لعلاقات الانتاج الى نمط آخر ، وعلى سبيل المثال تصفية علاقات الانتاج الاقطاعية واقامة علاقات انتاج رأسمالية في اعقاب الثورة الفرنسية الاولى ، او تصفية علاقات الانتاج الرأسمالية واقامة علاقات انتاج اشتراكية في اعقاب ثورة اوكتوبر ، او الغاء العلاقات الاقطاعية وبناء مجتمع اشتراكي على نحو ما فعلت الثورة الصينية.

اما المسلمة الثانية فهي تلك التي تؤكد ، بعد اطلاق اسم ((ثورة)) على كل تغير نوعي ، ان هذه ((الثورات)) ستستمر الى ما لا نهاية. وهذا تعميم متعسف لاننا لا نملك أي عنصر من عناصر التنبؤ العلمي يبيح لنا ان نحدد سلفا ، انطلاقا من تجربتنا الواقعية عن المجتمعات الطبقية ، ما يمكن ان تكونه قوانين تطور مجتمع بلا طبقات.

ان هذا الاستعمال التصوفي لكلمة الثورة يقوم على فعل ايمان : الافتراض او التسليم بأنه لن يوجد ابدا نمط للتناقض مختلف عن التناقضات التي نعرفها في الوقت الراهن. وعلى اساس قانون الايمان هذا تحتدم المساجلة في سياق الثورة الثقافية حول ((الواحد ينقسم الى اثنين)).

ان الأطروحة التي تقول ان ((الواحد ينقسم الى اثنين)) وان كل حل لتناقض من التناقضات يولد على الفور وبالضرورة تناقضا آخر ، قاضية بالتالي على المجتمع بتقلب ابدي ، لا تبدو انها مستوحاة من جدل هيغل وماركس الرفيع في تنظيم بناه وصياغة مفاهيمه ، وانما من أشكال الجدل البدائية ومن الحدوس الاسطورية والغنائية للجدليين الصينيين الاوائل.

كتب عالم الاستشراق الصيني ل. فاندرميش يقول : ((ان الفكر الصيني لم يضع قط أي حد للولادة المتجددة ابدا لتعارض المتناقضات))[1]. والاكثر من ذلك انه في حين ان المخطط الاساسي لنظرية التناقضات في الغرب يقوم على الأطروحة ونقيضها وتلاشيها في التركيب ، يضع التراث الصيني نصب عينيه لا تناقضات منطقية ، وانما تناقضات اونطولوجية لا حل لتناحرها. ولقد سبق لماو تسي تونغ في عرضه في عام ١٩٣٧ للمذهب اللينيني عن التناقض ان اشار في اكثر من موضع الى النظرية الصينية. وفي عام ١٩٥٧ ، غداة أحداث بولونيا والمجر ، وبعد مفاجآت حملة ((المئة زهرة)) ، لم يجد صعوبة في توسيع فكرة ديمومة التناقضات واستمرارها حتى بعد توطد الاشتراكية. وهذا ما قاده ، في معرض استشهاده بلاو تسو ، الى تبني النظرية الجدلية التاوية القديمة عن المتناقضات التي ينقلب كل منها الى عكسه . . . وهكذا تمت في عام ١٩٦٤ ادانة يانغ فو تشن الذي كان يؤيد مبدأ توحد كل ثنائية في وحدة ، بدلا من مبدأ تناحر كل ثنائية في الوحدة.

ان مصادر تصور ماو تسي تونغ عن الجدل تبدو مقتبسة اذن عن رواد الجدل في الفكر الصيني اكثر منها عن هيغل وماركس. ويشير غرانيه الى ان الفضل الكبير للفكر الصيني هو انه ((لم يفصل قط الانساني عن الطبيعي وأنه تصور الانساني دوما من خلال التفكير بما هو اجتماعي))[2]. والحال ان عالم الانسان الاصغر وعالم الكون الاكبر ينظمهما في التقاليد الصينية التاو ، أي قانون التنسيق الايقاعي للعالم وللفكر ، للمنطق وللواقع ، قانون الوحدة غير القابلة للانفصام بين مبدئين متناحرين : اليين واليانغ. وهذا الزوج من الحدود المتعارضة تعارض النور والظلام ، وبصورة أعم ، تعارض الايجابي والسلبي ، هو الذي يتحكم في نظام العالم وحركته في آن واحد. وفي هذه الرؤيا الصوفية للعالم ينقسم الواحد الى اثنين على جميع مستويات الاشياء. وبالتالي تصبح الحركة كل شيء ، والعالم دائم التحول ازلا وأبدا.

---

[1] - ل. فاندرميش : ((الشرق الاحمر)) – مجلة ((اسبري)) – آذار ١٩٦٧ – ص ٤٢٧.
[2] - غرانيه : ((الفكر الصيني)) – ص ٣٣٨.

وبديهي ان المفكرين الصينيين القدامى قد سجلوا سبقا عبقريا في موضوع الجدل من خلال ذلك الحضور الكوني للمبدئين المتناحرين (الواحد ينقسم الى اثنين) اللذين ينظمان حركة العالم ، ومن خلال اسطورة التحولات التي لا نهاية لها وما يترتب عليها من منطق سفسطائي ومن نزعة ذاتية. بيد ان انبعاث تلك المرحلة الاسطورية من الجدل في جسم الماركسية بالذات لا يمكن ان يؤدي الا الى احلال رؤيا رومانسية للصيرورة اللامتناهية وتصور مثالي سحري للتمرد محل البحث العلمي في قوانين التطور الاجتماعي والسياسة القائمة على دراسة الشروط الموضوعية.

من كتاب

((المشكلة الصينية))

١٩٦٧

بيرند أولغارت :
دفاع عن الماوية

بعد نصف قرن من لينين شرع ماو تسي تونغ – بوسائل مختلفة – بما كان الاول قد عقد النية عليه في اواخر حياته : اعادة تنظيم الجهاز البيروقراطي للحزب الشيوعي واقصاء العناصر اليمينية من قيادة الحزب واعادة تثقيف العناصر غير المتكيفة مع الواقع الاجتماعي. والاخطار التي كان يمثلها ستالين وأورجو نيكيدزه في نظر لينين ، كان بينغ شن (عمدة بيكين) وتشو يانغ (المسؤول عن الثقافة) يمثلانها بالنسبة الى الزعيم الصيني. ولكن مظاهر التشابه تقف عند هذه الحدود ، اذ ليس هناك من اساس مشترك بين شكل ((المؤامرة)) حسب تعبير لينين ومعناها بين شكل ثورة ماو الثقافية ومعناها ، هذا اذا غضضنا الطرف عن تلك الواقعة الاساسية المتمثلة في بناء مجتمع اشتراكي وفي النضال داخل هذا المجتمع ضد العناصر التي قد تكون مرشحة لاعادة توطيد سلطة البورجوازية الرأسمالية.

ولكن ستالين ، الرجل الذي كان لينين يريد بأي ثمن اقصاءه عن منصبه بعد قضية جيورجيا ، يمثل اهمية اخرى بالنسبة الينا ، لاننا نصادف اسمه في كل لحظة في كتابات الماوية. فما التأثير المادي والايديولوجي الذي امكن له ان يمارسه على الثورة الصينية وعلى فكر ماو تسي تونغ؟ هذا احد الاسئلة التي سنحاول الاجابة عليها في هذه الدراسة ، لانه قد جرت العادة على اضافة ((ية)) الى هذا الاسم بخفة غير محمودة ، الامر الذي يكشف ثم يموه ويحجب المعنى الحقيقي للستالينية ولتأثيرها.

ومن يريد ان يكتب سيرة ماو تسي تونغ الذاتية ، فلا بد له من ان يتحدث في الوقت نفسه واسع الحديث عن الثورة الصينية ؛ بدءا من حركة ٤ ايار ١٩١٩ الى عصرنا الحاضر بكل مظاهرها السياسية والاقتصادية والتاريخية والثقافية الخ.

ولسوف نكتفي نحن بالتطرق على نحو موجز الى بعض التواريخ التي يمكن ان تسلط ضوءا على الموضوعات التالية :

١ – الدلالة الحرفية لنصوص ماو تسي تونغ في سياق التقاليد الصينية الثقافية واللغوية والمشكلات السياسية التي تطرحها الترجمة.

٢ – ((الستالينية)) الصينية؟

٣ – بعض الملاحظات حول الثورة الثقافية واصلاح التعليم.

٤ – مشكلة الثورة الدائمة كما تطرح معالمها الاولى احدى دراسات ماو النظرية القليلة ، وأعني دراسته ((عن التناقض)) التي كتبها في عام ١٩٣٧.

بعض ملاحظات تمهيدية
حول اللغة والكتابة الصينية

قليل من المستشرقين الغربيين المعنيين بالحضارة الصينية من اقام صلة وثيقة بين الطابع النوعي للغة وللكتابة الصينية – التيبيتية وبين نصوص ماو تسي تونغ السياسية. فلو امعنا النظر في الكتابات الماركسية الصينية من زاوية الاسلوب ودلالة الالفاظ لفوجئنا بطابع خاص بعيد كل البعد عن نمط التفكير الغربي وعصي جدا على الفهم. اقصد به الطابع اللامفهومي واللانظري ، بالمعنى الديكارتي ، للغة الصينية التي لا تقل اصلا غنى وعمقا عن اللغات الهندية – الاوروبية من حيث التطور والقدرة على التعبير. وكل ما هناك اننا لا نملك الحق في اعتبار التصور الغربي وحيدا في غناه.

ان اللغة الصينية ، بخلاف لغتنا ، وحيدة المقاطع ، ومتجهة الى التعبير عن العمل المباشر والفوري ، وهي لا تعطي بحكم ضيقها الصوتي الا مكانة ثانوية للفكر النظري. اضف الى ذلك الماهية الرمزية للكتابة الصينية التي تعتمد اسلوب التعبير بالصور ، والتي هي اقرب بالتالي الى الواقع العيني.

وبديهي ان الطابع التشخيصي والعملي للغة والكتابة الصينية لا يتلاشى الا بصورة جزئية عند الترجمة الى اللغات الاجنبية ، وهذا لا من زاوية الاسلوب فحسب ، وانما ايضا من زاوية المضمون ، او بالاحرى من زاوية الطريقة التي ينبغي ان يفهم بها هذا المضمون وأن يحول الى عمل.

وهذا ما يفسر لم لا نستطيع ان نبحث عن خصوصية الكتابات الماوية في التقاليد الثقافية ، الكونفوشية على سبيل المثال ، وحدها ، او في الوضع الاجتماعي المعقد للصين منذ القرن التاسع عشر وحده ، او في التجربة التاريخية للنضال الثوري للانصار الشيوعيين وحدها ، وانما ايضا في الاسلوب التعبيري لتلك الكتابات الذي هو اسلوب شفهي بالاحرى (في حين انه بالنسبة الينا اسلوب مكتوب قبل كل شيء). ومن يسعه ان ينكر العلاقة المتبادلة بين الممارسة وبين وسائل التعبير التي تجعل هذه الممارسة مفهومة؟

ونحن اذا لم نقم اعتبارا لهذه الواقعة ، فان خطابات ماو تسي تونغ وكتاباته ستبدو لنا على انها مجرد دعاية ، ودعاية ساذجة احيانا (وهي بالفعل كذلك ، ولكن ليس بالمعنى التحقيري الذي نضفيه عادة على كلمة الدعاية).

يقول مارسيل غرانيه في دراسته الكلاسيكية عن الفكر الصيني : ((لقد ظلت اللغة الصينية متمردة بعناد على التدقيق الشكلي حبا منها بالتعبير المناسب ، العيني ، المركب. وما حرصت عليه هذه اللغة فبل أي شيء اخر هو قوة الكلمة الآمرة بصفتها عملا كاملا ، أمرا ، امنية ، صلاة، طقسا ... واللغة الصينية مصوغة برمتها لتعبر عن مواقف عاطفية ، ولتقترح سلوكا محددا ، ولتقنع وتهتدي))[1].

أليس هذا هو المعنى العميق لكل كتابات ماو تسي تونغ؟

وأي محاولة لترجمة شعارات ماو تسي تونغ وأقواله ونصوصه ترجمة حرفية ولنقلها بقضها وقضيضها الى السياسة الايديولوجية للعالم غير الصيني ليست محاولة ساذجة فحسب ، بل تمثل ايضا تراجعا بالنسبة الى منهج ماركس بالذات. فأحد التعاليم الاساسية لهذا الاخير هو ضرورة تفسير كل تشكيلة ايديولوجية انطلاقا

---

[1] - مارسيل غرانيه : ((الفكر الصيني)) ص ٧٣.

من شروط ظهورها في سياق اجتماعي واقتصادي محدد ومن شروط انتاجها في سياق تقاليد ثقافية خاصة. وفي تجاهل ذلك تجاهل لأحد الانجازات الاساسية للماركسية.

وثمة واقعة اخرى يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار : فبالرغم من مجهود القادة الصينيين ونجاحهم الهائل في تقليص نسبة الأمية (من ٨٠ % الى أقل من ٢٠ بالمئة في أقل من عشرين عاما في قطر يضم ٧٠٠ مليون نسمة) ، فان مستوى التعليم ما يزال متدنيا نسبيا ، الامر الذي يستوجب تبسيط الجدل الماركسي في صيغ في متناول فهم الجمهور الواسع. والحال ان مثل هذا التبسيط يصادف لدينا نفورا بسيكولوجيا. وهذه السمة المذهبية والتربوية للايديولوجيا الماوية تلاحظ باستمرار في ((الكتاب الاحمر الصغير)). فنحن نقرأ في تقديم لين بياو له على سبيل المثال : ((لنقرأ مؤلفات الرئيس ماو ، ولنتبع تعاليمه ، ولنعمل بموجب تعليماته)). ومثل هذه العبارة تبعث فينا أفكارا دينية لم يمض زمن طويل على تحررنا من اسارها. ولكن ليست هذه الحال – ولنلح على ذلك – بالنسبة الى الصين.

واذا لم يكن هذا المثال واضحا بما فيه الكفاية ، فلنتمعن قليلا في العبارة التالية التي وردت في نشرة ماركسية – لينينية لاحدى الجماعات المؤيدة للصين في فرنسا: ((ان الثورة الثقافية تقلب السماء والارض ، وتهز العالم))!

ستالين

ان رفض العديد من رجال اليسار في العالم للاشتراكية الصينية رفضا يصح وصفه بأنه مسبق يتأتى من اسلوب المجاملة الذي تتحدث به المؤلفات الماوية عن شخصية ستالين. والاغراء في الحقيقة كبير ، في حال التسرع في اصدار الاحكام ، وفي شروط عدم توفر المعلومات الكافية بوجه خاص ، في حسبان الاستشهاد بستالين نزعة ستالينية. وأن تكون الحقيقة مختلفة كل الاختلاف بالنسبة الى تاريخ الصين الشيوعي ، وأن تكون سياسة ماو قد تعارضت في غالب الاحيان مع السياسة

الستالينية ، فان في ذلك ما قد يفاجئنا ، ولكن هذه المفاجأة لا تغير شيئا من واقع الأمر ، كما سنحاول ان نبرهن على ذلك. ولا بد لنا ، لهذا الغرض ، من العودة الى الخطوط الكبرى لبعض مراحل تاريخ الحزب الشيوعي الصيني ، ولا سيما مرحلة وجوده الاولى التي انتهج فيها ماو سياسة مستقلة عن التعليمات الستالينية[1].

غداة ثورة اوكتوبر اسس لينين في موسكو الكومنترن ، المجلس الأممي للتوجيه والتنسيق والمساعدة الفعالة للنضالات الطبقية في العالم قاطبة. وقد حدد الكومنترن لحقبة طويلة من الزمن الايديولوجيا والاشكال الثورية لعمل احزاب شيوعية شتى منها الحزب الشيوعي الصيني الذي اسسه في عام ١٩٢١ في شانغهاي اثنا عشر ممثلا للحلقات الماركسية المؤسسة قبيل ذلك. ولقد تحدد الى حد كبير تطور العلاقات المعقدة بين هاتين المنظمتين بالموقف الواجب اتخاذه تجاه حزب اخر اسسه قبل ستة عشر عاما القومي الليبيرالي ، الدكتور صن يات صن. وكان الهدف السياسي لهذا الحزب ، الذي بدل اسمه في عام ١٩١٢ فصار الكيومنتانغ (حزب الشعب والبلاد)، توحيد البلاد واقامة حكومة جمهورية تضع حدا لحالة الفوضى الضاربة اطنابها في مختلف ارجاء البلاد في شروط تبعية نصف كولونيالية بنتيجة تسرب الرأسمالية الاجنبية والسيطرة على بعض المناطق والمراكز المدينية وتأثر نخبة محدودة العدد بالثقافة الغربية. ولكن ازاء استحالة ايجاد رجال قادرين على ترجمة هذا المشروع الى قوة قمينة باصلاح البنى الاقطاعية التي كان يحميها كبار الملاك العقاريين وسادة الحرب الذين كانوا يُرهِبون اقاليم بأسرها ، استسلم ذلك الحزب الى سبات عاجز تجاه الفساد الاداري وأفول شمس البلاد وقيمها التقليدية. وقد بقيت النداءات التي وجهها صن يات صن الى الاستعماريين الاميركان والانكليز بلا جواب ، لان هؤلاء الاستعماريين ما كانت لهم أي مصلحة في بعث الصين. ولم يستعد الحزب الجمهوري اهميته الا مع صعود موجة النضالات

---

[1] - اهم المصادر التاريخية التي اعتمدناها ههنا هي كتب ادغار سنو ، و ك. س. كارول ، وستيوارت شرام.

الاجتماعية في عام ١٩١٩ ، وفي المقام الاول عمال الموانيء في هونغ كونغ في كانون الثاني ١٩٢٢.

وقد آثر المضربون بقيادة بحار يدعى سو شاو وين هَجرْ اعمالهم ومدينتهم على الاستسلام. وازاء اتساع الحركة وشمولها اضطر الانكليز ، سادة هونغ كونغ ، الى زيادة الاجور بنسبة ٣٠ بالمئة والى الاعتراف بالحقوق النقابية.

لقد كانت الحركة حركة اجتماعية انطلقت من القاعدة. ويرى ك. س. كارول ان الكيومنتانغ او الحزب الشيوعي الصيني ما كانا وراءها. بيد ان الكيومنتانغ قد محضها تأييده على كل الاحوال. وقد طرح موقف الكيومنتانغ هذا واتساع الحركة مشكلة امكانية قيام ثورة في الصين ، وكذلك مشكلة العلاقات بين الحزب الشيوعي الصيني والكيومنتانغ. وعلى هذا فان ((المسألة المتعلقة بمعرفة من كان وراء تلك الحركة الشعبية لم تكن مسألة اكاديمية خالصة. فقد طُرِحَت على بساط البحث في الكومنترن ، وتحولت هذه المناقشة بعد بضع سنوات الى امتحان حاسم لعلاقات القوى بين الستالينيين اصحاب الغالبية في الحزب الشيوعي السوفياتي (وبالتالي في الكومنترن) وبين الاقلية المعارضة المتجمعة حول تروتسكي. فلقد كانت المسألة الاساسية في نظر ستالين ، بطل أطروحة ((الاشتراكية في بلد واحد)) ، ايجاد حلفاء للدفاع عن الاتحاد السوفياتي ضد احتمال شن الدول الغربية لحملة صليبية معادية للشيوعية. وكان نضال الصينيين المعادي للامبريالية يضعف بلا ادنى ريب من قوة اولئك الاعداء الالداء ل ((اول قلعة اشتراكية في العالم)) ، وكان ستالين عاقدا العزم على تأييد ومساندة المحرك الرئيسي لذلك النضال أيّاً كان. وفي الوقت نفسه لم يكن يؤمن بفرص ثورة شيوعية في الصين. فقد كان يؤكد ، مستشهدا بصورة متعسفة بعض الشيء بسابقة ثورة ١٩٠٥ الروسية ، ان على الصين ان تمر اولا بمرحلة رأسمالية من التطور بقيادة البورجوازية. وكان يخيل اليه ان الكيومنتانغ مؤهل كل التأهيل لانجاز هذه المهمة التاريخية البورجوازية ، وكان يطالب الشيوعيين بالتالي ان يمحضوه تأييدهم اللامشروط. اما تروتسكي ، الذي كان اكثر مثالية واكثر ثقة باحتمالات الثورة العالمية ان لم نقل بوشكانها ، فقد كان يرى ان الواجب الاول

للأممية الشيوعية انضاج ثورات شيوعية مهما كلف الامر. ولم يكن تروتسكي يحظر على الشيوعيين الاجانب عقد تحالفات مع الاحزاب الاخرى ، ولم يكن بالتالي معارضا لتعاون الحزب الشيوعي الصيني مع الكيومنتانغ ، ولكنه كان ينصح الشيوعيين بألا يضحوا في حال من الاحوال بأهدافهم وبمبادئهم السياسية على مذبح تلك التحالفات. والحال ان الشيوعيين الصينيين ، بضغط من ستالين الذي كان قد اصبح سيد الكومنترن ، كانوا قد اصبحوا مضطرين عمليا الى القبول بتبعية تامة ازاء شركائهم في الكيومنتانغ[1].

وما تجدر الاشارة اليه ههنا ان تلك المناقشة لم تبدأ مع نزاع ستالين وتروتسكي ، بل هي ولدت مع المساجلة التي دارت في المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية في تموز ١٩٢٠ بين لينين والشيوعي الهندي م. ن. روي ، وان على مستوى اكثر عمومية. فقد كان روي ، المدافع عن الثورة في آسيا ، قد وقف موقفا مشابها لموقف تروتسكي وعارض التعاون اللامشروط مع الحركات ((البورجوازية – الديموقراطية)) ، وهو التعاون الذي دعا اليه لينين في شروط محددة، شروط اضعاف الجبهة الامبريالية. ولكن من المشكوك فيه على كل الاحوال ان يؤيد لينين السياسة الستالينية ، فيما لو امتد به الاجل ، بعد انعطاف الكيومنتانغ الى اقصى اليمين.

ان الخاصة المميزة لجميع الحركات القومية ، القائمة على تأييد طبقات مختلفة ، تتمثل في عدم استقرارها الايديولوجي. وبهذا المعنى لا نفاجأ اذا ما وجدنا الكيومنتانغ ينتهج في عام ١٩٢٥ ، عام وفاة مؤسسه صن يات صن ، سياسة معادية للشيوعية ازاء تصاعد موجة التحريض في المدن. فالاضراب العام الذي شمل البلاد بأسرها بعد شهرين من فتح الانكليز النار على المتظاهرين في شانغهاي (مما نجم عنه مصرع ١٢ شخصا في ١١ حزيران ١٩٢٣ ثم ٦٠ شخصا في ٢٣ حزيران) حدد سياسة البورجوازية. اذ انها لم تجد من سبيل أمامها في مواجهة المضربين الذين راحوا يتسلحون غير ان توجه الكيومنتانغ وتؤلبه على ((التهديد

---

[1] - ك. س. كارول: ((صين ماو)) – ص ٦٤ – ٦٥.

الشيوعي)). وبعد مقتل اقرب معاوني صن يات صن اليه ، صار الطريق مفتوحا امام الجنرال تشانغ كاي شيك ، قائد الجيش القومي. وبالفعل ، بادر هذا الاخير الى تدشين سياسة مناوئة للثورة ، موجهة ضد الحزب الشيوعي وضد الطبقة العاملة والفلاحية في الصين. ولجأ الى القمع ردا على المطالب الشعبية: سحق تمرد شانغهاي ، ثم سحق ((عامية كانتون)) في عام ١٩٢٧. فما سيكون رد فعل الحزب الشيوعي الصيني ازاء سياسة القمع هذه؟

ولكن بالرغم من هذا كله فرض ستالين على الحزب الشيوعي الصيني ، الذي كان يقوده من خلال جهاز الكومنترن ، الاستمرار في سياسة مساندة الكيومنتانغ.

اضف الى ذلك ان نقص الخيال في السياسة الداخلية كان لا بد ان ينعكس ، مضاعفا ، على المشكلات الخارجية: عدم القدرة على تقييم ميزان القوى الحقيقي في الصين. وهكذا أُرتُكِبَت سلسلة من اخطاء فادحة راحت تتراكم: وفي المقام الاول، وبعد مسألة معاضدة تشيانغ كاي شيك، اهمال المسألة الفلاحية.

وهذه المشكلة ستكون العامل الرئيسي في السياسة المعارضة التي دعا اليها ماو تسي تونغ ، احد مؤسسي الحزب الاثني عشر. الذي ما كانت أفكاره تحظى مع ذلك بتأييد اللجنة المركزية.

وقبل ان نعرض هذه السياسة لا بد ان نلح على سوء تفاهم ذائع الانتشار : فماو تسي تونغ ، بالرغم من الاهمية التي كان يعلقها على الطبقة الفلاحية ، لم يتكلم قط عن تحالف بين هذه الطبقة وبين الطبقة العاملة. فقد كان مشروعه القيام بالثورة معها ولكن بقيادة الطليعة البروليتارية ، وفي هذا تحوير اساسي للمعنى. ويقول تروتسكي بسداد رأي في ((الثورة الدائمة)) : ((ان المناقشة تدور ، لا حول الدور الحاسم للطبقة الفلاحية بوصفها حليفة ولا حول الاهمية الكبيرة للثورة الزراعية ، وانما حول مسألة معرفة ما اذا كانت الثورة الزراعية الديموقراطية المستقلة ممكنة في الصين ام ما اذا كانت الديكتاتورية البروليتارية ستحظى بمؤازرة طبقة ثانية من حرب الفلاحين)).

اما ماو تسي تونغ ، المثقف المنحدر من اصل فلاحي ، فقد كان يرى منذ العشرينيات في الطبقة الفلاحية المحرك الحقيقي للثورة ، ولكن ليس طليعتها. وفي اوائل عام ١٩٢٧ قدم تقريره المشهور عن وضع الفلاحين في اقليم هونان ، بيد ان الامين العام للحزب رفضه. ولقد قام ماو بذلك التحقيق عن اسباب التمرد العفوي الذي حدث في ذلك الاقليم ليرد على التهجمات التي انهالت داخل الحزب وخارجه على حد سواء. وكان ذلك التقرير اول نص سياسي هام لماو. وقد جاء فيه : ((ان علينا ، باسرع ما يمكن ، ان نضع حدا لكل اللغط المعادي للحركة الفلاحية وان نصحح التدابير الخاطئة التي اتخذتها السلطات الثورية تجاه هذه الحركة. وانما على هذا الاساس وحده نستطيع المساهمة في تطور الثورة في المستقبل. ذلك ان الانطلاقة الراهنة للحركة الفلاحية حدث ذو اهمية حاسمة. وفي قليل من الزمن ، سيهب مئات الملايين من الفلاحين في اقاليم الصين الوسطى والجنوبية والشمالية ، بجموع لا يقهر ، كالاعصار ، ولن يكون في وسع أي قوة ان تكبحهم. انهم سيحطمون الاغلال جميعا وسيندفعون على طريق التحرير. انهم سيحفرون قبر جميع الامبرياليين وسادة الحرب والموظفين الفاسدين والعملاء للاجنبي والمستبدين المحليين وأشرار نبلاء الريف. انهم سيضعون على حجر المحك جميع الاحزاب الثورية وجميع الرفاق الثوريين الذين سيتوجب عليهم ان يقفوا الى جانبهم. هل نقف على رأس الفلاحين ونقودهم؟ ام هل نبقى خلفهم مكتفين بانتقادهم بتعال وتعالم؟ ام هل ننهض في وجوههم لنحاربهم؟ ان كل صيني حر في ان يختار احد هذه الطرق الثلاثة ، ولكن الاحداث سترغم كل امرىء على ان يقوم سريعا بهذا الاختيار)).

ان شعار ((تطويق المدن بالارياف)) لم يطرح بعد ، ولكن الاهمية التي عزاها ماو الى تلك النضالات الفلاحية اثارت نقدا عنيفا من جانب الكومنترن الذي شبهها بأنها مجرد فتن فلاحية. وقد عبرت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية صريح التعبير عن رأيها بصدد هذا الموضوع في قرار اتخذته في عام ١٩٢٩ في دورتها الخامسة: ((ان على الحزب ان يضع نصب عينيه ، وهو يقود الاعمال العفوية للانصار الفلاحين ، ان هذه الاعمال لا يمكن ان تتحول الى نقطة انطلاق لانتفاضة

مظفرة الا بشرط ارتباطها بنهضة جديدة للموجة الثورية في المركز البروليتارية)).
لقد ظل الكومنترن متشبثا أذن بالموضوعة التقليدية القائلة بان الثورة ليست رهنا بقيادة الطبقة العاملة فحسب ، بل ايضا بأنها لا تستطيع ان تقف على قدميها الا اذا جاءت المبادرة من البروليتاريا المدينية. وقد واجه ماو تسي تونغ اللوم الشديد ، بل انه فُصِل مؤقتا من اللجنة المركزية للحزب تحت ضغط الكومنترن الخاضع لسيطرة ستالين. وقد كان طوال سنين مديدة القائد الشيوعي الصيني الوحيد الذي يتجاوز القرارات الدوغمائية للقادة الذين كانوا يحسبون حساب المناقشات في موسكو اكثر مما يحسبون حساب الواقع الصيني. ومما له دلالته ان يكون قد اصبح في تشرين الثاني ١٩٣١ رئيس جمهورية الصين السوفياتية القائمة في اقليم واسع حرره الجيش الاحمر الصيني ، مع انه لم يكن يشغل سوى المرتبة السادسة في قيادة الحزب الشيوعي الصيني. وهو لم يصبح الامين العام الاول للحزب الا بعد اربع سنوات.

وفي الاعوام التالية ازدادت حدة التناقض بين الكيومنتانغ والحزب الشيوعي ، وبين هذا الاخير والكومنترن. ولم تغير القيادة الموسكوفية خطها المؤيد للكيومنتانغ حتى بعد ان شن الجيش القومي بقيادة تشانغ كاي شيك حملة صليبية لسحق الشيوعيين بدلا من مقاتلة الغازي الياباني الذي كان يحتل جزءا واسعا من الصين. وقد حاول ماو تسي تونغ ، من جهة اخرى ، وفي اكثر من مناسبة ، ان يتعاون مع البورجوازية الصغيرة الوطنية التي كان لها ممثلوها في الكيومنتانغ. ولكنه مني بالفشل تلو الفشل ، أسواء مع العناصر التي كانت تشجب تشانغ كاي شيك ام مع قادة الجناح اليساري من الحزب القومي ام مع الجنرال نفسه.

لقد كان ماو يعي تمام الوعي ، وهو يتحدث عن قوة الفلاحين ((التي لا تقهر)) في تقريره عن هونان ، ان الطبقة الفلاحية ليست مضمونة الولاء سلفا لقضية الاشتراكية ولسياسته. وما مبدأ الحرب الشعبية ، التي تمزج بين الفتح العسكري واعادة البناء والتعمير ، الا نتيجة جزئية للتخوف من ردة الطبقة الفلاحية. وقد قال ماو في الجملة الشهيرة التي وردت في مقابلته مع ادغار سنو: ((ان من يكسب

الفلاحين يكسب الصين. ومن يحل المسألة الزراعية يكسب الفلاحين)). وهذه الجملة الموجزة المحكمة تعبر في الحقيقة عن ضرورة اصلاح الارياف فور تحرير أي اقليم مهما كان صغيرا على يد الجيش الاحمر ، وعدم انتظار النصر النهائي للشروع بمرحلة البناء. والحجة القائلة بأن الاصلاح الزراعي يشد من ازر الجيش الاحمر الذي يزداد قدرة بالتالي على تحرير اقاليم جديدة وعلى معاودة الانطلاق من قاعدة اوسع تبدو صحيحة كل الصحة جدليا في السياق الصيني.

بيد ان الخلافات بين ستالين وماو تسي تونغ تكمن في مستوى أعمق: مستوى تصور بناء الاشتراكية بالذات الذي عارض به ماو ستالين والقادة السوفييت الحاليين. وبالرغم من ان خطوط الاختلاف بصدد السياسة الاقتصادية ظاهرة جلية في النصوص الرسمية ، فان الانجازات الحقيقية ومحاولات تطبيق المعطيات الماركسية تطبيقا صحيحا – ولا سيما فيما يتعلق بمشروع ازالة الطبقات بوصفها مصدرا للاستغلال – ليست معروفة الا من قبل بعض الزوار الذين اتيح لهم ان يسافروا الى الصين. ذلك ان ما يكتسب اهمية حاسمة ليس الاولويات الممنوحة لهذا القطاع الاقتصادي او ذاك بقدر ما هي أشكال التسيير والعلاقات بين القاعدة واللجنة المركزية. واذا كان صحيحا ان أشكال التسيير قابلة لأن تكون معلومات لتصور معين ، فان من الصحيح ايضا ان التسيير نفسه قد يصبح علة ، كما يبين ذلك مثال روسيا الراهنة.

فهذا القطر ، الذي جعل الاولوية الممنوحة للاقتصاد محور سياسته كلها والذي اعطى المكانة الاولى للانتاج الواجب ادراكه ، ولا سيما قطاع سلع الانتاج ، قد وجد نفسه ينتهج سياسة مراكز القوة التي لا تكاد تميزه عن الاقطار الرأسمالية.

ان كلاما كثيرا دار ويدور حول ((تصفية الستالينية)) منذ ان القى خروتشيف تقريره ((السري)) في المؤتمر العشرين للجنة المركزية السوفياتية. وتحت تأثير الصحافة الغربية ، ولكن تحت تأثير ذلك التقرير نفسه ، تفسر عبارة ((تصفية الستالينية)) على انها مجرد فضح لاعمال القمع التي ارتكبها ستالين ودكتاتوريته البوليسية. وأحيانا توسع لتشمل ايضا البيروقراطية. وفي رأيي ان الستالينية تشير

ايضا – وهذا امر لا يخلو من اهمية – الى سياسة اقتصادية والى الاستمرار في نمط للانتاج يؤيد القيم الاخلاقية للبورجوازية الصغيرة.

ان النموذج الصيني يقيم الدليل القاطع على ان الاطروحة التي يقول بها عدد من المؤرخين الغربيين حول ضرورة السياسة ((الاقتصادية النزعة)) ، التي تبنتها اللجنة المركزية لمواجهة المستوى الاقتصادي المنحط للاتحاد السوفياتي بعد لينين ، اقول ان النموذج الصيني يقيم الدليل على ان هذه الاطروحة لا تتفق والامكانيات الواقعية. لان المشكلات التي يطرحها المستوى المتدني جدا للانتاج متماثلة في خطوطها العريضة بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٢٦ والى الصين في عام ١٩٤٩. وبديهي ان ماو تسي تونغ لا يماري في اهمية القطاع الاقتصادي ، ولكنه يعارض في تطور هذا الاخير على حساب النضال الايديولوجي.

ان الثورة في الصين لم تتحقق على اساس فلاحي خالص ، وانما ايضا بتأييد سلبي او ايجابي من ثلاث طبقات اخرى (البروليتاريا والبورجوازية الصغيرة والبورجوازية الوطنية). وكذلك في شروط انعدام العداء البورجوازي بحكم تلاقي النضالين القومي والاجتماعي في الثورة الصينية. والاعتراف بذلك يعني السعي الى اكتساب تأييد الافراد للمهام الاشتراكية بدلا من اقصائهم ، لان التدابير القمعية ترتد في خاتمة المطاف على البادىء بها. وهكذا فان ماو تسي تونغ لم يصادر ملكية الرأسماليين السابقين وكبار الملاك العقاريين بدون نوع من التعويض. فلقد كانوا يتلقون حتى الثورة الثقافية ، أي بعد خمسة وعشرين عاما من الاستيلاء على السلطة ، خمسة بالمئة من الدخل السنوي للمشروع او للمزرعة المؤممة.

ان مسألة كسب الولاء لقضية الاشتراكية ترجعنا الى مشكلة المركزية الديموقراطية ونظام القرارات. فاللجنة المركزية هي التي ترسم الخطوط السياسية والاقتصادية والاجتماعية الكبرى ، ولكنها أقل اهتماما بالقرارات التقنية. وفي ميدان التخطيط نلاحظ اختلافا جوهريا عن الاتحاد السوفياتي. فلننظر في مستويات التخطيط الثلاثة :

١ – صياغة الحزب لمشروع يتضمن الخط السياسي والاقتصادي ، المفصل بما فيه الكفاية من الزاوية التقنية.

٢ – ارساله الى وحدات الانتاج التي تضيف اليه تجاربها وخبراتها.

٣ – اعادته الى المركز الاقتصادي الحزبي الذي يضع الخطة النهائية.

لقد الغى الحزب الشيوعي الصيني منذ بضع سنوات المرحلة الاولى ، وصار التخطيط يبدأ من القاعدة. وهذا ما أتاح هامشا اكبر من الاستقلال الذاتي للكومونات في التسيير التقني والمالي. بالرغم من ان القيادة المركزية هي التي تقرر الخط السياسي للاقتصاد. وبنتيجة ذلك لا نشاهد في الصين منظمين يأتون من العاصمة لتوجيه الكولخوزات كما يحدث في روسيا. ونحن لا ننكر ان الكومونات الشعبية واجهت فشلا نسبيا يُظهر حدود التسيير التجريبي اكثر مما ينبغي والمعمول به بشيء من التسرع ايضا. ولكن يخيل الينا ان هذا افضل على المدى الطويل من الطرائق الذرائعية للإداريين الروس.

بيد ان اصالة السياسة الماوية لا تظهر على المستوى التقني في الدرجة الاولى ، وانما – بوجه خاص – على مستوى التربية السياسية. فحتى يتحقق تغير يضمن التطور ، فلا بد ايضا ، ان لم نقل في الوقت نفسه ، من ان تتغير القيم الاخلاقية للجماهير. ((ان حالة البشر المعنوية لا تقل اهمية في نظرنا ، ان لم نقل تزيد ، عن الطرائق والاساليب مهما كانت متقنة. فالانسان بعد كل شيء هو الذي يطبق الطرائق والاساليب ، وهو الذي يستخدم التقنيات ، وهو الذي يقرر سير العمل. واذا كانت هذه القرارات صحيحة ، واذا كان الحرص على المصلحة الجماعية هو الذي املاها ، فان كل شيء يتقدم: الانتاج والمجتمع والفرد. اننا نعتقد اذن بأن القوى الروحية تضاعف القوى المادية ، وبأن الماركسية – اللينينية هي في الحقيقة افضل طريقة للحصول على نتائج طيبة. هذا هو المبدأ المركزي لتعاليم الرئيس ماو ، وحيثما تُطبَّق افكاره تطبيقا صحيحا تتقدم النتائج بصورة ملموسة))[١].

---

[١] - وو شن ، نائب وزير الزراعة ، في مقابلة له مع ك. س. كارول.

ان اللهجة تشدد على الدوام على ضرورة التلاحم الشعبي. وليس هناك من وسيلة لا تُستَخدَم للاقناع ولتطوير وعي اجتماعي جماعي.

فما هو اصل هذا التطلع الى الديموقراطية والى تحقيق المساواة ، والى مؤازرة الجماهير الشعبية؟ ان العوامل متعددة ، وأحدها تاريخي:

فإبان الحرب ضد الغزاة اليابانيين انتهج الحزب الشيوعي سياسة الجبهة المتحدة بهدف توسيع القاعدة المناهضة للامبريالية ، فخاض نضاله على اساس مطالب قومية واجتماعية في آن واحد. وبالمقارنة مع الاتحاد السوفياتي كان عامل الزمن في النضال عاملا حاسما : ثلاث سنوات من الحرب الاهلية في الاتحاد السوفياتي مقابل اكثر من اثنتي عشر سنة في الصين تكونت اثناءها نواة قيادية متينة ومدعومة من قبل جماهير واسعة من السكان. ولقد عرف هؤلاء القياديون كيف يتجنبون النزعة الانعزالية للقادة البلاشفة. وقد شَكلَت الجبهة المتحدة المتولدة عن الحرب قاعدة دعم عريضة تبدأ بالشيوعيين وتنتهي بالاحزاب الديموقراطية والبورجوازية الصغيرة. وقد ظلت قائمة بعد انشاء الدولة الصينية في عام ١٩٤٩ ، منسجمة بذلك مع البنى الاجتماعية الموجودة. وقد دعا الشيوعيون في تلك الحقبة الى انعقاد ((المؤتمر الاستشاري السياسي للشعب الصيني)) الذي ضم القوى المعارضة لتشانغ كاي شيك وجميع الاتجاهات السياسية باستثناء اليمين المتطرف وكبار الملاك ، وذلك لتقرير مستقبل الجمهورية الصينية وبرنامجها. ولقد وجد الحزب الشيوعي الصيني نفسه مضطرا الى اللجوء الى الاقناع السياسي ليضمن حكم الدولة. وصحيح ان الاقناع السياسي هو القاعدة من وجهة نظر علم الاخلاق الماركسي ، ولكنه ليس منقوشا بالحتم في الوقائع كما يبين ذلك مثال الاتحاد السوفياتي وعدد من الديموقراطيات الشعبية. ويقول ماو تسي تونغ بهذا الصدد : ((ان الاسلوب القائم على اتخاذ مواقف متعالية متكلفة بهدف تخويف الناس لا ينبغي تطبيقه تجاه أي انسان. ذلك ان تكتيك التخويف لا يجدي البتة تجاه العدو ، ولا ينجم عنه الا الضرر تجاه الرفاق. ان الحزب الشيوعي الصيني لا يعتمد على التخويف))[1].

---

[1] - ماو تسي تونغ: ((ضد المخططات الجاهزة في الحزب)) (١٩٤٢).

وبعد بضع سنوات اثار موضوع الاختلاف بين النموذج الروسي والنموذج الصيني : ((يتساءل بعضهم عما اذا كان الحزب الشيوعي سيلجأ ، فور استيلائه على السلطة ، الى اقامة دكتاتورية البروليتاريا ونظام الحزب الواحد على غرار نموذج روسيا. وجوابنا على ذلك ان هناك فارقا مبدئيا بين دولة الديمقراطية الجديدة القائمة على اساس تحالف عدة طبقات ديموقراطية وبين الدولة الاشتراكية القائمة على اساس دكتاتورية البروليتاريا. فطوال فترة الديموقراطية الجديدة لن نستطيع ، وبالتالي لن يكون واجبا علينا ان نقيم في الصين نظام دكتاتورية تمارسها طبقة واحدة ووضعا احتكاريا ممنوحا لحزب واحد داخل الحكومة. وليس هناك من سبب يدعونا الى رفض التعاون مع أي حزب كان ومع أي تجمع اجتماعي كان ومع أي شخصية كانت اذا لم يقفوا بدورهم موقفا عدائيا من الحزب الشيوعي وأبدوا على العكس استعدادهم للتعاون معه. ان النظام الروسي نتاج للتاريخ الروسي . . . ولسوف يكون النظام الصيني نتاج للتاريخ الصيني))[١].

واذا كان من الصعب ان نقدر مدى لجوء ماو تسي تونغ الى تصفية الاحزاب والتجمعات والاشخاص المحرجين ، فان النص المذكور لا يدع مجالا للشك في الاولوية المعلقة على ضرورة التربية الايديولوجية ، وبالتالي ، على محو الطبقات محوا فعليا. ان القادة الصينيين ، وعلى رأسهم ماو تسي تونغ ، لفي سعي دائب وراء تحقيق المساواة التي لا يمكن الوصول اليها الا بعد تدمير الطبقات الاجتماعية، أسِواء منها الموروثة عن الصين القديمة ، ام تلك التي تنزع الى التكون من جديد على مستوى القادة والاختصاصيين والجماهير الشعبية.

وعلامات هذا الاتجاه كثيرة ، وهي في بعض الاحيان خارجية محضة. فالجيش على سبيل المثال يرتدي على جميع المستويات زيا واحدا بدون نجوم ولا شرائط بالنسبة الى الضباط من ذوي الرتب العالية. بيد ان اهمية تلك العلامات لا تبرز الا على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي: فدور الحوافز المادية في المشاريع والمنشآت محدود للغاية ، الامر الذي يترتب عليه الاستغناء عن نظام العلاوات الذي يساهم

---

[١] - ماو تسي تونغ: ((حول حكومة التحالف)) (١٩٤٥).

فـي زيـادة حـدة اللامسـاواة ويـؤدي فـي حـالات كثيـرة الـى تـدني نوعيـة المنتجـات. ودوافع العمل تنزع اكثر فاكثر الى ان تكون ذات صفة ايديولوجية خالصة ، والفرد يتطلع من خلال المجهود الذي يبذله الى الاعتراف الاجتماعي بـه اولا. وطبيعـي ان في المصانع لوحـات للتجليـة علـى سبيل المثـال ، بيد ان الفـارق بينهـا وبـين لوحـات التجلية في الاتحاد السوفياتي ملحوظ وملموس : فاستطاعت العامل الصيني لا تقاس فقط بنسبة التجاوز الفردي للمعايير المحددة من قبل اجهزة التخطيط ، فعلاقاتـه مـع الاخـرين ، مـع الرفـاق ، وصـفاته السياسـية والتربويـة ، ومسـاعدته لمـن هـم دونـه موهبة ، وبكلمة واحدة قيمه الاجتماعية ، هي التي تقدم مقياس شخصيته.

وهناك امثلة اخرى: السعي الـى تحقيق المسـاواة بين الملاكـات والعمـال. فـالفرق بين مـدير المصـنع وبـين العامـل البسيط من زاويـة اللبـاس وفخامـة المكاتـب لا يكـاد يكون منظورا. وبكلمة واحدة : رفض قسم ((مجتمع الاستهلاك)) السـائدة اليـوم فـي روسيا والخالقة لحاجات مصطنعة.

فكيـف نفسـر فـي هـذه الحـال وجـود اختلافـات فعليـة ، أسـواء كانـت سياسـية ام اقتصادية ام نظرية ، بين ماو تسي تونـغ وستالين من جهـة ألـى ، وكيـف نفسـر مـن الجهـة الثانيـة التنـاقض بـين الواقـع الصـيني وبـين الـدفاع عـن سـتالين علـى مسـتوى اللغة؟

ان الاختصاصـيين الغـربيين المعنيـين بشـؤون الصـين غالبـا مـا يـرددون الحجـة القائلة بأن الحزب الشيوعي الصيني أحس بأنه قد أقصي جانبا عندما تلا خروتشيف تقريره السري المشـهور امـام اللجنـة المركزيـة للحـزب الشيوعي السوفياتي ، علـى اعتبار ان حكومة الصين لم تعلم بالموضوع ولم يطلب منها رأيها حول وثيقة بمثل تلك الاهمية بالنسبة الى الحركة الشيوعية في العالم. ولكن هذا معناه الافتـراض بـأن تقلبـات المـزاج هـي التـي تحـدد مسـلك الحـزب الشـيوعي الصـيني. وفـي رأيـي ان الاسباب لا تكمن هنا ، وهي لا ترجع بصـورة احاديـة الجانـب الـى التخـوف مـن ان يؤدي نشر التقرير الذي فضح نقاط ضعف الستالينية وعبادة الشخصية الى تزعزع

هيبة القيادة داخل الحزب الشيوعي الصيني على غرار ما حدث في الحزب الشيوعي السوفياتي الذي لم يكن مهيئا لتلك الصدمة التي قررتها اللجنة المركزية.

ان علينا ، بادىء ذي بدء ، ان نطرح هذا السؤال : ماذا يمثل ستالين وماذا كان يمثل بالنسبة الى الصين؟ والجواب تتضمنه سلفا كلمة ((يمثل)). فقد كان ستالين في نظر الصين قيمة رمزية قبل كل شيء. ولِنُعِد الى الاذهان بأن ستالين هو الذي كان يقود القطر الاشتراكي الوحيد في العالم طوال مرحلة صراع الطبقات في الصين. والتواريخ تبعث على الدهشة لتجانسها : فمرحلة ١٩٢١ – ١٩٢٦ هي مرحلة ولادة الحزب الشيوعي الصيني وصعود ستالين الى السلطة ، ومرحلة ١٩٤٩ – ١٩٥٣ هي مرحلة تأسيس جمهورية الصين الشعبية ووفاة ستالين.

ولكن اذا كنا قد ألحجنا حتى الان على نقاط الاختلاف ، فمن الواجب الا ننسى المساعدة التي بذلها ستالين للصين في الاوقات العصيبة من تاريخها ، ولا سيما في مرحلة الحرب اليابانية – الصينية. ولم تكن هناك في نظر الصينيين من اهمية تذكر لمسألة ما اذا كان الهدف الاساسي لتلك المساعدة هو الدفاع عن روسيا في وجه الجيش الياباني الذي كان قد تقدم حتى منشوريا ، ما دام الدفاع الصيني قد تعزز على كل الاحوال. ومن هنا كانت قيمة ستالين الرمزية التي اتاحت المجال لتجاهل الواقع.

لقد تحاشى ماو تسي تونغ اذن اخطاء الستالينية. وبالمقابل لبثت بنية الستالينية على ما هي عليها ولم يطرأ عليها تعديل جوهري في الاتحاد السوفياتي بعد وضع حد لعبادة الشخصية وفضح استبداد الزعيم الجيورجي. ومعارضة الصين لحكومة الاتحاد السوفياتي الحالية لا تجد دلالتها وتفسيرها الا في متابعة شكل سياسي تقرر في الثلاثينات ، من غير ان تكون هناك حاجة الى وضع الشخصية التاريخية في قفص الاتهام. ولئن كانت سياسة القادة الصينيين اكثر جذرية فهذا لانها تتناول مختلف مستويات البنية الفوقية والتحتية ولا تتوقف عند الفضح المجرد – بعد فوات الاوان – الذي لا يبدل شيئا من جوهر الامور اذا لم يتناول الممارسة وتقارب نمط الانتاج الروسي من النظام الرأسمالي الى حد ما يعني في نظر الصحافة

البورجوازية والليبرالية نهاية الستالينية. ولكنه يعمل في الواقع ، وبالعكس ، على تعزيزها.

لقد تكلمنا في بداية هذا البحث عن المشكلات التي تثيرها ترجمة نصوص ماو السياسية نظرا الى خصائص اللغة والكتابة وأسلوب التعبير. والحال ان امعان النظر في الخلافات الصينية – السوفياتية يضعنا امام عقبة اخرى ، هي عقبة السياق التاريخي التي لم يولها الماويون الاوروبيون اهتمامهم.

فلئن كان ستالين لا يتجلى الا بصورة بطل في انتظار الشعب الصيني ، فهذا لا يرجع الى تحوله الى رمز فحسب ، وانما ايضا الى الجهل الفعلي بدلالة سياسته ونتائجها بالنسبة الى الشعب السوفياتي وبدايات الثورة الصينية على حد سواء. فلقد امتنعت الحكومة الصينية عن نشر محاكمات ((اليمينيين)) وعن اطلاع الشعب على وجود معسكرات الاعتقال والجرائم السياسية الخ. كما امتنعت ايضا عن تسليط الضوء على تفسير ستالين المغرض بعض الشيء ل ((الاممية البروليتارية)) ، ولا سيما موقفه من النضال الثوري في الصين ابان مرحلة ١٩٢٦ – ١٩٤٥.

وليس من قبيل الصدفة ان يسمى الماويون ستالينيين. فبالنسبة الى اولئك الذين لا يعرفون تاريخ الصين المعاصرة حق المعرفة يكاد ذلك الالتباس ان يكون مفهوما (ولا سيما ان البورجوازية ترعاه وتغذيه ، بالاضافة الى بعض الجماعات الماركسية).

ان النظريات الماركسية وتطبيقها قد تعرضت على مر الزمن الى تعديلات متفاوتة في اهميتها تبعا للشروط الخاصة بكل قطر ، وهذا حسب التسلسل التالي:

البلدان المتطورة :

(المانيا ، انكلترا ، فرنسا) – روسيا – الصين – كوبا.

والحال ان هذا المخطط مستقيم ووحيد الاتجاه. اذ لا ريب في ان تجارب عديدة في ميدان النضال الثوري وبناء الاشتراكية قد تراكمت في كوبا او الصين ، تجارب يتوجب ان تستفيد منها النضالات الثورية في الاقطار الرأسمالية المتقدمة. بيد ان مضمون هذه التجارب وطابعها النوعي والجديد الذي تنطوي عليه فيما يتعلق

باستراتيجية الحركة العاملة الأممية بوجه عام (على سبيل المثال موضوعة ((منطقة العواصف)) او حرب الانصار) لم يجر تمثلها من قبل الحركات القائمة في اوروبا ولم تدمج بممارساتها ، بل هي تُستَخدَم كمجرد شعار او مجرد دليل على الانضواء تحت لواء سياسة معينة دونما تفكير بشروط ظهورها. وانه لمما له دلالته من وجهة النظر هذه ان النصوص الصينية لا تشتمل الا على القليل من الاستشهادات بماركس وانجلز وان كانت تتقيد بمبادئهما الاساسية. والعكس هو ما يحدث بالنسبة الى النصوص الاوربية المناصرة للصين. ونتيجة الاستشهادات الكثيرة وغير المناسبة بنصوص ماو تسي تونغ هي تشويه دلالة هذه النصوص ، لان فكر ماو تسي تونغ يتغير معناه جذريا في سياق تاريخي وثقافي مختلف. وهو يأخذ طابعا دينيا لا مراء فيه بالنسبة الى البلدان الاوروبية المتطورة.

والحق ان المرء لا يصبح ماركسيا او ماويا بترويجه لأفكار ماركس ولينين وماو – فصناعة وتجارة وسائل الاتصال الجماهيري كفيلتان بذلك وعلى نحو افضل – وانما بتحديده وسائل النضال الملائمة لبنية قطر معين وتمثله التجارب الايجابية التي لا تكون مفيدة الا من خلال شموليتها. فاذا كان النموذج الصيني للتخطيط على سبيل المثال مغريا وجذابا من حيث اتجاهه الى تحقيق المساواة وقربه من الواقع اليومي ، فليس من المؤكد البته ان هذا النموذج قابل للنقل الى اقطار اخرى ، حتى من خلال عموميته ، بالنظر الى التعقيد التكنولوجي للبلدان الصناعية[1].

ان على المرء الا يخشى لعنة ((الكنيسة)) اذا جاء تحليل البنى الاقتصادية او التاريخية مخالفا لبعض مخططات ماركس او لينين او ماو. فالأورثوذكسية ، ايا

[1] - بالنسبة للنموذج الماوي الصيني للتخطيط هذا خاطيء تماما ، فالعكس هو الصحيح : فمن اسباب انهيار الشيوعية السوفياتية وفشل النمط الروسي للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي السابق ودول المعسكر الاشتراكي السابقة في اوربا الشرقية هو عجز النموذج السوفياتي للتخطيط – كلما زاد التطور والتعقيد التكنولوجيين – عن العمل بنفس كفائته السابقة التي كان يعمل بها عند مستويات تكنلوجية دنيا سابقة، وهذا بالذات بسبب المركزة الشديدة لعملية التخطيط. وكلما زاد التقدم والتعقيد التكنلوجيين واصبح البلد ذو مصانع اكثر كلما زاد عجز نظام التخطيط شديد المركزية (الذي لا يعطي صلاحيات واسعة للوحدات الدنيا) عن ادارة الفعالية الاقتصادية بصورة مرضية. هنا يأتي النموذج الماوي الصيني كحل عالمي لواحدة من اهم معضلات الحركة الشيوعية العالمية. – ملاحظة الصوت الشيوعي.

كانت طبيعتها ، تؤدي الى تأخر تقدم المعرفة. وانه لتصادفنا من هذه الزاوية مشكلة مثيرة للاهتمام. فالعديد من الماركسيين والسوسيولوجيين يحاولون اعادة تحديد بنية الطبقات مفترضين ان مخطط ماركس ما عاد صالحا، فتراهم يلجأون الى مفاهيم جديدة مثل ((ذوي القبعات البيضاء))[1] ويعانون من المصاعب بين الحين والآخر. فما مصدر هذه المصاعب؟ الطرح السيء للمشكلة لا اكثر ولا أقل. فنظرية ماركس عن الطبقات الاجتماعية لم يثبت بعد بطلانها ، ولكنها اصبحت عامة للغاية عبر التطور الاقتصادي والاجتماعي خلال الاعوام المئة الاخيرة فباتت عاجزة عن معانقة الواقع وغير ذات تأثير على المستوى الايديولوجي اذا لم يجر في الوقت نفسه تحديد تعقيدها. والانطلاق من تصورات عمالية خالصة لتقييم افراد قادرين على ان يكونوا في آن واحد عمالا و ((رأسماليين)) بفضل شراء الاسهم لا بد ان تنتهي بخيبة اكيدة.

وليس هناك على حد علمي جماعة ((يسارية)) واحدة انتجت دراسات نقدية عن جميع الثوريين، روزا لوكسمبرغ او لينين او تروتسكي او ماو على سبيل المثال ، لاستخلاص ما بقي صحيحا وصالحا من تعاليمهم ، علما بأن هذا المنهج هو وحده القمين بتلافي الخيبة التي أشرنا اليها. ان التعصب يحول دون التركيب. ولقد قالت احدى افتتاحيات ((صحيفة الشعب اليومية)) بهذا الصدد : ((يتوجب علينا ان نستمر في دراسة مؤلفات ستالين بانتباه . . . بوصفها تراثا تاريخيا هاما . . . ولكن هناك طريقتين لدراسة المؤلفات ، الطريقة الماركسية والطريقة الدوغمائية. وهناك من يدرس مؤلفات ستالين بطريقة دوغمائية ، فيعجز بالتالي عن تحليلها وعن تمييز الصحيح منها . . .))[2].

وهذا المبدأ يظل صحيحا حتى بعد حذف اسم ستالين.

---

[1] - أي طبقة العمال التقنيين الرفيعي الاختصاص. ((المعرب))

[2] - لنلاحظ بالمناسبة ان الواقع الصيني يناقض هذا المشروع لان سلطات الحزب لا تقر بهذا الحق لمؤلفات ل. تروتسكي على سبيل المثال.

الثورة الثقافية

ليس في نيتنا ههنا ان نؤرخ للثورة الثقافية ، تلك الظاهرة الفريدة من نوعها في العالم الاشتراكي ، ولكن المنسجمة مع الخط السياسي الماوي. وكل مطمحنا ان نسلط الضوء على بعض مظاهر الموقف الماوي النوعي من دور الشبيبة كطليعة ثورية. ولهذا سنحصر كلامنا ب ((اندلاع)) الثورة الثقافية وببعض المعلومات التي نملكها عن البنية الجديدة للتعليم. وهاتان المسألتان لا تساعدان على تفهم أفضل لفكر ماو فحسب ، بل أيضا على تفهم أفضل لمشكلات ثورة الطلاب في الغرب.

ان أحداث الصين في الستينات لم تكن المحاولة الاولى من نوعها. ففي عام ١٩٥٨ ، وفي أعقاب ظاهرة محدودة من الانفتاح الثقافي ، أُطلِقت الحركة النقدية المعروفة باسم شعارها : ((لتتفتح مئة زهرة . . .)). ولقد وجدت اللجنة المركزية نفسها مضطرة في حينه ، بعد المصاعب السياسية التي أثارتها الحركة ، الى تضييق الخناق من جديد على الحريات الثقافية والى اطلاق شعار ((الوحدة ، النقد ، الوحدة)) ، الذي لم يترك الباب مفتوحا الا للانتقادات المنظور اليها على أنها ايجابية وبناءة.

ان حركات التمرد التي انطلقت من القاعدة عديدة في بلدان الكتلة الاشتراكية ، ولا سيما في بولونيا ، ومؤخرا في تشيكوسلوفاكيا. وعندما حدثت الظاهرة نفسها في الصين ، عرف ماو تسي تونغ كيف يميز بين تمرد طلابي يهدف الى احياء البنى القديمة وبين اندفاعة ثورية أصيلة. ومثل هذا التمييز الصاحي كان غائبا عن سياسة القمع التي لجأت اليها السلطات لمواجهة طلاب موسكو وبراغ ووارسو وبودابست.

ولئن كان ماو قد عرف كيف يفسر تفسيرا جدليا أحداث جامعة بكين والمناظرة بصدد الثقافة الآسيوية التي كانت نقطة انطلاق الثورة الثقافية ، فان في ذلك لدليل آخر على سلطته الثقافية.

وهذا على وجه التحديد ما يجعلنا نخالف آراء العديد من المعلقين الغربيين الذين يزعمون ان الثورة الثقافية قد جاءت مبادرتها من الاعلى وينكرون عليها كل أصل

أو منشأ عفوي. وفي رأينا ان العديد من الدلائل يشير الى ان العكس هو الصحيح : من جهة أولى النشر المتأخر للتعليمات الرسمية مثل ((القرار حول الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى في ست عشر نقطة)) الصادر في آب ١٩٦٦ بعد مرور عام كامل على بداية النقد العنيف ، ومن الجهة الثانية حرية العمل الواسعة للحرس الاحمر في ذلك البلد الشاسع المترامي الاطراف. ولقد اقتصرت القرارات المركزية على الخط الايديولوجي. وليس بذي بال – من وجهة النظر هذه – ان ماو تسي تونغ عرف بمهارة كيف يسيطر على الثورة بعد اندلاعها ، لان الثقة بمثل هذه الحركة التي جاءت بمبادرة الشبيبة لهي بالفعل ثقة استثنائية فريدة من نوعها نظرا الى السهولة التي يمكن بها حرف حركات الشباب من اتجاه الى آخر. وتُنسَب هذه الثقة أحيانا الى الطابع ((الرومانسي)) او ((المغامر)) لشخصية ماو. وفي هذا تجاهل اكيد لقدراته التحليلية التي برهن عليها في نصوصه.

واذا اردنا ان نجد مفتاح مفهوم ((الشبيبة)) في الفكر الماوي ، فلا بد ان نعود الى ميلاد الماركسية الصينية. ففي ٤ آب – ١٩١٩ أعلن طلاب المدن الصينية الكبيرة جهارا ، وبالمظاهرات ، سخطهم على نتائج مؤتمر الصلح في باريس الذي منح اليابان الامتيازات القديمة التي خسرتها ألمانيا ابان الحرب العالمية الاولى بدلا من ان يعيدها الى الصين. ولقد شهد شهرا أيار وحزيران ١٩١٩ تظاهرات شوارع واظرابات عنيفة ، وموجة عارمة من الكتابات المتأثرة بالافكار الغربية. وقد حاول ستيوارت شرام ان يبين الصلات الوثيقة الى حد مدهش بين هذه الحركة وبين تكوين شخصية ماو وفكره. فلقد مارس ماو نشاطه السياسي الاول في عام ١٩١٥ يوم كان طالبا في معهد شانغهاي العالي ، وشارك في حركة ٤ أيار ١٩١٩ ، واهتدى الى الماركسية في الشتاء التالي ، وشارك في المؤتمر الاول للحزب الشيوعي الصيني في تموز ١٩٢١.

ولنعط هذه الواقعة كامل حقها. فمعظم الثوريين يجتازون مرحلة ((التدريب)) السياسي أيام الشباب ومع الشباب. والمرء أبدا مرتبط بالجيل الذي ينتمي اليه. واذا كان ماو يعطي دلالة طليعية للشبيبة مخالفا بذلك النزعة المحافظة واللهجة الابوية

التي غالبا ما نلاحظها لدى رجال الحكم والسلطة والتي يشتد عودها مع التقدم في السن ، فاننا لا نستطيع تفسير ذلك الا اذا تذكرنا ان ((تسييس)) ماو قد تم بواسطة حركة قادتها الشبيبة الطلابية.

ولقد حدد ماو افكاره عن الشباب في مقالة له اثناء الحرب ضد اليابان : ((منذ عشرين عاما وقع في الصين حدث كبير يعرف في التاريخ باسم حركة ٤ ايار التي ساهم فيها الطلاب. لقد كانت حركة بعيدة المدى. فما كان دور الشبيبة الصينية منذ ٤ أيار؟ كان دورا طليعيا بمعنى ما. وكل انسان في البلاد يقر بذلك ، فيما عدا الرجعيين العنيدين. ولكن ماذا نعني بالدور الطليعي؟ نعني به الوقوف على رأس الثورة والسير في مقدمتها. وانه ليوجد ، بين صفوف الشعب الصيني المناضل ضد الامبريالية والاقطاعية ، جسم مكون من المثقفين الشباب والطلاب. وانه لجسم كبير الحجم بما فيه الكفاية ، فبالرغم من ان الكثيرين من الشباب قد ضحوا حتى اليوم بحياتهم ، فانه يضم الان عدة ملايين. انه جيش قد ضحوا حتى اليوم بحياتهم ، فانه يضم الان عدة ملايين. انه جيش يشكل واحدة من الجبهات ، بل انه جبهة هامة في النضال ضد الامبريالية والاقطاعية. بيد ان هذا الجيش لا يكفي ، ونحن لا نستطيع قهر العدو بالاعتماد على ذلك الجيش وحده لانه ، بعد كل شيء ، ليس القوة الرئيسية. فما هي اذن القوة الرئيسية ، انها العمال والفلاحون. ومن واجب مثقفينا الشباب وطلابنا ان يختلطوا بالجماهير العمالية والفلاحية التي تمثل تسعين بالمئة من السكان وان يعبئوها وان ينظموها))[1].

وبالرغم من ان العديد من الافكار في هذا النص تتفق والمذهب العام ، فان بعضها الاخر له طابع مبتكر أصيل. فلئن كان في وسعنا ان نصف الجملة التي تبدأ بـ ((من واجب مثقفينا الشباب وطلابنا ان يختلطوا بالجماهير العمالية والفلاحية ...)) بأنها ((كلاسيكية)) ، فان نهايتها بالمقابل ((... وان يعبئوها وان ينظموها)) تستحق منا كل الاهتمام على ضوء الثورة الثقافية التي وضعت هذا الشعار موضع التطبيق العملي. ولنعِد الى الاذهان بأن هذا النص قد كتب في عام ١٩٣٩ ، وبأنه ليس

[1] - ماو تسي تونغ : ((اتجاه الشبيبة)) (أيار ١٩٣٩).

بالتالي تنظيرا ذرائعيا لتجربة عام ١٩٦٦. والوضع موضع التطبيق العملي يعني ان المسألة ليست مسألة اعلان مذهبي لفظي – كما هي الحال غالبا في الكتابات الاشتراكية – كما أنه يقدم الوسيلة الوحيدة التي تتيح لنا ان نحكم على الطابع الاصيل للعلاقة بين النظرية والممارسة وان نحلل مدى تلاؤم الماركسية مع الشروط التاريخية والاجتماعية والاقتصادية لقطر معين وان نصدر في النهاية حكم قيمة وتركيب.

وحتى نكون اكثر وضوحا نضرب على سبيل المثال موقف الحزب الشيوعي الفرنسي من الطلاب : ((ان الطلاب ، بالنظر الى منشئهم الاجتماعي ، لا يمكن الا ان يقعوا تحت تأثير الوسط الذي يعيشون فيه حتى لو تمردوا عليه))[١]. وهذا صحيح في عموميته ، ولكنه يعني أيضا ، على أساس من هذه العمومية ، ان العمال لا بد ان يقعوا تحت تأثير النظام الذي يعيشون تحت ظله حتى لو تمردوا عليه! فهل هذا معناه انهم لا يستطيعون التحرر من سيطرته؟ واذا كان المرء عاجزا عن تحطيم دائرة الجماعة التي ولد فيها ، فكيف نفسر ماركس وانجلز ولينين وتروتسكي، وأخيرا جميع الثوريين تقريبا باعتبار منشئهم الاجتماعي؟ أهم استثناء للقاعدة؟ ولكن لا بد للقاعدة ان تنعكس في هذه الحال اذا أخذنا في الحسبان نسبة الثوريين المتحدرين من البورجوازية. وأخيرا فان نص أندريو ذاك ينطوي على تزوير ضمني ، لان ما من طالب قد زعم ان الحركة الجامعية ستقوم وحدها بالثورة، دونما وعي من قبل العمال.

ويضيف أندريو : ((انهم لا يعرفون حق المعرفة الطبقة العاملة ، ورغبتهم في التحالف معها تظل مجردة او عاطفية بالرغم من صدقها. انهم هم الذين يقدمون إطارات المجتمع البورجوازي)). فلماذا اذن يصدهم القادة النقابيون عندما يأتون الى المصانع و يقفون أمام أبوابها للاستعلام من العمال؟

وعلى كل ، فان الجملة الاخيرة – الكافية الدلالة بحد ذاتها – لا تخلو من عاطفة يمكن وصفها بأنها حاقدة. ولنذكر بالمقابل نصا لماو تسي تونغ : ((ان الغالبية او

---

[١] - ر. اندريو : ((الشيوعيون والثورة)) – باريس ١٩٦٨ – ص ٨٥.

الغالبية الكبرى من أولئك الذين تكوّنوا في المدارس القديمة قادرون على الاندماج بالعمال والفلاحين والجنود. بل ينبغي ان نسجل لبعضهم اكتشافات او اختراعات. ولكن لا بد ، تحت قيادة الخط الصحيح ، من اعادة تثقيفهم على أيدي العمال والفلاحين والجنود ، حتى يتحرروا نهائيا من أيديولوجيتهم القديمة. وأمثال هؤلاء المثقفون يحسن العمال والفلاحون والجنود وقادتهم))[١].

ان الثورة الثقافية ، التي انطلقت في مرحلتها الناشطة من جامعة بكين ، قد وجدت خاتمتها المؤقتة مع عودة الطلاب الى المدارس والجامعات بعد شلل التعليم طوال عام كامل أقال أثناءه الحرس الاحمر الملاكات القديمة المحافظة من مناصبها في شتى أرجاء البلاد وقلب البنى الاقتصادية والعائلية على حد سواء. والحق ان لاعقلانية التعليم قد طرحت مشكلة اصلاحه الجذري على مستوى الجماعة القائدة وفي أوساط الطلاب والتلاميذ على حد سواء.

ولئن كان قد أمكن للحكومة ، في العديد من قطاعات الحياة الاجتماعية ، ان تحقق بعض التقدم نحو المساواة ، لا على صعيد القوانين فحسب بل على صعيد الوقائع أيضا ، فان الاصلاح كان أبطأ بكثير على مستوى التربية القومية أسواء من حيث مضمون التربية او نمطها.

ان الاهداف الاساسية المنشودة ، التي كان ماركس قد عبر عنها في ((بيان الحزب الشيوعي))، هي الغاء تقسيم العمل الى عمل فكري وعمل يدوي والزيادة التدريجية لمساهمة الطبقة البروليتارية والفلاحية في التعليم العالي. وهاتان المشكلتان هما بحق المشكلتان الرئيسيتان في التربية الماركسية ، ولقد أمكن فعلا تحقيق تقدم هائل نحو الهدف الثاني : فاكثر من خمسين بالمئة من طلاب الجامعات اليوم هم من أوساط عمالية وفلاحية. وطبيعي ان هذه النسبة ليست هي نفس نسبة العمال والفلاحين في المجتمع ، ولكنها مع ذلك هامة في حد ذاتها. أما بالنسبة الى الهدف الاول فان الثورة الثقافية تتطلع الى تجاوز البرنامج الذي اقترحه مفوض الشعب للتعليم على الشعب الروسي في عام ١٩١٧ :

---

[١] - ماو تسي تونغ : ((حول اعادة تثقيف المثقفين)).

– النضال من أجل القضاء الكامل في أقصر أجل ممكن على الامية بواسطة التعليم الالزامي ، العام والمجاني.

– تكوين مربين قادرين على انجاز هذه المهمة.

– تنظيم المدرسة الموحدة ، العلمانية كليا.

– رصد ميزانية هامة للتربية القومية.

– اتخاذ وتطبيق تدابير هامة ، ثقافية وتربوية ، بالنسبة الى الراشدين.

– لامركزية التربية القومية.

– اشراك المربين في المناقشات المفتوحة حول جميع الاجراءات المتعلقة بالتربية القومية))[١].

ان هذا البرنامج يبدو في نظر الصينيين ذا طابع انساني واشتراكي – ديموقراطي بالاحرى ، لا برنامجا ماركسيا ، وان كان فيه تجديد كبير بالنسبة الى روسيا ١٩١٧. وبالرغم من ان لينين ناضل في سبيل تسييس المدرسة ودمقرطتها ، فان ذلك البرنامج هو الذي ظل ساري المفعول. بل انه عاد بين ١٩٤٢ و ١٩٥٠ الى تبني بعض التقاليد القيصرية القديمة مثل توزيع الميداليات الذهبية على التلاميذ المتفوقين ، واعادة العمل بالشهادة الثانوية ، والفصل بين الذكور والاناث (وهو موجود أيضا في الصين) ، وبوجه خاص اعادة العمل بالتعليم المأجور في المدارس العالية (وقد أُلغيَ من جديد فيما بعد).

ان الاتحاد السوفياتي لا يطرح على نفسه ، حتى يومنا هذا ، مشكلة ((بلترة)) التعليم ، أي جعله بروليتاريا. وبالمقابل فان تشديد الصين للّهجة على هذه النقطة يبدو وكأنه الانطلاق الاساسية لكل اصلاح.

لقد تمت الثورة الثقافية في المضمار الجامعي على الصعيد السياسي بادىء ذي بدء قبل ان تمتد الى المظاهر التعليمية والتربوية. فقد كان من الضروري البدء بتحليل وظيفة الجامعة في المجتمع، ومعرفة من ذا الذي يتولى التوجيه في مؤسساتها ، ومن أجل تكوين أي نوع من الناس، قبل ان يعاد بناء نموذج من نمط

---

[١] - نقلا عن ا. ون. لازاريفيتش : ((المدرسة السوفياتية)) – باريس ١٩٥٤ – ص ١٨.

جديد. ولنمعن النظر بعض الشيء في هذه الانتقادات التي انطوت عليها هذه الرسالة التي وجهها عدد من الطالبات الى ماو تسي تونغ : ((ان عددا لا بأس به من الطلاب قد جرى تلقينه وتأطيره مذهبيا بأفكار رجعية من افراز الطبقات المُستغِلة مثل "مهنة الادب هي وحدها المهنة المشرفة" ، "اكتساب الشهرة" ، "المستقبل للاختصاصيين" ، "شقوا طريقكم" الخ. والنظام الحالي للامتحانات يشجع ترويج مثل هذه الافكار . . . ان الكثير من المدارس تهتم فقط بقبول نسبة كبيرة من تلاميذها في المدارس العليا ، وهكذا يصبح العديد منها مدارس ((اختصاصية)) ، مدارس ((مغلقة)) لا تقبل غير ((الطلاب المبرزين)). لقد فتحت المدارس أبوابها على مصاريعها أمام أولئك الذين لا يولون اهتماما الا للكتب ولا يعيرون بالا البتة للسياسة ، ولكنها أغلقتها في وجه عدد كبير من الاطفال المبرزين للعمال والفلاحين والملاكات الثورية)).

ان الاهمية المعلقة على التربية الاخلاقية والايديولوجية واضحة جلية في هذه الرسالة. فالمؤسسات المدرسية التي تريد ان تكون في خدمة الشعب في الازمنة الثورية لا بد ان تعمل على اضفاء طابع سياسي وأيديولوجي على قسم كبير من الدروس على حساب مواد أقل أهمية ، وعلى سبيل المثال اللغة الاجنبية الثانية. ثم يأتي بعد ذلك الغاء نظام الامتحانات المقتبس عن النموذج الروسي الذي كان يساعد على ظهور الروح النخبوية بنتيجة الاهمية الكبيرة المعلقة على الفرز وعلى التخصص الضيق ويقيم العقبات في وجه انتساب أبناء العمال والفلاحين الى المدارس. ومن التدابير التي اتخذت لزيادة عدد التلاميذ تقليص عدد السنوات الدراسية الالزامية في المراحل الابتدائية والثانوية والنهائية. وصحيح ان هذا التقليص يؤدي الى انخفاض مستوى الدراسة ، ولكن الهدف الاساسي في تلك البلاد المترامية الاطراف هو توفير التعليم الكمي. وبهذا المعنى فان تخفيض فترة الدراسة بالنسبة الى أقلية يسمح على المدى الطويل برفع المستوى العام للسكان قاطبة. وينجم عن هذا : ١ – تحقيق المزيد من المساواة بين السكان على الصعيد التعليمي (مظهر انساني النزعة). ٢ – توفير الحد الادنى من التعليم الضروري لتحديث

الزراعة والصناعة (مظهر اقتصادي). ٣ – تفاعل كلا المظهرين. ونلاحظ بهذا الصدد اجماعا بين المراقبين والخبراء في الشؤون الصينية على نجاح المجهود المبذول في هذا المضمار وعلى ايجابية نتائجه. ويقول ادغار سنو بهذا الخصوص: ((بعد ان زرت العديد من المدارس الابتدائية والمتوسطة والعالية توصلت الى الاستنتاج بأن ما من أمة نجحت قط في مثل هذه الفترة الزمنية الوجيزة في تحرير الجماهير الشعبية من الامية وفي تلقين ملايين البشر المعلومات التقنية الصناعية والعلمية . . . ولقد فرضت من الآن في جميع الميادين الدراسية المتقدمة مستويات مماثلة لتلك التي في روسيا والغرب))[١]. لقد كتب سنو هذا في عام ١٩٦٠ ، أي بعد أحد عشر عاما لا اكثر من الاستيلاء على السلطة في قطر من اكثر أقطار المعمورة تخلفا ، شبيه بروسيا ١٩١٧ ، ولكن اكثر تأخرا في عام ١٩٤٩ من الهند اليوم.

ان ضمان التحويل النوعي للمجتمع يتطلب ان يعطى الاعتبار الاول للارتباط بين النظرية والممارسة ، ذلك الارتباط الذي هو مفتاح الماركسية. والشيوعيون الصينيون ، في مجهودهم الجهيد للتقدم بقضية الاشتراكية ، يحاولون تحقيق المبادىء الاساسية للنظرية الماركسية التي لها في نظرهم قيمة القوانين الموضوعية. وبديهي ان مثل هذا التصور يرسم خطا فاصلا مميزا بينهم وبين معظم الاحزاب الاشتراكية الاخرى في العالم ، تلك الاحزاب التي لم تتجاوز مرحلة الدكتاتورية الممزوجة بمبادىء انسانية النزعة ، منسية في الواقع[٢].

ان المهمات المطروحة على حكومة اشتراكية في مرحلة أولى هي مهمات ذات طابع اقتصادي وانساني النزعة. ولا مراء في ان تأميم المشاريع والتخطيط والقضاء على الامية في البلدان غير المتطورة هي المهمات العاجلة الاولى ، ولكنها ليست مهمات ذات طابع ماركسي. ولعل ماركس استشعر هذا الخطر عندما كان يدعو الى الثورة في البلدان المتقدمة صناعيا وحدها. ذلك ان ضرورة تكريس القوى

---

[١] - ا. سنو : ((الصين تسير)) – ص ١٦٨.

[٢] - يبدو ان هناك استثناء في كوبا. بيد انه من السابق لاوانه اصدار حكم نهائي لان المشكلات الاقتصادية ما تزال لها الاولوية.

جميعها تقريبا لتطوير الاقتصاد بسرعة – لتوفير حد أدنى من التغذية للسكان من جهة أولى ، ولتقليص حدة الفروق من جهة ثانية بين الدول الرأسمالية العالية الاستهلاك والدول المتأخرة ضمانا للاستقلال الاقتصادي – تشتت القوى الايديولوجية. وعلى هذا، وما دامت المساواة الفعلية غير ممكنة التحقيق الا بصعوبة بالغة على المدى القصير ، وذلك لاسباب مادية قاهرة ، وما دامت تفاوتات اجتماعية جديدة تظهر وترافق بالضرورة عملية التطور ، وما دامت تفاوتات اجتماعية جديدة تظهر وترافق بالضرورة عملية التطور ، وما دام الوعي الطبقي لا يتجسد ماديا الا في الفعل الثوري ، فان الثورة لا بد ان تكون متصلة ودائمة ، او ثقافية اذا شئنا[١].

ومن هذا المنظور نستطيع ان نفهم علامات الاستفهام التي وضعتها الثورة الثقافية حول أساتذة الجامعات وعمدها ، تلافيا لعودة الجامعة الى سابق وظيفتها البورجوازية – تكوين النخب – وتوكيدا لمبدأ وحدة النظرية والممارسة على صعيد صراع الطبقات والنضال من أجل الانتاج والتجريب العلمي على حد سواء. ولقد كانت التظاهرة الاولى لهذا الوجه من الثورة الثقافية مشاركة الطلاب في الاعمال اليدوية في الكومونات والصناعة. وصحيح ان السنة الجامعية كانت تشتمل أصلا على بضعة أشهر من الاعمال اليدوية ، ولكن السعي وراء ارتباط حقيقي بين العمال والطلاب استوجب شكلا جديدا من الحياة الجامعية ، باعتبار ان مساهمة الطلاب في الاعمال الريفية لا تبدل شيئا من جوهر تلك المؤسسة المسماة بالجامعة ما دام الرباط المباشر منعدما. وعديدة هي البرامج التجريبية الهادفة الى الحيلولة دون تشكيل الطلاب ثم الملاكات لفئة اجتماعية صاحبة امتيازات. وعلى سبيل المثال : ((. . . أرسل اكثر من مئة شخص من جامعة تونغتسي في شانغهاي في

---

[١] - ان مفهوم تروتسكي عن ((الثورة الدائمة)) ليس له البتة هذا المعنى. فلقد أنشأ تروتسكي هذا المفهوم ليبرهن على ان العصر الممتد بين ١٩٠٥ و ١٩١٧ يؤلف ثورة واحدة متصلة ، لا ظاهرتين متمايزتين كما يزعم ستالين: ١٩٠٥ ، الثورة البورجوازية و ١٩١٧ ، الثورة البروليتارية. ولم يعمم تروتسكي هذا المفهوم على العصر التالي لعام ١٩١٧ وانتصار الشيوعية.

شكل فرق لاجراء تحقيقات ودراسات في الارياف وفي ورشات البناء في آب وأيلول من هذا العام. وعلى أساس أبحاثهم رفع اقتراح جريء لاعادة تنظيم جامعة تونغتسي ولتحويلها الى مؤسسة جديدة ، الى كومونة. فلسوف تتألف من جامعة ومن شعبة بناء ومن مركز أبحاث ، ولسوف تكون لها بالتالي وظيفة مثلثة : التعليم والبحث والبناء))[1].

ان هذه التجارب تدلل على رغبة عنيدة في ازالة ذلك النمط القديم من الطلاب المنفصلين عن الجماهير ، وكذلك ، وعلى المدى الطويل ازالة ذلك النمط من العمال اليدويين الخلص ، وهذا عن طريق التقريب بينهم. وبديهي ان الثورة الثقافية لم تنجز هذا كله ، ولكنها عامل تسريع في تحقيقه. ولقد كانت المشاريع ترسل بالاصل على نفقتها عمالا الى الجامعات او تنشىء معاهد في مصانعها ، يشكل فيها زمن العمل وزمن الدراسة كلا واحدا.

ولا مراء في أن في الصين نزعة ارادية متطرفة ومترافقة في غالب الاحيان بشيء من التبسيط للنظرية الماركسية (فتلك الحركة المتمردة على التقاليد قد انكرت تقريبا جملة التراث الثقافي عندما فسرت البنية الفوقية على انها مجرد انعكاس للبنية التحتية) ، ولكن باسم أي نظرية مجردة تدان تجارب الصين المثمرة ، نحن نعلم ان هناك من سينحي علينا باللائمة ، اذ نقول ما نقوله ، لاننا لم ننتقد النموذج الصيني او بعض تفاصيله على الاقل ، وانني لأرى من الان ابتسامة التشكيك الساخرة بصدد الكومونات الشعبية التي عرفت فشلا ذريعا على الصعيد التقني. ولكن فشل بالنسبة الى أي شيء؟ أ بالنسبة الى توقعات ماو تسي تونغ؟ فلئن كان قد تكلم عن نمو بمعدل مئتين بالمئة ، ثم جاءت النتيجة بمعدل عشرة بالمئة ، فهل في وسعنا الكلام عن فشل اذا كان قطر مشابه ، الهند على سبيل المثال ، لم يعرف غير معدل ثلاثة بالمئة من النمو؟ وما دام المهم بالنسبة الى الصين تكوين الافراد ، أفلم يكن الدرس المستخلص من فشل الكومونات الشعبية ايجابيا؟ اننا لنحبذ ألا ننهال بالتجريح على المثال الصيني ، والا نستخدم بوجه خاص النموذج الغربي للفرد

[1] - ((دفاتر اليسار البروليتاري)) – العدد الاول – باريس ١٩٦٩ – ص ٨٢.

والمجتمع كمخطط مسبق لتقييم تجربة الصين الشعبية. والواقع ان معظم الانتقادات تصاغ على هذا الغرار. ولقد اقامت الانتروبولوجيا البرهان على خطأ مثل هذا التصور العالمي النزعة. والابحاث السوسيولوجية عن الصين المعاصرة قليلة للغاية بحيث يتوجب علينا ان نستبعد كل تقييم ينطلق من معطيات فردية واجتماعية مسبقة.

حول مفهوم ((التناقض))
في الماركسية الماوية:

ان النظرية الخالصة التي تعمل على مستوى المفاهيم لا تحتمل مكانا واسعا في مؤلفات ماو تسي تونغ ، وذلك لضرورة التوفيق بين الحاجة الى نصوص سياسية عملية (كتب معظمها إبان الحرب الأهلية) وبين التصور الفلسفي الصيني للعلاقة بين الافكار وتحقيقها. والحال انه لمن الصعوبة بمكان عزل النظرية عن سياقها السياسي الذرائعي ، وذلك بمقدار ما ان الضرورة السياسية المباشرة هي التي تملي على النظرية التلاؤم مع الواقع. ومن الممكن ان ينجم عن ذلك تشويه ، الامر الذي يبطل سلفا صحة كل مقارنة مجردة بين مفاهيم لينين ومفاهيم الفلاسفة الرسميين في روسيا ومفاهيم ماو تسي تونغ.

ان اهمية نصوص ماو ((النظرية)) او ((الفلسفة)) ليست في حد ذاتها ، وفي جوهرها ، من طبيعة نظرية او فلسفية. اعني بذلك انها لا تثير ولا تتطلع الى ان تثير اهتمام الفيلسوف من حيث انه فيلسوف بالمعنى المتعارف عليه في الغرب. ففي نظر الفيلسوف يمكن للكثير من النصوص المذكورة ههنا ان تبدو تبسيطية بل بدائية، شأنها اصلا شأن العديد من الافكار التي نصادفها في ((دفاتر الجدل)) للينين او ((جدل الطبيعة)) لأنجلز. وهذه مسألة ليست بذات اهمية على كل الاحوال ، اذا اخذنا بعين الاعتبار ان ماو لم يكن يرمي الى بناء ((فلسفة نظرية)) جديدة ، بل كان يرمي الى بناء علم تربية بواسطة امثلة وطرائق جديدة مستمدة من الممارسة السياسية والاجتماعية. انه لم يزعم انه يفكر العالم او يعين تفكيره ، ولا انه يكتشف

قوانينه (فهذه مهمة العلم ، والعلم ليس ماركسيا تماما كما انه ليس بورجوازيا) ، وانما كان هدفه تغيير العالم ، وبوجه خاص تغيير الصورة (الايديولوجية) التي نكونها عنه. وبعبارة اخرى : ايجاد رؤية للعالم موائمة لمتطلبات العمل الثوري في الصين.

وطبيعي ان مثل هذا الموقف يحمل بين طياته خطر صرف اهتمام المثقفين الصينيين عن البحث الفلسفي الخاص ، ولكن المسألة الاساسية هي معرفة ما اذا كانت لا تواجههم ، في الشروط الراهنة ، مهمات اعجل واكثر الحاحا.

اننا سنحصر اهتمامنا بمقال ((حول التناقض)) الذي كتبه ماو في عام ١٩٣٧ بعد ابتداء الحرب اليابانية – الصينية ، وبعد ان كان قد حذر قبل بضعة سنوات من خطر المعرفة الجردة الخالصة. ((الانطلاق من المعرفة الحسية للارتفاع على نحو فعال الى المعرفة العقلانية لتوجيه الممارسة الثورية على نحو فعال من اجل تحويل العالم الذاتي والموضوعي. الممارسة ، والمعرفة ، ثم من جديد الممارسة والمعرفة.. وهذا الشكل الدوري لا نهاية له ، وفي كل دورة يرتفع مضمون الممارسة والمعرفة الى مستوى أعلى))[١].

ان الحقيقية والمعرفة تتأتيان اذن من التطور والتحولات. والمعرفة تعني التحويل، والعكس بالعكس. وهذا يعني في خاتمة المطاف اننا لا نستطيع ان نعرف الا ما نحوله : ((اذا كنا نريد ان نعرف بنية الذرة وخواصها ، فلا بد ان نقوم بتجارب فيزيائية وكيميائية ، وان نغير حالة الذرة))[٢] الامر الذي يترتب عليه ان كل شيء قابل للتحويل ، وان كل شيء دائم التطور. وبعبارة اخرى : ان كل شيء صيرورة ، كل شيء انتاج. وعندما نتابع هذه المحاكمة ونطرح السؤال التالي : ما العلة الاساسية للتطور؟ نكون قد اصبحنا في موضع القلب من مفهوم التناقض. فالقانون الاول للجدل المادي هو قانون التناقض الملازم للأشياء والظاهرات ، وحله يعني تغيير العالم. وحل التناقض بين الطبقة البروليتارية والطبقة البورجوازية انما

---

[١] - ((حول الممارسة)) في ((المؤلفات المختارة)) – المجلد ١ – ص ٣٦٤.

[٢] - المصدر نفسه – ص ٣٥٤.

يتم في العمل ، في الحركة ، أي في الثورة. بيد ان هذه الفكرة ليست جديدة. فهي الخط الهادي لكل الفكر الماركسي.

وان كان يجوز لنا الكلام عن تجديد ، فان علينا ان نبحث عنه في توسيع ماو تسي تونغ لشمولية المتناقضات المعترف بها في جدل العالم الطبيعي الى مضمار الحركة الاجتماعية والتاريخية ، وبوجه خاص الى مضمار الممارسة السياسية الواعية والمنظمة. فما كان لينين ولا خلفاؤه يقرون بامكانية وجود تناقضات داخل المجتمع الاشتراكي. اما ماو تسي تونغ فقد قال في عام ١٩٥٧ تطبيقا لنظريته : ((ان ما نسميه بالتناقضات داخل صفوف الشعب ، في الشروط القائمة عندنا في الساعة الراهنة ، يشمل التناقضات بين الطبقة العاملة ، والتناقضات بين الطبقة الفلاحية ، والتناقضات بين المثقفين ، والتناقضات بين الطبقة العاملة والطبقة الفلاحية ، والتناقضات بين العمال والفلاحين من جهة وبين المثقفين من الجهة الثانية الخ. ان حكومتنا الشعبية حكومة تمثل حقا مصالح الشعب ، حكومة تخدم حقا الشعب ، ومع ذلك فان هناك بعض التناقضات بين هذه الحكومة وبين الجماهير الشعبية. ومن بينها التناقضات بين مصالح الدولة والمصالح الجماعية والمصالح الفردية ، بين الديموقراطية والمركزية ، بين اولئك الذين يقودون واولئك الذين يقادون ، بين الممارسات البيروقراطية لبعض موظفي الدولة وبين الجماهير)).

ويستشهد ماو تسي تونغ في نصه عن التناقض بلينين ليقيم البرهان على ان شمولية التناقضات هي ((قانون موضوعي)) : ((ان تعريف لينين لقانون وحدة المتناقضات يتضمن الاعتراف بالميول المتناقضة ، المتعارضة ، المتنافية في جميع ظاهرات الطبيعة وصيروراتها))[1]. وليست الشمولية هي الخاصة الوحيدة للتناقضات ، فهناك ايضا خواص اخرى يتوجب تحديدها ، مثل وحدة المتناقضات ، والعلاقة بين التناقضات التناحرية والتناقضات غير التناحرية.

اما فيما يتعلق بوحدة المتناقضات فان ماو تسي تونغ لا يخرج على النموذج الماركسي : فمن البديهي ان المظاهر المتناقضة لا يمكن ان توجد دونما ترابط فيما

---

[1] - ((حول التناقض)) – ((المؤلفات المختارة)) – المجلد ١ – ص ٣٧٢.

بينها. وانعزال احد المظاهر يعني تلاشي المظهر الآخر. وينتهي ماو تسي تونغ الى التوحيد في الهوية بين التناقضات او بالأحرى الى الاعتراف بالواحد عن طريق الآخر ، من دون ان يعني هذا انه ليس لها وجود موضوعي. والقائمة التي يمكننا الاستشهاد بها طويلة بدءا من ((بلا حياة لا موت ، وبلا موت لا حياة)) الى ((بدون بورجوازية لا بروليتاريا ، وبدون بروليتاريا لا بورجوازية)). و ((هذا ينطبق على جميع المتناقضات. ففي شروط محددة يتعارض كل تناقض مع الآخر من جهة اولى، ومن الجهة الثانية يترابطان .. وهذا ما يسمى بوحدة الهوية. وجميع المظاهر المتناقضة تملك ، في شروط محددة ، صفة انعدام وحدة الهوية ، ولهذا تسمى بالمتناقضات. ولكن يوجد ايضا بينها وحدة هوية ، ولهذا تكون مترابطة))[١].

ان ماو تسي تونغ لا ينبذ اذن مفهوم وحدة الهوية ، بل هو على العكس بحاجة اليه ليفسر كيف ان البروليتاريا تتحول من طبقة مسودة الى طبقة سائدة. وهو يتساءل : ((اذا لم يكن بين هذه المتناقضات لا صلة ولا وحدة هوية في شروط محددة ، فكيف يمكن ان تحدث تلك التغيرات؟))[٢]. ولا مراء في ان ماو يلجأ هنا الى مفهوم مبسط بعض الشيء عن الجدل ، لان الطبقات لا تتحدد على اساس كونها سائدة او مسودة ، وانما على اساس جملة من البنى التي لا تتحول. وعلى سبيل المثال ، ان البروليتاريا ، الطبقة المسودة التي اصبحت سائدة ، لا تستغل نقيضتها ، بل تسعى على العكس الى امتصاصها وازالتها.

ويتجاوز ماو تسي تونغ الجدل الماركسي الكلاسيكي عندما يعطي التناقضات تعريفا اكثر تفصيلا :

ان كل تطور معقد ينطوي على عدد من التناقضات التي لا بد ان يكون احدها رئيسيا وحاسما بالضرورة لانه هو الذي يحدد وجود التناقضات الاخرى وتطورها. فاذا ما اخذنا الواقع الرأسمالي على سبيل المثال وجدنا انفسنا امام اللوحة التالية :

---

[١] - المصدر نفسه – ص ٣٩٨.
[٢] - المصدر نفسه ص ٣٩٨ – ٣٩٩.

التناقص الرئيسي ← التناقض الثانوي

البروليتاريا
البورجوازية

البروليتاريا – البورجوازية الصغيرة
الطبقة الفلاحية
الاحتكارية – الليبيرالية
الامبريالية – الاستعمارية ، الخ

ان التناقض الرئيسي ، بالموقع المهيمن الذي يشغله ، يحدد الظاهرات من غير ان يجعل حركتها متساوية. والمظاهر المتناقضة تتطور على نحو متفاوت وغير متساو. وعلى هذا فليس هناك تناقض رئيسي او ثانوي فحسب ، ولكن كل تناقض يشتمل في ذاته على مظاهر رئيسية وثانوية.

((بيد ان هذا الوضع ليس سكونيا ، فالمظهر الرئيسي والمظهر الثانوي للتناقض يحل كل منهما محل الآخر ، ومن ثم يتغير طابع الظاهرات. فاذا كان المظهر الرئيسي هو أ ، والمظهر الثانوي هو ب ، في صيرورة محددة او في مرحلة محددة من تطور التناقض ، فان الأدوار في مرحلة اخرى وفي صيرورة اخرى للتطور وتنعكس ، وهذا التبدل رهن بدرجة النمو او الأفول التي بلغتها قوة كل مظهر في نضاله ضد المظهر الآخر عبر تطور الظاهرة))[١]. وهذا الانقلاب الذي يغير نوعية الظاهرات يدحض التفسير الميكانيكي النزعة للمذهب المادي ، ذلك التفسير الذي يزعم ، على سبيل المثال ، ان البنية الفوقية تابعة في كل مكان وزمان للبنية التحتية، او بعبارة اخرى ، ان السياسة والثقافة والايديولوجيا هي اشبه بسطح فوق البيت الاقتصادي. ويعبر ماو تسي تونغ عن صيرورة واقعية عندما يقول: ((عندما

---

[١] - المصدر نفسه – ص ٣٩٢.

تعرقل البنية الفوقية تطور القاعدة الاقتصادية تصبح التحولات السياسية والثقافية هي الشيء الرئيسي والحاسم))[1] والمهم ههنا هو ان سياسة بكاملها قد بنيت على هذا التوكيد : سياسة الثورة الثقافية ، سياسة ضرورة تغيير الانسان اولا (او في الوقت نفسه) لبناء مجتمع اشتراكي ، سياسة معارضة النموذج الروسي المدعمة بالحجة القائلة ان التناقضات تظل قائمة في المجتمع الاشتراكي. وخلاصة القول ان ماو تسي تونغ ينقض فكرة ان الاشتراكية ليست بحاجة الى تغير نوعي وان القفزة من المرحلة الاشتراكية الى المرحلة الشيوعية تتم عن طريق ثورة تقنية كما يزعم بعض المنظرين الرسميين. ان كل تغير نوعي ثورة.

لقد كان ماو تسي تونغ ، قبل عشر سنوات من الثورة الثقافية ، قد تحدث عن امكانيتها : ((اذا كانت قد وقعت اضطرابات ، نتيجة لعدم احساننا القيام بعملنا .. فان علينا ان نستفيد من الاضطرابات كوسيلة استثنائية لتحسين عملنا .. ولعلها تساعدنا على العكس على قهر الروح البيروقراطية))[2]. وتلك الثورة ، التي لا نعرف بعد مدى اتساعها ، تأتي ضمن اطار الجدل الماوي. وانه ليندر ان نصادف مثل هذا الاستمرار على مر الزمن ، وبين الفكر السياسي العام والأستراتيجية الظرفية في آن واحد. وحتى اذا كانت الثورة الثقافية قد حدثت تلبية لأوضاع جديدة ناجمة عن تطور المجتمع الصيني ، فانها تتفق تمام الاتفاق مع الأطروحات الأساسية لفكر ماو السياسي ولرؤيته للعالم. وهذا وحده كاف ليجعلنا ندرك مدى ابتعادنا عن الذرائعية ، بله الانتهازية ، التي وسمت سياسة ستالين الآسيوية منذ اربعين عاما.

*

ما هو في خاتمة المطاف طابع المجتمع الصيني الراهن ؟ انه سؤال يفرض نفسه في الختام ، وذو علاقة مباشرة بضرورة حكم القيمة. لكننا لن نفعل شيئا من هذا

---

[1] - المصدر نفسه – ص ٣٩٥.

[2] - ((في الأسلوب الصحيح لحل التناقضات ...)).

خوفا من ان نحبس في بضع كلمات وجمل تعقيدا يتجاوز معرفتنا. وبالفعل ماذا نكسب اذا كتبنا على سبيل المثال ، كما يفعل شرام، وهو مرجع في هذا الموضوع ، ان ((صين القرن العشرين هي مزيج غريب من عصر النهضة الاوروبي وعصر التأليل)) ، ما دامت الصين لم تعرف العصر الاول ولما تعرف بعد العصر الثاني؟ وأخشى ما نخشاه ان نخسر الواقع في بحثنا عن مصدره ومنشئه.

وما دامت الفلسفة مطالبة بأن تتحول الى واقع طبقا لاطروحة ماركس الحادية عشرة عن فيورباخ، فبأي حق نحاكم الماركسية الماوية من منطلقات ((النزعة الارادية)) أو ((نزعة المغامرة))؟ ان الاورثوذكسية (حتى لو قصدنا بها نظرية ماركس) لهي سمة مميزة – لنقل ذلك بصراحة – لموقف سياسي رجعي. والمهم بعد كل شيء هو الاتجاه الذي يتم به الابتعاد عن مذهب قائم : أالى الامام أم الى الوراء؟

ان الماوية هي في جوهرها ممارسة لا تملك فيها النصوص نصف النظرية غير قيمة تربوية وسياسية مرتبطة بالواقع الصيني وتاريخه ، ممارسة متحددة تحددا عميقا في شكلها بتراثها الثقافي واللغوي. ومساهمة ماو ليست في هذه الحالة مذهبا جديدا ، مختلفا عن مذهب ماركس وانجلز ، وانما تكييف ذكي لمشروع هذين الاخيرين مع الشروط النوعية الخاصة بقطر معين بالاعتماد على منهج مناسب ، مرجعه الاول والاخير تصور عن العالم يسمي بالمادية الجدلية. هذا المنهج هو الجدل الماركسي. وبالرغم من ان بعض تلاميذ ماركس قد جنحوا الى رفع هذا المنهج الى مستوى العلم الموضوعي ، فانه يظل في المقام الاول أنسب وسيلة لتحديد سلسلة الاختيارات الاستراتيجية او التكتيكية بهدف التحويل الاجتماعي.

وهنا يعترضنا التناقض التالي : ان الماوية – بوصفها أيديولوجيا او نظرية سياسية – لا وجود لها الا بمقدار ما تريد نفسها منهجا علميا اكثر نجعا وفعالية من منهج معظم البلدان الاشتراكية الاخرى. وهذا ما يضعنا وجها لوجه أمام نقطة الضعف الاساسية التي تشكو منها في التحليل الاخير ممارسة ماو تسي تونغ : فهي تقوم الى حد كبير على حدس العبقرية السياسية الذي تدلل عليه سياسته، ولكن هذه

النزعة العملية اليومية ليست مرفوعة الى مستوى تنظير يتجاوز اطار حاجة التحويل الآني والمباشر. والحق ان التجربة الغنية لمشكلات الاشتراكية الصينية التي أشرنا الى بعض نقاطها الهامة جديرة بأن تنبثق عنها نظرية تتجاوز الملخصات السياسية. وممارسة ماو تسي تونغ تحمل بين ثناياها بذرة هذه النظرية ، ولكننا لا نستطيع ان نستخلص منها نظرية للبنية الاجتماعية ما دامت مرتبطة بمسعى سياسي لا بالمعرفة الموضوعية. وبهذا المعنى فانها تغني ذلك المظهر من الماركسية المتمثل في التطبيق السياسي اكثر مما تغني ذلك المظهر من الماركسية المتمثل في التطبيق السياسي اكثر مما تغني نظرية المجتمع. وما دام اتجاهها هذا قائما ، فانها تخسر الكثير من قابليتها التصدير. فاما ان نطلق اسم الماوية على العمل الجاري في الصين والتابع لبنية هذا القطر لاسباب سبق ان عرضناها ، واما ان نأخذ من الماوية المنهج وحده ، وهو ليس الا المنهج الجدلي الذي تكف معه الماركسية عن ان تكون هي الماركسية وليس المنهج الخاص بالماوية وحدها. ووحدة الانشاء الماركسي الذي يجمع بين النظرية والممارسة والذي ينبغي ان يتطور باستمرار بحكم هذا التفاعل ، تكاد تكون مهملة ومتروكة جانبا لصالح الممارسة ، وان كان حدس الزعيم وواقعيته يعوضان عنها بعض الشيء. ولكن ألا يفتح ماو بذلك الباب على مصراعيه أمام خطر الافتقار الى الى ند له بعد وفاته ، على نحو ما حدث بعد غياب لينين؟

من كتاب

((أيديولوجيو اليسار

الجديد وأيديولوجياته))

١٩٧٠

ماو تسي تونج :

نصوص غير متداولة

عصر الصين الذهبي ^

... ما أعظم مسألة في العالم؟ أعظم مسألة أن يأكل المرء متى جاع. ما أعظم قوة؟ أعظم قوة هي قوة اتحاد الجماهير الشعبية. ما الذي ينبغي الا نخشاه؟ ينبغي ألا نخشى السماء. ينبغي ألا نخشى الاشباح. ينبغي ألا نخشى الاموات. ينبغي ألا نخشى أصحاب النزعة العسكرية. ينبغي ألا نخشى الرأسماليين ...

لقد أزفت الساعة! ان المد العالمي الكبير يرتفع بقوة أعظم أيضا ... ولسوف يحيا من يتبعه ، ولسوف يهلك من يعارضه ...

لقد شرعت الجماهير الشعبية في العديد من البلدان ، بسبب مرارة حياتها ، بالقيام على نحو مباغت بشتى أنواع الاعمال في أعقاب الحرب العالمية الاولى. ففي روسيا تمت الاطاحة بالارستقراطيين وطُرد الرأسماليون ... ان جيش العلم الاحمر يجتاح الشرق و الغرب ، مكنسا الكثيرين من الاعداء ... ان العالم بأسره يهتز ... وفي الصين اندلعت ((حركة ٤ أيار)) من السور الكبير الى البحر. وتقدمت رايتها نحو الجنوب ، عابرة النهر الاصفر ومدركة اليانغتسي. ومن كانتون الى هانكو مُثِل العديد من المآسي الحية. ومن بحيرة دونغ تينغ الى نهر مين يرتفع المد. الارض والسماء تستيقظان ، والخونة والاشرار يولون الادبار. أجل! نحن نعرف ذلك! لقد استيقظنا! العالم ملكنا ، البلاد ملكنا ، المجتمع ملكنا! واذا لم تتكلم ، فمن سيتكلم؟ واذا لم نعمل ، فمن سيعمل؟ واذا لم نشرع بالنضال ، فمن سيفعل ذلك؟ ...

وهذا ليس في الحقيقة لاننا لا نملك قوة. ومصدر عجزنا يكمن في نقص تدريبنا. فطوال آلاف السنين عاش مئات ملايين الشعب الصيني حياة عبيد. ولم يكن هناك سوى شخص واحد غير عبد: الامبراطور (ربما كان ينبغي ان نقول انه كان هو

ايضا عبد ((السماء))). وعندما كان الامبراطور يتولى كل شيء بنفسه ، ما كنا قادرين على ان نتدرب...

ان علينا ان نعمل جهد طاقتنا حتى نتقدم الى الامام باتحاد الجماهيرالشعبية العظيم الذي يفرض نفسه بصورة ملحة ... ان شعبنا الصيني يملك قوة ذاتية هائلة. وكلما كان الاضطهاد أعمق كانت مقاومته أعظم. وما تراكم منذ أقدم العهود لا يمكن ان يتأخر حتى ينفجر. من الواجب ان يتحقق الاتحاد الكبير للشعب الصيني. ينبغي ان نبذل الجهود ، ينبغي ان نتقدم الى الامام بكل قوانا. ان عصرنا الذهبي ، عصر عظمتنا واشراقنا ، لفي انتظارنا!

مقتطفات من البيان الذي كتبه ماو تسي تونغ للعدد الاول من مجلته ((نقد هونان)) ومن مقاله ((الاتحاد العظيم للجماهير الشعبية)) الذي كتبه للاعداد ٢–٤ من المجلة نفسها في تموز– آب ١٩١٩.

**

الاتحاد العظيم للجماهير الشعبية ٨

ان انحطاط الدولة وآلام الانسانية والظلمات الاجتماعية قد أدركتجميعها نقطة الاوج. ومن بين الوسائل القمينة باصلاح الوضع وبايجاد العلاج له ، يمثل التعليم والتصنيع و الجهود الحازمة والخلق والهدم (هدم ما هو بال) والبناء وسائل لا بأس بها ، ولكن هناك وسيلة جوهرية اكثر : الاتحاد الكبير للجماهير الشعبية.

لو نظرنا الى التاريخ للاحظنا ان جميع الحركات التي حدثت عبر التاريخ ، أيا كان نوعها ، قد اعتمدت جميعها بلا استثناء في منشئها على اتحاد عدد معين من الناس. وبديهي ان الحركة اذا كانت اكبر تتطلب اتحادا اكبر ، واكبر الحركات تتطلب اكبر الاتحادات. وجميع الاتحادات التي من هذا النوع انما تظهر بوجه خاص في عصور الاصلاح او المقاومة ...

وما يقرر النصر او الهزيمة انما هو متانة الاتحاد او ضعفه ، والطابع الجديد او الهرم ، الصحيح او الخاطىء ، للايديولوجيا التي يقوم عليها ...

عندما انتصب في فرنسا الاتحاد الكبير للجماهير الشعبية في وجه الاتحاد الكبير لانصار الملكية ، وانتزع نصر ((الاصلاح السياسي)) ، حذا عدد من البلدان حذو هذا المثال وشرع بعدد من ((الاصلاحات السياسية)). ومنذ ان انتصب في روسيا في العام الماضي الاتحاد الكبير للجماهير الشعبية في وجه الاتحاد الكبير للارستقراطيين والاتحاد الكبير للرأسماليين ، وانتزاع نصر ((الاصلاح الاجتماعي)) ، حذا عدد من البلدان مثل المجر والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا حذو هذا المثال ، وشرع بعدد من الاصلاحات الاجتماعية. وبالرغم من ان هذا النصر لم يكتمل بعد ، فانه قابل بالتأكيد لان يكتمل ، وفي وسعنا أيضا ان نتصور انه سيمتد الى العالم كله.

كيف يمكن لاتحاد الجماهير الشعبية الكبير ان يكون رائعا على هذا النحو؟ لان الجماهير الشعبية في قطر من الاقطار اكثر عددا بما لا يحصى من الارستقراطيين والرأسماليين وغيرهم من أقوياء هذا العالم ...

من مقال ((الاتحاد العظيم للجماهير الشعبية)) المنشور في الاعداد ٢-٤ من مجلة ((نقد هونان)) في تموز- آب ١٩١٩.

*

الشيوعية و الدكتاتورية / (مهم – ملاحظة الصوت الشيوعي)

أعرب راسل[١] في محاضرته في شانغشا عن تأيده للشيوعية ، ولكن عن شجبه لدكتاتورية الشغيلة والفلاحين. لقد قال ان من الواجب استخدام منهج التربية لتغير

---

١ - القى الفيلسوف البريطاني في شانغشا في خريف ١٩٢٠ محاضرة للدعوة الى الشيوعية بلا دكتاتورية. وقد كان لراسل نفوذ فكري كبير في اوساط الحركة الثورية الصينية آنذاك. ((المعرب))

وعي الطبقات المالكة ، وبذلك لن تكون هناك من حاجة الى الحد من الحرية ولا الى اللجوء الى الحرب والثورة الدموية ... واعتراضاتي على وجهة نظر راسل يمكن تلخيصها في بضع كلمات : ((هذا حسن كنظرية ، ولكنه مستحيل التحقيق عمليا)) ...

ان التربية تتطلب : ١- مالا. ٢- رجالا. ٣- أدوات. والمال في العالم الراهن موجود بأكمله بين أيدي الرأسماليين. وأولئك الذين يهتمون بالتعليم اما أنهم جميعا رأسماليون واما أنهم عبيد للرأسماليين. والمدارس والصحافة ، اللتان هما اهم ادوات التربية ، هما برمتها تحت رقابة الرأسماليين في العالم الراهن. وبكلمة واحدة، ان التربية في العالم الراهن تربية رأسمالية. واذا ما تعلم الاطفال الرأسمالية، فانهم سيعلمون بدورهم عندما يكبرون الرأسمالية لجيل ثان من الاطفال. وهكذا تبقى التربية بين أيدي الرأسماليين. ثم ان للرأسماليين. ثم ان للرأسماليين ((مجالس تمثيلية)) للاقتراع على قوانين تحمي الرأسماليين وتعرقل البروليتاريا ، ولهم ((حكومات)) لتطبيق هذه القوانين ولوضع المزايا والنواحي التي تنطوي عليها موضع تنفيذ بصورة ايجابية ، ولهم ((جيوش)) و ((شرطة)) للدفاع عن رفاه الرأسماليين ولقمع مطالب البروليتاريا ، ولهم ((مصارف)) لتكون مستودعات في تداول ثرواتهم ، ولهم ((مصانع)) هي بمثابة أدوات لاحتكار انتاج البضائع. وهكذا، اذا لم يستول الشيوعيون على السلطة السياسية فانهم لن يجدوا ملجأ في هذا العالم. فكيف يسعهم في مثل هذه الشروط ان يضعوا أيديهم على التربية؟ وهكذا فان الرأسماليين سيظلون قابضين على زمام التربية ، يطنبون في المديح لرأسماليتهم ، بحيث ان عدد أتباع الدعاية الشيوعية للبروليتاريا سيتناقص يوم بعد يوم. ولهذا أعتقد ان منهج التربية غير قابل للتطبيق ...

ان ما قلته هو الحجة الاولى. والحجة الثانية هي أنني أرى ، بالاستناد الى مبدأ أهمية العادات العقلية والى ملاحظة تاريخ الانسانية ، أننا لا نستطيع البتة ان نتوقع اهتداء الرأسماليين الى الشيوعية ... واذا كنا نريد استعمال قوة التربية لتبديلهم ، وكنا في الوقت نفسه عاجزين عن وضع أيدينا على مجمل او على جزء هام من

أداتـي التربيـة المتمثلتـين فـي المـدارس والصـحافة ، حتـى وان كـان لنـا فـم ولغـة ومدرسة او مدرستان وصحيفة او صحيفتان كوسائل للدعاية ... فان هذا لا يكفي بصورة من الصور لتغير عقلية أتباع الرأسمالية ولو أوهن التغير. فكيف يمكننا والحالة هذه ان نأمل ان هؤلاء سيتوبون وسيرتدون الى الخير. فكيف يمكننا والحالة هذه ان نأمل ان هؤلاء سيتوبون وسيرتدون الى الخير؟ هذا من وجهة النظر البسيكولوجية. أما من وجهة النظر التاريخية ... فاننا نلاحظ ان جميع المستبدين الامبرياليين والعسكريين الذين يعرفهم التاريخ لم يبدوا قط رغبتهم في مغادرة مسرح التاريخ من تلقاء انفسهم الى ان أطاح بهم الشعب. لقد أعلن نابليون الاول نفسه أمبراطور، ثم سقط. ثم كان هناك نابليون الثالث. ولقد سقط ايضا سهي كاي ، ثم كان هناك ، ويا للاسف ، دوان كي روي ... ويتضح مما قلته ان الرأسمالية لا يمكن الاطاحة بها بقوة بعض الجهود الصغيرة في ميدان التعليم. هذه هي الحجة الثانية. وهناك ايضا حجة ثالثة، حجة بالغة الاهمية بالتأكيد ، واكثر أهمية أيضا في الواقع. فلو استخدمنا الوسائل السلمية لادراك هدف الشيوعية ، فمتى سيكون في وسعنا أخيرا ان ننجح؟ لنفترض أننا سنكون بحاجة الى قرن من الزمن ، قرن حداؤه أنين البروليتاريا المتواصل. فما الموقف الذي سنقفه ازاء هذا الوضع؟ ان البروليتاريا تفوق مرات عدة البرجوازية في العدد. واذا سلمنا بأن البروليتاريا تشكل ثلثي الانسانية ، يكون هناك من أصل مليار وخمسمئة مليون ، مليار من البروليتاريين (أخشى ان يكون الرقم اكثر ارتفاعا ايضا) ممن سيعانون بقسوة ابان ذلك القرن من استغلال ذلك الثلث من الرأسماليين. فكيف سيكون في مستطاعنا تحمل هذا؟ وعلاوة على ذلك ، وما دامت البروليتاريا قد وعت أنها لا بد ان تمتلك هي أيضا الثروات ، وان آلام البروليتاريا الراهنة ليست ضرورية ، فان البروليتاريين مستاؤون ، ولقد أعلن مطلب الشيوعية عن نفسه وصار حقيقة واقعة. وهذه الحقيقة الواقعة ماثلة أمامنا ، وليس في مستطاعنا ان نزيلها من الوجود. وعندما ندركها ، فلا مفر من ان نريد العمل. ولهذا فان الثورة الروسية والشيوعيين

الجذريين في جميع الاقطار سيزدادون قوة في رأيي يوما بعد يوم من حيث العدد ، وستتوثق أواصر تنظيمهم. انها النتيجة الطبيعية. تلكم هي الحجة الثالثة ...

هناك نقطة أخرى لها صلة بشكوكي حول موضوع الفوضوية. وحجتي ههنا ليست استحالة مجتمع بلا سلطة وبلا تنظيم فحسب. ولكنني أريد ان أقصر الكلام عن مصاعب تأسيس مثل ذلك الشكل من المجتمع ومآله الاخير ... ولكل الاسباب التي أتيت بذكرها فان وجهة نظري الراهنة حول موضوع الليبيرالية المطلقة والفوضوية وحتى الديمقراطية هي ان هذه الاشياء حسنة جدا على صعيد النظرية ، ولكنها غير قابلة للتحقق عمليا ...

مقتطفات من رسالتين من ماو تسي تونغ الى كاي هي شن في تشرين الثاني ١٩٢٠ وكانون الثاني ١٩٢١.

*

دور التجار في الثورة القومية

ان المشكلة السياسية الراهنة في الصين هي أولا وأخيرا مشكلة ثورة قومية. والرسالة التاريخية للشعب الصيني هي استخدام قوة الشعب للاطاحة بالعسكريين[1] وبالامبرياليين الاجانب الذين تحالف معهم العسكريون لينفذوا أعمالهم الغادرة. ان هذه الثورة مهمة الشعب قاطبة. وفي قلب شعب البلاد قاطبة ينبغي ان يتقدم التجار والعمال والفلاحون والطلاب والمعلمون ليتحملوا بالتساوي جزءا من عبء العمل الثوري. ولكن بالنظر الى الضرورة التاريخية والى اتجاه الامور في الساعة الراهنة، فان العمل الذي يتوجب على التجار القيام به ضمن نطاق الثورة القومية هو اكثر الحاحا وأهمية من العمل الذي يقع على كاهل باقي الشعب. اننا نعلم ان

[1] - المقصود بالعسكريين ههنا طبقة ((سادة الحرب)) الاقطاعيين الذين مزقوا وحدة الكيان القومي للصين وحكموها حكما دكتاتوريا. ((ملاحظة المعرب))

حكومة الصين نصف المستعمرة حكومة تحالف بين العسكريين والدول الاجنبية لفرض نظام من الاضطهاد المزدوج على شعب البلاد قاطبة. وطبيعي ان شعب البلاد قاطبة يعاني في ظل نظام الاضطهاد المزدوج هذا من جملة من الآلام العميقة. بيد ان التجار هم الذين يحسون بهذه الآلام على نحو فائق الحدة والالحاح. فجميع الناس يعلمون ان ((الليكن))[١] والرسوم الجمركية هي مسألة حياة أو موت بالنسبة الى التجار. واذا كان التجار يطالبون بالحاح بانقاص الليكن وبزيادة الرسوم الجمركية فانهم انما يعبرون بذلك عن مصلحتهم الاكثر مباشرة. ولكن انقاص الليكن وزيادة الرسوم الجمركية ليست مسألة سهلة ، لان انقاص اليكن يمس بمصالح العسكريين في حين ان زيادة الرسوم الجمركية تمس بمصالح الامبرياليين الاجانب. واذا افترضنا بأن الليكن قد الغي بصورة نهائية ، فان النتيجة ستكون كما يلي : العسكريون سيهزلون يوما بعد يوم والتجار سيسمنون. وآنذاك يكفي ان يصرخ التجار صرخة حتى ينهار العسكريون. والحال ان العسكريين أناس أذكياء ، ولن يكونوا من الغباء بحيث يأتون عملا أشبه ما يكون بعمل ذاك الذي يرفع صخرة ليسحق بها قدمه بالذات. واذا افترضنا بأن الرسوم الجمركية قد زيدت زيادة كبيرة على البضائع الاجنبية ، أو بأن التعرفات التي تفرضها المعاهدات قد استبدلت بتعرفات حماية يحددها الصينيون بأنفسهم ، فان ذلك يعني ان القيود التي تشل التجار قد رفعت ، وان الصناعة والتجارة ستشرعان بمثل لمح لبصر بالتطور على نحو أسرع داخل البلاد. ومن ثم لن تلقى البضائع الاجنبية بعد ذاك ترحابا في الصين. والحال ان الامبرياليين الاجانب ، الخبثاء غاية الخبث ، ليسوا على استعداد البتة لاتيان مثل هذا العمل الغبي ... ان مواقع التجار من جهة ، ومواقع الدول الاجنبية والعسكريين من الجهة الثانية لهي حقا متنافية.

لقد أحب التجار دوما ((الهدوء)). ولم يفكروا قط بأن التغيير السياسي يتطلب ثورة ولا يمكن ان يتحقق بواسطة بضع برقيات بصدد ((تخفيض عدد الجنود وتطبيق الدستور واصلاح المالية)). وهم لم يتصوروا قط أيضا ان الثورة تقتضي

---

[١] - رسوم كانت تفرض على تداول البضائع داخل الصين.

مساهمتهم الشخصية ، واللجوء الى تنظيم شعب البلاد قاطبة ، وتنظيم حركة جماهيرية واسعة ، كوسيلة وحيدة للحصول على قوة ثورية. بل لقد كانوا يتصورون أنه ليس هناك من حاجة الى حزب سياسي لتغيير الحكم ... واذا ما قارنا مواقف التجار القديمة الصبيانية والخجولة هذه بالوضع الراهن ، فاننا لن نتمالك أنفسنا من الانشداه او من القهقهة ...

ونستطيع الآن ان نعلم ، بعد العمل الذي قام به مؤخرا تجار شانغهاي لمواجهة الانقلاب ، أنهم قد غيروا موقفهم السابق ، وأنهم تخلوا عن نزعتهم السلمية ، وأنهم تبنوا أساليب ثورية ، وأنهم مفعمون برغبة بطولية في تحمل مسؤولية شؤون البلاد...

لقد انتصب تجار شانغهاي وشرعوا يعملون. واننا لنأمل ان ينتصب التجار في خارج شانغهاي وان يشرعوا بالعمل يدا واحدة. ان السانحة الراهنة فائقة الالحاح ، كما لو ان النار أخذت بتلابيبنا. ومن الواجب علينا ألا نستسلم بعد الان للنوم الكسول. لقد آن الاوان اليوم لتنظيم شعب البلاد قاطبة للشروع بحركة ثورية ، وانه لمن الاهمية بمكان تجنب انقسام التجار الى فئات وأحزاب. علينا ان نعلم ان الدول الاجنبية والعسكريين أعداء مشتركون لجميع التجار، وبالتالي للشعب قاطبة ، وأن المكسب الذي سنحققه بعد نجاح الثورة سيكون مكسبا مشتركا ايضا ...

لا غنى عن تنظيم أنفسنا وعن النضال للاطاحة بالعدو المشترك ولانتزاع المكسب المشترك. وكلما كان تنظيم التجار أوسع كان نفوذهم اكبر وكانت اكبر بالتالي القوة التي تقود شعب البلاد قاطبة وكان نجاح الثورة أسرع!

ان على الجميع ان يقتنعوا بأن الثورة القومية هي طريق الخلاص الوحيد لهم وللبلاد. واننا لنستطيع ان نجد قدرة ودليلا في العديد من القضايا الثورية في التاريخ. والظروف التي نحن فيها اليوم تدعونا الى انجاز عمل تاريخي. ايانا والتهاون بعد اليوم! والرسالة التاريخية للشعب الصيني هي استعمال المنهج الثوري لفتح عصر جديد وبناء بلد جديد : وهذا ما ينبغي ألا ننساه أبدا!

من مقال لماو تسي تونغ في تموز ١٩٢٣ تحت عنوان ((انقلاب بكين والتجار)).

*

مرسوم حول الزواج ^ / (مهم : نص ضد الاباحية الجنسية – ملاحظة الصوت الشيوعي)

ان الزواج بين الرجل و المرأة في ظل السيطرة الاقطاعية مؤسسة همجية ولا انسانية. والاضطهاد والآلام التي تتكبدها النساء اكبر من تلك التي يعاني منها الرجال. وانتصار ثورة العمال و الفلاحين ، المتبوع بالخطوات الاولى لتحرير الرجال و النساء اقتصاديا ، هو وحده الذي يحدث تغييرا في طابع علاقة الزواج بين الرجل و المرأة التي تصبح حرة. لقد اكتسب الزواج بين الرجل و المرأة في المناطق السوفياتية في الساعة الراهنة أساسا من الحرية. فالزواج يجب ان يعقد على أساس مبدأ الاختيار الحر. وكل نظام الزواج الاقطاعي قد ألغي ، بما فيه سلطة الاهل على الاطفال ، واستعمال الاكراه ، وبيع وشراء شهادة الزواج.

بيد ان النساء في الوقت الحاضر الذي تحررن فيه من النير الاقطاعي ما يزلن يعانين من عوائق مادية ضخمة (مثل الاقدام المعصوبة) ، وهن لم يحصلن أيضا على استقلال اقتصادي كامل. ومن ثم فان من الواجب ، فيما يخص الطلاق ، الدفاع عن مصالح المرأة بوجه خاص ، وتحميل الرجال الجزء الاكبر من الالتزامات و المسؤوليات الناجمة عن الطلاق.

ان الاطفال هم سادة المجتمع الجديد. وعلاوة على ذلك ، وطبقا لعادات المجتمع القديم ، ما كانت حماية الاطفال تحظى بالاهتمام. ومن ثم فقد صدر قرار خاص لحماية الاطفال.

يصدر هذا المرسوم ويصبح ساري المفعول في ١ كانون الاول ١٩٣١.

رئيس اللجنة المركزية التنفيذية :

ماو تسي تونغ

نائبا الرئيس : كسيانغ يينغ – زهانغ غيو تاو

النص الكامل لمرسوم مؤقت عن الزواج صادر في عهد الجمهورية السوفياتية الصينية.

*

عصبة الأمم عصبة لصوص ^

لقد سبق للحكومة المركزية المؤقتة للجمهورية السوفياتية ان اعلنت منذ عهد بعيد للجماهير الشعبية في البلاد قاطبة ان عصبة الامم عصبة لصوص يمزق بواسطتها الامبرياليون على مختلف أنواعهم أوصال الصين. ان المهمة الرئيسية للجنة ليتون للتحقيق التي أرسلتها الى الصين كانت التخطيط لتقطيع أوصال الصين وقمع جميع الحركات الثورية التي رفعت راية السوفييتات الصينية.

ولقد نشرت أخيرا لجنة تحقيق عصبة اللصوص الامبرياليين – لجنة ليتون – تقريرها حول تقطيع أوصال الصين. ان هذا التقرير وثيقة مدهشة يقدمها الامبرياليون الى الجماهير الشعبية الصينية حول تمزيق الاوصال الذي يخططون لانزاله بالصين. ومع ذلك فان الكيومنتانغ الذي يبيع البلاد ويلوث شرفها ، وكذلك الحكومة التابعة له ، قد قبلا به بتمامه!.

ان تقرير ليتون هو عقد البيع الذي تستعبد الامبريالية بواسطته الشعب الصيني! ان الحكومة السوفياتية تدعو الجماهير الشعبية في البلاد قاطبة الى التمرد المسلح بقيادة الحكومة السوفياتية لشن حرب ثورية قومية لتمزيق تقرير ليتون اربا اربا وللوقوف في وجه جميع مشاريع الامبرياليين الجديدة الهادفة الى تقطيع أوصال الصين والى قمع الثورة الصينية والى مهاجمة المناطق السوفياتية والاتحاد السوفياتي! لنلق خارج الصين بالامبريالية اليابانية وبسائر الامبرياليات ، حتى

نحقق التحرر والاستقلال الكامل للشعب الصيني ! لندافع والسلاح بأيدينا عن الاتحاد السوفياتي ، ولنقم تحالفا وثيقا بين الجماهير الكادحة في الصين والاتحاد السوفياتي!

ان الحكومة السوفياتية تعلن للعمال والفلاحين والجنود في البلاد قاطبة ، ولجميع الجماهير المستغلة ، أننا اذا كنا نريد حقا شن حرب ثورية قومية والتصدي لتقطيع أوصال الصين على يد الامبرياليين ، فلا بد أولا من الاطاحة بالزبالين الذين يلتقطون فتات التقطيع الامبريالي لاوصال الصين ويقمعون الحرب القومية ، نعني الاطاحة بسيطرة الكيومنتانغ الرجعية!

من برقية للحكومة السوفياتية الصينية بتاريخ ٦ تشرين الاول ١٩٣٢، تحمل تواقيع ماو تسي تونغ و كسيانغ يينغ و زهانغ غيو تاو.

*

موسكو و مصير الصين ٨ / (مهم – ملاحظة الصوت الشيوعي)

(من مقابلة مع ادگار سنو)

سؤال : اذا ما انتصرت الثورة الصينية ، فهل ستنتظم العلاقات الاقتصادية و السياسية بين الصين السوفياتية وروسيا السوفياتية ضمن اطار الاممية الثالثة ، او ضمن اطار منظمة مماثلة ، أم أنه سيتم على الارجح اندماج فعلي بين الحكومتين؟ وهل ستكون للحكومة السوفياتية الصينية علاقات مع موسكو مماثلة لعلاقات الحكومة الراهنة لمونغوليا الخارجية؟

جواب : أفترض ان هذا السؤال سؤال تخميني محض. فكما قلت لك سابقا ، ان الجيش الاحمر لا يسعى الآن الى السيطرة على السلطة ، بل يسعى الى صين موحدة ضد الامبريالية اليابانية.

ان الاممية الثالثة منظمة تضع فيها طليعة البروليتاريا العالمية تجربتها الجماعية المشتركة من أجل صالح جميع الشعوب الثورية عبر العالم. انها ليست في حال من الاحوال جهازا اداريا ، ولا تملك البتة من سلطة سياسية تتجاوز وظيفة اسداء النصح. أما من حيث البنية فانها لا تختلف كثيرا عن الاممية الثانية ، بالرغم من ان مضمونها مختلف جدا. ولكن ليس هناك من يقول ان الاممية الثانية تسود سيادة دكتاتورية في قطر من الاقطار عندما يؤلف فيه الوزارة اشتراكيون – ديمقراطيون. كذلك من السخف القول بأن الاممية الثالثة تسود سيادة دكتاتورية في البلدان التي فيها أحزاب شيوعية.

ان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي حزب حاكم ، ومع ذلك فان الاممية الثالثة لا تحكم حتى هناك ولا تملك أي سلطة سياسية مباشرة على الشعب. ومن الممكن القول بالصورة نفسها انه اذا كان الحزب الشيوعي الصيني ينتمي الى الكومنترن فهذا لا يعني البتة ان الصين السوفياتية تحكم من قبل موسكو او الكومنترن. واننا بكل تأكيد لا نناضل من أجل تحرير الصين حتى نسلّم البلاد الى موسكو!

ان الحزب الشيوعي الصيني ليس الا واحد من الاحزاب في الصين. ولسوف يتكلم يوم انتصاره باسم مجمل الأمة. انه لن يستطيع البته ان يتكلم باسم الشعب الروسي ، ولا ان يحكم لحساب الاممية الثالثة ، وانما فقط من أجل مصلحة الجماهير الصينية. وانما حيث تلتقي مصلحة الجماهير الصينية مع مصلحة الجماهير الروسية ، يمكن القول بأنه ((ينصاع لارادة موسكو)). ولكن من البديهي ان هذه القاعدة من المصالح المشتركة ستتوسع توسعا مرموقا بمجرد ان توطد الصين سلطتها الديمقراطية وتتحرر اجتماعيا واقتصاديا ، شأن اشقائها في روسيا.

وعندما تتأسس حكومات سوفياتية في عدد من الاقطار ، فمن الممكن ان تنطرح آنذاك مشكلة اتحاد أممي للسوفييتات ، وانه لمما يثير الاهتمام ان نرى كيف سيتم حل تلك المشكلة. بيد أنني لا أستطيع اليوم اقتراح الصيغة : فهذه مشكلة لم تحل مسبقا. وفي عالمنا المعاصر، الذي تتوطد فيه اكثر فاكثر الصلات الوثيقة بين شتى

الدول ومختلف الشعوب ، يبدو ان مثل ذلك الاتحاد أمر مرغوب فيه للغاية اذا ما قام على اساس من الاختيار الحر.

بيد انه من الجلي الواضح ان النقطة الاخيرة هذه بالغة الاهمية. فمثل ذلك الاتحاد العالمي لا يمكن ان ينجح الا اذا كان لكل أمة الحق في ان تنتمي اليه او في ان تنسحب منه طبقا لارادة شعبها وسيادته التي لا يمكن ان تمس ، لا طبقا ، وبأي صورة من الصور ، ل ((أوامر)) موسكو. ان ما من شيوعي قد فكر قط غير هذا التفكير ، وأسطورة ((سيطرة موسكو العالمية)) هي من اختراع الفاشيين ومناهضي الثورة.

ان العلاقات بين مونغوليا الخارجية و الاتحاد السوفياتي كانت على الدوام ، الان وفي الماضي، قائمة على مبدأ المساواة الكاملة. ويوم تنتصر الثورة الشعبية في الصين ، ستصبح جمهورية مونغوليا الخارجية بشكل آلي جزءا من الاتحاد الصيني، طبقا لارادتها. ولسوف يشكل الشعبان المسلم و التبتي ايضا جمهوريات مستقلة ذاتيا ومرتبطة بالاتحاد الصيني ...

من مقابلة لماو تسي تونغ مع ادكار سنو في ٢٣ تموز ١٩٣٦ ، في مخطوطة غير منشورة لادكار سنو.

*

الشبيبة بحاجة الى التجربة ^

ان الشبان – أسواء كانوا أعضاء في الحزب الشيوعي أم لا – الذين يلتحقون بصفوف الحركية الثورية ، فيمدونها بدم جديد و بالحماسة ، هم جميعهم عناصر ثمينة للغاية. فبدونهم لا تتسع صفوف الثورة ، وبدونهم لن تنتصر الثورة. ولكن العيب الطبيعي للرفاق الشبان هو نقص التجربة. والحال ان التجربة الثورية تأتي بنتيجة المساهمة في النضال الثوري. واذا ما بدأ المرء بالعمل انطلاقا من أدنى

المستويات ، واذا ما قام طوال عدة سنوات بعمل حقيقي ، دونما استسلام للاوهام ، فان التجربة لا بد ان تكتسب من قبل أولئك الذين لا يمتلكونها.

النص الكامل لرسالة من ماو تسي تونغ في ٥ تشرين الاول ١٩٣٩.

*

حول حل الأممية الثالثة / (مهم – ملاحظة الصوت الشيوعي)

... لقد لاحظ الرفيق ماو تسي تونغ باديء ذي بدء ان حل الاممية الشيوعية كان، على حد التعبير الصحيح لوكالة انباء أمريكية ، ((حدثا كبيرا يفصل بين عصرين تاريخيين)).

لقد تساءل الرفيق ماو تسي تونغ لم كان من الواجب حل الاممية الشيوعية. أفلم تكن تكرس جهودها كافة من أجل تحرر الطبقة العاملة في العالم قاطبة ومن أجل الحرب ضد الفاشية؟

لقد قال الرفيق ماو تسي تونغ : هذا صحيح ، فالاممية الشيوعية قد أسسها لينين بنفسه. وقد أدت ، طوال حقبة وجودها التاريخية ، خدمات جلى اذ ساعدت كل قطر على تنظيم حزب عمالي ثوري حقا ، كما أدت خدمات جلى للقضية الكبرى المتمثلة في تنظيم الحرب ضد الفاشية. ولقد نوه الرفيق ماو تسي تونغ بوجه خاص بالخدمات الكبيرة التي أدتها الاممية الشيوعية بمساعدتها قضية الثورة الصينية ...

كما لاحظ الرفيق ماو تسي تونغ أيضا بأن الحركات الثورية لا يمكن لا ان تُصدّر ولا ان تستورد. وبالرغم من مساعدة الاممية الشيوعية كان ميلاد الحزب الشيوعي الصيني وتطوره نتيجة لواقع ان الصين كانت تمتلك طبقة عاملة واعية ، والطبقة العاملة الصينية هي التي خلقت بنفسها حزبها الخاص بها : الحزب الشيوعي الصيني. وبالرغم من ان الحزب الشيوعي الصيني لا يتجاوز من العمر ٢٢ عاما ، فلقد قام حتى الان بثلاث حركات ثورية كبيرة ...

وما دامت الاممية الشيوعية قد أدت خدمات جلى للصين ولجميع الاقطار ، فلم كان من الواجب الاعلان عن حلها؟ لقد أجاب الرفيق ماو تسي تونغ على هذا السؤال بأن من مبدأ الماركسية – اللينينية ان يكون شكل التنظيم الثوري متكيفا مع متطلبات النضال الثوري. واذا لم يعد هذا الشكل او ذاك من أشكال التنظيم متلائما مع متطلبات النضال ، فلا بد آنذاك من الغائه. وقد لاحظ الرفيق ماو تسي تونغ ان الشكل التنظيمي الثوري المتمثل بالاممية الشيوعية ما عاد متلائما مع متطلبات النضال. ولو بقي هذا الشكل التنظيمي قائما ، فلربما أصبح على العكس عقبة في وجه تطور النضال الثوري في كل قطر. والواجب الان هو العمل على تعزيز الحزب الشيوعي القومي في كل قطر ، وما عادت هناك من حاجة الى ذلك المركز القائد الاممي. وتكمن وراء هذا ثلاثة أسباب رئيسية : ١– ان الوضع داخل كل قطر، وكذلك العلاقات بين شتى الاقطار هي الان اكثر تعقيدا مما في الماضي ، وهي تتغير بسرعة اكبر. وليس من سبيل أمام تنظيم أممي موحد ليتكيف مع هذه الظروف المعقدة والسريعة التغير. والقيادة الصحيحة لا بد ان تنطلق من تحليل مفصل لهذه الشروط ، وهذا ما يوجب على الحزب الشيوعي في كل قطر ان يتصدى بنفسه لهذا التحليل. ولقد كانت الاممية الشيوعية ، البعيدة كل البعد عن النضال العيني في كل قطر، متلائمة مع شروط الماضي البسيطة بما فيه الكفاية ، يوم كانت التغيرات تتم بصورة بطيئة نسبيا ، ولكنها ما عادت اليوم متلائمة. ٢– لقد حفر قطاع الطرق الفاشيون هوة عميقة اليوم بين شعوب المجموعة الفاشية وشعوب المجموعة المعادية للفاشية. والدول المعادية للفاشية كثيرة التنوع : فهناك الدول الاشتراكية ، والرأسمالية ، والمستعمرة ، ونصف المستعمرة. كذلك فان هناك فروقا كبيرة بين الدول الفاشية والدول التابعة لها. واخيرا فان هناك بلدانا محايدة ، لها اوضاع متباينة. ولقد كان هناك منذ بعض الزمن احساس بأن تنظيما ممركزا ذا صفة اممية غير موائم كل المواءمة لتنظيم النضال المعادي للفاشية تنظيما سريعا وفعالا في جملة تلك الدول ، وهذا الموقف اصبح محسوسا للغاية في الاونة الاخيرة. ٣– ان الملاكات القيادية للاحزاب الشيوعية في مختلف الاقطار قد نمت

واكتسبت النضج السياسي. وقد شرح الرفيق ماو تسي تونغ هذه النقطة بالاستناد الى مثال الحزب الشيوعي الصيني. فقد مر الحزب الشيوعي الصيني بثلاث حركات ثورية. ولقد كانت هذه الحركات متصلة وفائقة التعقيد ، بل اكثر تعقيدا من الثورة الروسية نفسها. وعبر هذه الحركات الثورية اكتسب الحزب الشيوعي الصيني ملاكاته الذاتية الممتازة ، المتمتعة بتجربة شخصية. ومنذ المؤتمر العالمي السابع في عام ١٩٣٥ ما عادت الاممية الشيوعية تتدخل في المشكلات الداخلية للحزب الشيوعي الصيني. ومع ذلك فان الحزب الشيوعي الصيني قد احسن اوامر عمله طوال فترة حرب التحرير القومية ضد اليابانيين ...

من خطاب لماو تسي تونغ في ٢٦ ايار ١٩٤٣ امام ملاكات الحزب الشيوعي الصيني لتفسيرقرار حل الاممية الشيوعية.

*

الصين واميركا

ان السياسة الاميركية في الصين ، الممثلة بهارلي ، تخلق على نحو ظاهر للعيان اكثر فاكثر خطر خطرا يتهدد كلا الشعبين الصيني والاميركي. وهذا الخطر لا يمكن تلافيه ما لم تؤخذ بعين الاعتبار مصالح الصين واميركا المجملة على المدى الطويل. ان هذا الخطر هو خطر حرب اهلية في الصين. وحكومة الكيومنتانغ ، التي تنتهج بعناد سياسة رجعية قوامها اهمال الحرب ضد اليابان وقمع الحركة الديمقراطية الشعبية ، تعيش على الحرب الاهلية منذ ان قامت قبل ثمانية عشر عاما... ويوم كان الرئيس روزفلت ما يزال على قيد الحياة كان يحسب حساب هذه النقطة ، وقد رفض ، لصالح اميركا بالذات ، ان ينتهج سياسة قوامها مساعدة معسكر في الصين ضد المعسكر الاخر. وعندما وصل هارلي في تشرين الثاني ١٩٤٤ الى يينان بصفته ممثلا شخصيا لروزفلت ، اتخذ موقفا ايجابيا من الخطة

التي قدمها الحزب الشيوعي الصيني والتي كانت تقترح الغاء دكتاتورية الكيومنتانغ الاحتكارية وانشاء حكومة تحالف ديمقراطية. وما كان آنذاك قد نبذ رغبة الرئيس روزفلت في عدم مساندة حكومة الكيومنتانغ بصورة احادية الجانب. وبعد ذلك ، قلب هارلي موقفه على نحو غير متوقع ، ونكص عما كان قد قاله في يينان. وقد ظهر هذا التبدل بوضوح كبير في التصريح الذي ادلى به في واشنطن في ٢ نيسان. فلقد اصبحت حكومة الكيومنتانغ ، الممثلة بشيانغ كاي شيك ، على لسان هارلي نفسه ، جميلة جمالا منقطع النظير هذه المرة ، بينما صار الحزب الشيوعي قبيحا قبحا لا مثيل له. وعلاوة على ذلك فقد صرح بلا مواربة ان الولايات المتحدة لن تتعاون الا مع شيانغ كاي شيك لا مع الشيوعيين الصينيين. وطبيعي ان هذه ليست وجهة النظر النظر الشخصية لهارلي وحده ، وانما وجهة نظر مجموعة كاملة من الاشخاص على شاكلة هارلي في قلب الحكومة الاميركية. وهذا مع انها وجهة نظر خاطئة وخطرة ومعاكسة لسياسة روزفلت. وفي تلك الاثناء انطفأت الحياة في روزفلت ، ورجع هارلي وهو لا يتمالك نفسه من الفرح ، الى السفارة الاميركية في تشونكينغ. ان خطر السياسة الاميركية تجاه الصين كما يمثلها هارلي هو انها تسهم في تعزيز حكومة الكيومنتانغ وتزيد من خطر نشوب حرب اهلية في الصين. واذا لم يستبعد هذا الخطر، فان النتيجة التي لا مفر منها لن تكون مرحلة طويلة من الشقاء لشعب الصين فحسب ، بل ان الحكومة الاميركية ستكون ايضا قد وضعت بيديها على كاهلها عبئا ساحقا. أي انها ستسقط في حفرة مرحاض الرجعية الصينية، تلك الحفرة النتنة العميقة التي ستعجز عن الخروج منها. انها ستضع نفسها بنفسها في موضع العداء تجاه الملايين والملايين من الصينيين الذين استيقظوا من سباتهم وما يزالون يستيقظون. وهذا سيلحق الضرر على المدى القريب والآني بالحرب ضد الغزاة اليابانيين ، وسيعرقل في المستقبل توطيد السلم في العالم ... اما فيما يتعلق بمسألة مستقبل الصين فان قسما كبيرا من الرأي العام الاميركي ، وكذلك عددا لا بأس به من السياسيين والعسكريين ، قد فهموا ان القوة الكبيرة التي لا تقاوم للشعب الصيني الذي يطلب الاستقلال والحرية والديمقراطية والوحدة والذي يريد

ان يجعل البلاد غنية وقوية لا بد ان تثور لوضع حد للاضطهاد القومي والاقطاعي. ان هؤلاء الناس يحسون بخطر سياسة كسياسة هارلي تجاه الصين ويطالبون بتبديلها. ولكن يستحيل علينا الآن ان نقول ما اذا كانت سياسة الولايات المتحدة ستتغير في النهاية ، ومتى سيحدث هذا التغيير اذا كان الجواب بالايجاب. وهناك شيء واحد نستطيع ان نقوله بكل ثقة وهو : اذا لم تتغير سياسة هارلي المساندة للقوى المعادية للشعب في الصين ، تلك السياسة المناوئة لشعب عظيم التعدد كالشعب الصيني ، فانها ستثقل بباهظ وطأتها على الحكومة والشعب الاميركيين وستسبب لهما اوجاعا لا حصر لها ...

... منذ ان عرض هارلي في ٢ نيسان في واشنطن سياسته الخاطئة في تأييد شيانغ ومعارضة الشيوعيين ، انزاح النقاب عن الوجه الحقيقي لمجموعة العناصر الامبريالية داخل اميركا. فقد نشرت مؤخرا المجلة الاميركية ((ريدرز دايجست)) (المختار) التي يطالعها جمهور واسع جدا ، في عددها الصادر في حزيران مقالا مشتركا كتبه باول وايستمان تحت عنوان ((مصير العالم يقرر في الصين)). ومن الممكن القول انه بمثابة عرض مكشوف لسياسة هارلي. فبعد ان نوه باول وايستمان[1] بان الصين ((سيكون لها وزن حاسم عند تحديد مصير العالم)) اكد بان ((اكبر سؤال سياسي اليوم)) هو السؤال المتعلق بمعرفة ((ما اذا كانت الصين ستنحاز في خاتمة المطاف الى جانب الديموقراطية او الى جانب التوتاليتارية)) ... انهما يقولان ان السؤال المتعلق بمعرفة ما اذا كانت الصين ستنحاز الى الديموقراطية او الى التوتاليتارية ((مماثل للسؤال المتعلق بمعرفة من سيكون له الدور الموجه الحاسم : أ أميركا الديموقراطية ام روسيا التوتاليتارية)). ايها الاخوة الصينيون ، استمعوا الى هذه الاعترافات من فم هؤلاء الامبرياليين! ان سياستهم تجاه الصين تعني في الحقيقة وضع الصين تحت ((توجيه)) اميركا. وغني عن البيان ان معنى هذه العبارة ((مماثل)) للفكرة التالية هذه : تحويل الصين الى

[1] - ماكس وايستمان: مفكر امريكي كان ماركسيا بارزا قبل ردته. ((ملاحظة جورج طرابيشي))

مستعمرة او نصف مستعمرة لاميركا. ان كل قناع مراء كاذب يتمزق ههنا ، ودوافع الامبرياليين تتجلى بكل عريها! .. ان شعوذة ((الديموقراطية الاميركية)) و ((التوتاليتارية الروسية)) التي يتلهى بها باول وايستمان في مقالهما اكثر من مرة مضحكة وغبية في آن واحد.

وما داما يقولان ان الطريق الذي يسلكه الان شيانغ كاي شيك هو ((طريق الديموقراطية الاميركية)) فهذا معناه ان ((طريق الديموقراطية الاميركية)) في الصين ليس غير طريق الفاشية الاقطاعية ، المموه بالديموقراطية. وما داما يقولان علاوة على ذلك ان الطريق الذي يسلكه الان شيانغ كاي شيك هو الطريق القمين بان يضمن لاميركا ((التوجيه)) في الصين ، فهذا معناه ان ((طريق الديموقراطية الاميركية)) في الصين هو الطريق القمين بالبداهة بان يجعل من الصين مستعمرة اميركية ... وبديهي ان شعب الصين لا يريد ان يسلك طريق المستعمرة الذي تريد العناصر الامبريالية الاميركية ان تفرضه عليه. ان الطريق الذي يريد ان يسلكه قد حدده زعيم الحزب الشيوعي الصيني ، الرفيق ماو تسي تونغ ، طريق الديموقراطية الجديدة المفضي الى الاستقلال والحرية والديموقراطية والوحدة والغنى والقوة! .. ان الديموقراطية الجديدة التي تريد الصين ان تحققها ليست غير الدكتاتورية الديموقراطية المشتركة لجميع الطبقات المعادية للامبريالية والمعادية للاقطاع. وبديهي انها ليست الدكتاتورية البرجوازية الاميركية ، ولا دكتاتورية البروليتاريا في الاتحاد السوفياتي. واذا كانا لا يحبان الا دكتاتورية اقلية من كبار الملاك العقاريين ومن كبار البورجوازيين كما يمارسها شيانغ كاي شيك ، واذا كانا لا يحبان الدكتاتورية الشعبية لجميع الطبقات الثورية كما حددها رفيقنا ماو تسي تونغ ، واذا كانا يريدان بالتالي وباي ثمن ان ينعتا فاشية شيانغ كاي شيك الاقطاعية ب ((الديموقراطية)) وديموقراطيتنا الجديدة ب ((التوتاليتارية)) فانهما يملكان بلا ريب هذه ((الحرية)). ولكن شعب الصين يريد بلا ريب ايضا ان يسلك طريق الديموقراطية الجديدة الذي حدده ماو تسي تونغ ، لا طريق الفاشية الاقطاعية الذي حدده شيانغ كاي شيك ... واننا لنأمل ان تتدخل بقوة جميع العناصر المستقيمة من

الرأي العام الاميركي ، والسياسيون والعسكريون ممن هم على استعداد لمعاملتنا على قدم المساواة ، من اجل تصحيح سياسة هارلي المغلوطة ، وذلك حتى نقهر مها اللصوص اليابانيين ونبني السلم في العالم ، في حين ان انتصار تلك السياسة لا يمكن ان يؤدي الا الى تأخير النصر على اليابان وتدمير السلم العالمي.

مقتطفات من افتتاحيتين كتبهما ماو تسي تونغ في ١٢ و ١٩ تموز ١٩٤٥ لوكالة ((الصين الجديدة)) . وقد نشرتا في حينه مغفلتين من التوقيع.

*

الثورة تستطيع ان تغير كل شيء ^

ان البشر هم اثمن ما في العالم. وتحت قيادة الحزب الشيوعي يكفي ان يكون هناك بشر حتى يصبح في الامكان تحقيق أي معجزة مهما كانت. اننا ندحض نظرية اتشيسون المضادة للثورة ، ونؤمن بان الثورة تستطيع ان تغير كل شيء. ولسوف نرى ، قبل مرور حقبة طويلة ، صينا جديدة ، سكانها عديدون ، منتجاتها وفيرة ، حياتها ميسورة ، ثقافتها ساطعة. وجميع المشاعر المتشائمة لا اساس لها البتة ...

من افتتاحية لماو تسي تونغ في ١٦ايلول ١٩٤٩ لنقد ((الكتاب الابيض الامريكي)).

*

برقية الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري ^

الى الرفيق العربي بوهالي والى جميع الرفاق في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري :

اسمحوا لي بالتعبير عن امتناني العميق لرسالة التهنئة التي بعث بها الرفيق العربي بوهالي.

لقد نال الشعب الصيني تحرره بعد مرحلة طويلة من العدوان والاضطهاد على يد الامبريالية. ومن ثم فانه يشعر بتعاطف حار وثقة تامة تجاه النضالات التحررية لجميع الشعوب المضطهدة. وانني لعلى قناعة بان الشعب الجزائري ، بقيادة الحزب الشيوعي الجزائري وبمساعدة معسكر السلم والديمقراطية الاممي ، سيتوصل في النهاية الى الاطاحة بهيمنة الامبريالية.

عاش انتصار النضال التحرري للشعب الجزائري!

رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني : ماو تسي تونغ

٢٦ تشرين الاول ١٩٤٩.

*

برقية الى الأمين العام للحزب الشيوعي الهندي : ب. ت. رانادیف ^

الرفيق العزيز رانادیف

تلقيت برقية تهنئتك المؤرخة في ١٢ تشرين الاول ، وانني لاشكرك كثيرا على تمنياتك الحارة الموجهة الى الجمهورية الشعبية الصينية و الحزب الشيوعي الصيني. ان الشعب الصيني باسره قد شعر بالفرح و الكبرياء عندما قرأ في برقيتك التعبير عن الصداقة الاخوية للشعب الثوري الهندي. ان الشعب الهندي واحد من اكبر شعوب آسيا ، ذو تاريخ مديد وسكان كثيرين. ومصيره الماضي وطريقه الى المستقبل يشبهان من اكثر من وجه مصير الصين وطريقها. وانني لعلى قناعة لا

تتزعزع بان الهند ، بالاستناد الى الحزب الشيوعي الهندي الباسل والى وحدة جميع الوطنيين الهنود ونضالهم ، لن تبقى طويلا تحت نير الامبريالية وعملائها. وسوف تظهر الى الوجود ذات يوم هند حرة تنتمي ، مثلها مثل الصين الحرة ، الى الاسرة الكبيرة للاشتراكية والديمقراطية الشعبية. ولسوف يضع هذا اليوم حدا لعصر الامبريالية والرجعية في تاريخ الانسانية. انني اتمنى انتصار وحدة الشعب الهندي ونضاله! عاشت الوحدة الاخوية بين الشعب الهندي و الشعب الصيني!

رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني : ماو تسي تونغ ،

١٩ تشرين الثاني ١٩٤٩.

*

الصداقة الكبرى ^

ان اكبر عبقرية في العصر الحاضر ، اعظم مرشد للحركة الشيوعية الاممية ، رفيق النضال للينين الخالد ، الرفيق جوزيف فيساريو نوفيتش ستالين ، قد قال وداعا والى الابد.

ان مساهمة الرفيق ستالين في عصرنا ، سواء على الصعيد النظري ام على صعيد الممارسة ، لا تقدر. فقد كان ستالين ممثل العصر الجديد الذي ننتمي اليه. ولقد قاد نشاطه الشعب السوفياتي والشعب الكادح في الاقطار كافة الى قلب وضع العالم باسره ، عن طريق انتصار القضية العادلة للديمقراطية الشعبية وللاشتراكية في جزء كبير من العالم ، في ثلث الكرة الارضية الذي يضم ما ينيف على ٨٠٠ مليون نسمة من السكان ...

لقد طور الرفيق ستالين الماركسية – اللينينية على جميع المستويات ، بصورة تبقى ذكرا دائما... لقد طور الرفيق ستالين بصورة خلاقة نظرية لينين حول لا تساوي تطور الرأسمالية ، وحول امكانية انتصار الاشتراكية في قطر واحد من البداية ، وساهم الرفيق ستالين على نحو مبدع في نظرية الازمة العامة للنظام

الرأسمالي ، وساهم في نظرية بناء الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ، ونظرية القوانين الاقتصادية الاساسية للرأسمالية والاشتراكية في عصرنا ، ونظرية الثورة في المستعمرات وانصاف المستعمرات. وطور الرفيق ستالين علاوة على ذلك وبصورة خلاقة نظرية لينين حول بناء الحزب. وجميع نظريات الرفيق ستالين الخلاقة هذه حققت المزيد من التقدم لوحدة عمال العالم قاطبة ، وكذلك وحدة الطبقات والشعوب المضطهدة في العالم قاطبة. لقد رفعت الى مستوى منقطع النظير نضالات وانتصارات الطبقة العاملة والناس المستغلين في العالم باسره من اجل التحرر والسعادة. وجميع مؤلفات الرفيق ستالين وثائق ماركسية لا ينضب لها معين. ان مؤلفاته ((اسس اللينينية)) و ((تاريخ الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي)) وكذلك مؤلفه الكبير الاخير ((المشكلات الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي)) ، لهي موسوعات للماركسية – اللينينية ، وهي تشكل تركيب الحركة الشيوعية الاممية منذ مئة عام ... ولقد بحثنا نحن الشيوعيين الصينيين ، شأننا شأن شيوعيي سائر بلدان العالم ، في مؤلفات الرفيق ستالين العظيمة عن انتصارنا الخاص.

لقد كان ستالين ، منذ وفاة لينين ، الشخصية المركزية للحركة الشيوعية العالمية. كنا نرص الصفوف حوله ، ونسأله النصح باستمرار، ونستمد باستمرار قوى فكرية من مؤلفاته. وكان الرفيق ستالين ممتلئا حماسة تجاه شعوب الشرق المستغلة. ((لا ننسين الشرق[1])) : هذا ما كانه الشعار العظيم للرفيق ستالين قبل ثورة اوكتوبر وبعدها. والعالم اجمع يعرف ان الرفيق ستالين كان يحب بحرارة الشعب الصيني ، ويقدر ان قوة الثورة الصينية اكبر من ان تقدر. ولقد كان يدلل على حكمة سامية جدا بصدد مشكلات الثورة الصينية. ولئن كان الحزب الشيوعي الصيني والشعب الصيني قد حققا ، منذ بضع سنوات ، نصرا تاريخيا ، فانما ذلك بفضل اتباع مذهب لينين وستالين وتأييد الدولة السوفياتية العظيمة والقوى الثورية في جميع البلدان.

---

[1] - يشير ماو تسي تونغ ههنا الى مقالة لستالين صدرت في عام ١٩١٨ تحت العنوان نفسه . ((المعرب))

ولقد فقدنا الآن مرشدنا العظيم واخلص اصدقائنا : الرفيق ستالين. انها لكارثة مروعة! وهذه الكارثة تسبب لنا حزنا يستحيل وصفه بالكلمات.

ومهمتنا ان نحول حزننا الى قوة ، وتخليدا لذكرى مرشدنا الاكبر ستالين ، سيعمل الحزب الشيوعي الصيني والشعب الصيني والشعب الصيني من جهة اولى، والحزب الشيوعي السوفياتي والشعب السوفياتي من الجهة الثانية ، على تعزيز اواصر الصداقة العظيمة التي تجمع بينهم تحت اسم ستالين الى غير ما حدود في المستقبل ...

ان الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي حزب اسسه شخصيا لينين وستالين ، الحزب الاكثر تقدما والاكثر تمرسا والافضل تكونا في العالم من وجهة النظر الايديولوجية. ولقد كان هذا الحزب قدوتنا في الماضي وفي الحاضر، وسيكون ايضا قدوتنا في المستقبل. واننا لعلى قناعة تامة بان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ، وعلى رأسها الرفيق مالنكوف ، والحكومة السوفياتية قادرتان بكل تأكيد على تحمل مسؤولية تراث رغبات ستالين الاخيرة وعلى تحقيق المزيد من التقدم لقضية الشيوعية الكبرى ، وعلى جعلها اكبر واعظم ايضا ...

ان الصداقة الكبيرة بين شعبي الصين والاتحاد السوفياتي غير قابلة لان تتزعزع، لان صداقتنا مبنية على اساس المباديء الاممية الكبرى لماركس وانجلز ولينين وستالين ...

ولا ريب في ان القوة المتولدة عن هذه الصداقة لا ينضب لها معين ولا يقف في وجهها شيء.

الا فليرتعد جميع المعتدين الامبرياليين وجميع مجرمي الحرب امام صداقتنا العظيمة!.

عاش مذهب ماركس وانجلز ولينين وستالين!

ان ذكرى ستالين لن تفنى!

من مقال لماو تسي تونغ في ١٩٥٣ بمناسبة وفاة ستالين.

*

٦٠٠ مليون معدم ^

... كيف يستطيع المرء ان يؤكد ان ٦٠٠ مليون من المعدمين لن يكونوا قادرين، في مدى بضع عشرات من السنين ، على ان يتحولوا الى بلد اشتراكي غني وقوي؟ ان ثروات المجتمع يخلقها العمال و الفلاحون و المثقفون الشغيلون. ويكفي ان يقبض هؤلاء الناس على زمام مصيرهم بايدهم ، وان يسيروا في طريق ماركسي – لينيني ، فلا يهربوا من المشكلات بل يتصدوا لها بروح ايجابية ، حتى لا تعود في العالم من صعوبة لا يستطيعون تذليلها...

من تعليق لماو تسي تونغ في عام ١٩٥٥ على حملة تعميم التعاونيات الزراعية في الصين.

*

ما من قوة في العالم تستطيع التفريق بيننا ^

الرفاق الاعزاء خروتشيف وفوروشيلوف وبولغانين ، الرفاق والاصدقاء الاعزاء:

ان عيد ثورة اوكتوبر هو عيد الانتصار العظيم للشعب السوفياتي. وهو ايضا عيد الانتصار العظيم للبروليتاريا وللجماهير الكادحة وللشعوب المضطهدة في العالم قاطبة. هذا الانتصار، الذي حققه قبل اربعين عاما ، الشعب السوفياتي بقيادة لينين العظيم والحزب الشيوعي العظيم في الاتحاد السوفياتي ، قد افتتح عصرا جديدا في تاريخ الانسانية. وخلال الاربعين عاما من البناء حقق الاتحاد السوفياتي بسرعة خارقة نجاحات باهرة وهو يقف في الصف الاول بين جميع شعوب العالم في العديد

من المجالات. ولقد قدم نموذجا ممتازا فيما يتعلق بنشدان السعادة والتقدم للشعب. واطلاق الاتحاد السوفياتي للقمر الصناعي الاول ليس حادثا بسيطا. فلقد بدأ معه عصر جديد في غزو الانسانية للطبيعة تدريجيا.

ان المعسكر الاشتراكي ، وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي ؛ هو الحصن المنيع الذي يحفظ السلم العالمي ، وهو الصديق الامين لجميع الشعوب التي لا تريد أن تقع تحت نير الاضطهاد والاستعباد الامبرياليين ..

لقد حفزت ثورة اوكتوبر الشعب الصيني على اكتشاف طريق التحرر الكامل والازدهار والغنى والقوة. ولقد حظي الشعب الصيني ، في قضيته الخاصة به ، بتعاطف كبير وبمساعدة سخية من جانب الشعب السوفياتي. ولقد عقد شعبا بلدينا تحالفا اخويا عبر النضال المشترك. وما من قوة في العالم تستطيع التفريق بيننا.

ايها الرفاق ، اننا سنكون ابدا معا ، مكافحين من اجل السلم العالمي وانتصار قضيتنا المشتركة.

المجد لثورة اوكتوبر الاشتراكية!

المجد للشعب السوفياتي العظيم وللحزب الشيوعي السوفياتي العظيم!

عاشت الصداقة العظيمة بين شعوب الصين والاتحاد السوفياتي!

عاش السلم العالمي!

من خطاب لماو تسي تونغ في ٢ تشرين الثاني ١٩٥٧ في مطار موسكو.

*

ريح الشرق تغلب ريح الغرب ^

ان ثورة اوكتوبر الاشتراكية تشكل منعطفا في تاريخ العالم. وظهور قمرين صناعيين في السماء وقدوم ٦٤ حزبا شيوعيا وعماليا الى موسكو للاحتفال بعيد

ثـورة اوكتـوبر يشـكلان منعطفـا جديـدا. ان قـوى الاشـتراكية تتفـوق علـى قـوى الامبرياليـة. وللقـوى الامبرياليـة رأس ، هـو امريكـا. وينبغـي ان يكـون لمعسـكرنا الاشتراكي ايضا رأس ، وهذا الرأس هو الاتحاد السوفياتي. ولو لـم يكـن لنـا رأس ، لهدرت قوانا بالتفتت ... ولـئن كـان ممثلـو ٦٤ حزبـا شيوعيا وعماليـا قد قدِموا هذه المـرة الـى موسـكو للمشـاركة فـي احيـاء الـذكرى الاربعـين لمـيلاد ثـورة اوكتـوبر الكبرى، فان هذا لحدث عظيم الاهمية يظهر للعيان وحدة الدول الاشتراكية ، وعلـى رأسها الاتحاد السوفيتي ، ووحدة الاحزاب الشيوعية والعماليـة فـي العـالم قاطبـة مـع الحـزب الشـيوعي للاتحـاد السـوفياتي بوصـفه المركـز ... لقـد تبـدل اتجـاه الـريح فـي العالم. وفي الصراع بين المعسكر الاشـتراكي و المعسـكر الرأسـمالي ، ليسـت ريـح الغرب هي التي تغلب ريح الشرق ، وانما ريح الشرق هي التي تغلب ريـح الغـرب. ان مجمل سكان العالم اليوم ٧،٢ مليـار. وسـكان مجمـل البلـدان الاشـتراكية يقـاربون المليار، وسكان المستعمرات القديمة التي أضحت مستقلة يزيدون علـى ٧٠٠ مليـون، والدول التي في سبيلها الى انتزاع استقلالها او التي حققت من الان استقلالا كاملا ، والدول الرأسمالية التي لها ميول الـى الحيـاد تضـم بالاجمـال ٦٠٠ مليـون نسـمة مـن السكان ، بينمـا لا يتجـاوز سكان المعسكر الامبريـالي ٤٠٠ مليـون نسـمة. وعـلاوة على ذلك فانهم منقسمون فيما بينهم. ومن الممكن ان تقع هنـاك زلازل أرضـية. ان ريح الغرب لا تغلب الان ريح الشرق ، بل هي ريح الشرق التي تغلب على العكس ريح الغرب.

مقتطفـات مـن ملاحظـات لمـاو تسـي تونـغ أثنـاء زيارتـه للطـلاب الصينيين في موسكو ، في ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٧.

*

الصين فقيرة وبيضاء

ان الروح الشيوعية تتطور تطورا مرموقا في جميع أرجاء البلاد. ووعي الجماهير السياسي يرتفع بسرعة. والفئات المتخلفة من الجماهير تحاول بكل قواها ان تلحق بالفئات المتقدمة. وهذه الواقعة هي بمثابة رمز الى التقدم السريع الذي تحققه الان في بلادنا الثورة الاشتراكية الاقتصادية (في ذلك الجزء من علاقات الانتاج الذي لم يتم بعد تحويله بصورة كاملة) والسياسية والايديولوجية والتقنية والثقافية. وهذا كله يحملنا على الاعتقاد بأن بلادنا قد لا تكون بحاجة ، من وجهة نظر الانتاج الصناعي والزراعي ، الى كل ذلك الزمن الذي كان يقدر للحاق بالبلدان الرأسمالية الكبيرة. فبالاضافة الى قيادة الحزب يشكل السكان البالغ تعدادهم ٦٠٠ مليون نسمة عاملا حاسما فعندما يكون عدد الناس كبيرا ، تكون الافكار والاقتراحات كثيرة ، والحماسة عالية ، والطاقة كبيرة. وفي الماضي ما كان أحد يدرك ان روح الجماهير الشعبية متوثبة الى هذا الحد وان معنوياتها مرتفعة الى هذا الحد ، وان مزاجها جامح الى هذا الحد. لقد غرقت الطبقات المستغِلة القديمة نهائيا في البحر الخضم للجماهير الكادحة ، وحتى لو كانت لا تريد ان تتغير فانها مكرهة على ان تتغير. وطبيعي ان هناك أولئك الذين لن يتغيروا حتى الممات ، أولئك الذين سيمثلون أمام الرب برأسهم الصخري نفسه ، ولكن هذا لا يؤثر بشيء على اللوحة العامة. ان جميع الايديولوجيات المتعفنة وسائر الاجزاء غير المتكيفة من البنية الفوقية تنهار يوما بعد يوم. وبدهي ان تكنيس هذه الاوساخ عن بكرة ابيها يستلزم بعض الوقت ، ولكن انهيارها تام من الان. وهذا أمر محقق لا ريب فيه. ان الشعب الصيني ، المؤلف من ٦٠٠ مليون نسمة يمتاز ، علاوة على صفاته الاخرى ، بميزتين مرموقتين : انه فقير وأبيض. وهذان شيئان سيئان في الظاهر، ولكنهما في الواقع جيدان. فمن هم فقراء يريدون تغيير الوضع القائم ، يريدون بذل الجهود ، يريدون الثورة. والصفحة البيضاء هي ما خلا من أي كتابة. فمن الممكن اذن ان نكتب عليها أجمل الكلمات وأكثرها جدة ، وان نرسم عليها اجمل الصور واكثرها

جدة. ان الصحف الجدارية بالاحرف الكبيرة سلاح فائق النفع ومن نوع جديد. وفي المستطاع استخدامها في المدن والقرى والمصانع والتعاونيات والدكاكين والمكاتب والمدارس والجيش والشوارع ، وباختصار حيثما تتجمع الجماهير ... لقد كتب شاعر سلالة كينغ ، غونغ زي زهن ، السطور التالية :

((ألا فلتوقظ رعود الصاعقة البلاد!

ويلاه ، ألا فليهب عشرة آلاف حصان أخرس.

فانني أتضرع الى رب السماء ان يرسل المزيد من الرجال الموهوبين)).

ان الصحف الجدارية الكبيرة ستمزق جو الكآبة الذي ((يهب فيه عشرة آلاف حصان أخرس))... فهل ما يزال شعب الصين الكادح شعبا من العبيد كما كان في الماضي؟ كلا ، فكل فرد منه أصبح سيد نفسه. واليوم ، وعلى امتداد الملايين ال ٩،٦ من الكيلومترات المربعة للجمهورية الشعبية الصينية. بدأ الشعب الكادح بالسيادة حقا على أراضيه.

من مقال لماو تسي تونغ في ١٥ نيسان ١٩٥٨ بمناسبة صدور العدد الاول من مجلة ((العلم الاحمر)).

*

الجماهير تستطيع ان تفعل كل شيء ^

خلال هذه السفرة رأيت طاقة الجماهير الهائلة. وعلى هذا الاساس يمكن انجاز أي مهمة مهما تكن. وينبغي قبل كل شيء انجاز المهام في جبهة صناعة الحديد. بيد ان تعبئة الجماهير على مستوى البلاد بأسرها لم تتم كما يجب في بعض الاماكن وفي بعض المشاريع ، ولم تعقد بعد اجتماعات جماهيرية ، ولم تشرح الاسباب والاساليب بوضوح للجماهير، ولم تناقش من قبل الجماهير وحتى الساعة الراهنة ما يزال هناك بعض رفاق لا يريدون الشروع بحركة جماهيرية على نطاق واسع في

مضمار الصناعة. وهم يصفون الحركة الجماهيرية في الجبهة الصناعية بأنها شيء ((غير نظامي)) ويبخسونها قيمتها بوصفها ((أسلوبا قرويا للعمل)) او ((عادة من عادات حرب الانصار)). وهذا بكل جلاء خاطيء.

من تصريح لماو تسي تونغ لمراسل وكالة أنباء ((الصين الجديدة)) في ٢٩ أيلول ١٩٥٨ ، في أعقاب جولة تفقدية في أرجاء الصين.

*

فهرس تاريخي:

كانون الاول ١٨٩٣ : ولادة ماو تسي تونغ في قرية شاو شان في اقليم هونان.

١٨٩٥ : أرغمت الصين ، بعد هزيمة اليابان لها ، على الاعتراف باستقلال كوريا وعلى التنازل عن جزر تايوان والبسكادور لليابان.

١٨٩٨ : فشل المحاولة الاصلاحية التي قام بها كانغ يو وي وليانغ كي شاو وتان سي تونغ.

١٩٠٠ : ثورة الملاكين وقمعها من قبل الدول الاجنبية.

تشرين الاول ١٩١١ : تمرد حامية ووشانغ في اقليم هوبي وتحوله الى ثورة عامة بقيادة أنصار صن يات صن القومي النزعة.

ماو تسي تونغ يتطوع في الجيش المعادي للنظام الملكي ويبقى فيه ستة أشهر.

شباط ١٩١٢ : سقوط حكم السلالة الامبراطورية المنشورية واعلان الجمهورية.

١٩١٣ : تشكيل المنظمات العمالية الاولى في الصين. بداية تسرب الماركسية الى الاوساط المثقفة. انتساب ماو تسي تونغ الى دار المعلمين في شانغشا.

كانون الاول ١٩١٣ : يوان شي كاي ينصب نفسه دكتاتورا ويحل البرلمان ويحظر الكيومنتانغ.

١٩١٥ : تأسيس المجلة المعادية للتقاليد ((الشبيبة الجديدة)).

١٩١٦ : وفاة يوان شي كاي ، ووقوع الصين تحت قبضة ((سادة الحرب)).

نيسان ١٩١٧ : ((الشبيبة الجديدة)) تنشر مقال ((دراسة حول التربية البدنية)) بتوقيع ((ارشيبا هوا شينغ)) وهو الاسم المستعار لماو تسي تونغ.

خريف ١٩١٨ : ماو تسي تونغ يرحل الى بكين ويصبح مساعد أمين المكتبة في الجامعة ، لي دا زهاو.

آذار ١٩١٩ : تأسيس الاممية الثالثة وانعقاد مؤتمرها الاول.

نيسان ١٩١٩ : رحيل ماو من جديد الى شانغشا.

٤ أيار ١٩١٩ : بداية حركة احتجاج الطلاب على قرار منح شاندونغ لليابان ورفع شعارات: البعث الثقافي والنضال ضد الامبريالية والاصلاحات الاجتماعية.

تموز ١٩١٩ : ماو تسي تونغ يؤسس مجموعة ماركسية في هونان ويعمل في أوساط النقابات.

أيلول ١٩٢٠ : اجتماع عام للشيوعيين الصينيين في شانغهاي تمهيدا لتأسيس الحزب الشيوعي الصيني ، وانشاء لجنة مركزية مؤقتة يرأسها شن دو كسيو.

أيار ١٩٢١ : انتخاب صن يات صن رئيسا للجمهورية في كانتون.

تموز ١٩٢١ : المؤتمر الثالث للاممية الشيوعية في موسكو. ماو تسي تونغ يحضر المؤتمر الاول التأسيسي للحزب الشيوعي الصيني ، وانتخاب شن دو كسيو أمينا عاما.

تشرين الاول ١٩٢١ : ماو تسي تونغ يصبح أمينا للحزب الشيوعي الصيني في هونان.

آب ١٩٢٢ : اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني تقبل ، تحت ضغط مندوب الاممية الثالثة مارينغ ، بسياسة الانتماء الفردي الى الكيومنتانغ.

حزيران ١٩٢٣ : المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي الصيني وانتخاب ماو تسي تونغ عضوا في اللجنة المركزية التنفيذية.

كانون الثاني ١٩٢٤ : المؤتمر القومي الاول للكيومنتانغ يصادق على سياسة التحالف مع الاتحاد السوفياتي ، وعلى قبول الشيوعيين بصفة فردية.

وفاة لينين.

هزيمة تروتسكي والمعارضة في الاتحاد السوفياتي.

حزيران – تموز ١٩٢٤ : المؤتمر الخامس للاممية الشيوعية في موسكو وادانة التروتسكية.

كانون الثاني ١٩٢٥ : المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي الصيني واعادة انتخاب شن دو كسيو.

آذار ١٩٢٥ : وفاة صن يات صن.

أيار ١٩٢٥ : حركة اضراب عمالي واسعة ، وارتفاع عدد أعضاء الحزب الشيوعي الصيني من ٩٠٠ الى ٢٠٠٠٠ عضو.

ماو تسي تونغ ينتقل الى هونان لتنظيم الحركة الفلاحية.

٣٠ أيار ١٩٢٥ : الشرطة الانكليزية في شانغهاي تقتل ثلاثة عشر متظاهرا.

حزيران ١٩٢٥ : مجزرة أخرى يرتكبها البوليس البريطاني واتساع حركة الاحزاب واستمرارها ثلاثة أشهر.

خريف ١٩٢٥ : الجناح اليميني من الكيومنتانغ يقرر تصفية الشيوعيين.

تشرين الاول ١٩٢٥ : الاممية الشيوعية توصي الشيوعيين الصينيين بالبقاء في الكيومنتانغ.

آذار ١٩٢٦ : المجلس التنفيذي للاممية الشيوعية يعرف في دورته السادسة الكيومنتانغ بأنه ((الكتلة الثورية للعمال والفلاحين والمثقفين والديمقراطية المدنية)) (كتلة الطبقات الاربع). الكيومنتانغ يقبل كحزب ((نصير)) في الاممية الشيوعية ، وشيانغ كاي شيك ((عضوا فخريا)) في مجلسها الرئاسي.

٢٠ آذار ١٩٢٦ : شيانغ كاي شيك يعلن الاحكام العرفية ويغلق مقرات المنظمات العمالية في كانتون ويصادر الاسلحة ويعتقل عددا من الشيوعيين.

حزيران ١٩٢٦ : بداية حملة الشمال ضد سادة الحرب وحكومتهم في بكين.

تشرين الاول ١٩٢٦ : برقية من المجلس التنفيذي للاممية الشيوعية تطلب من الشيوعيين الصينيين عرقلة الحركة الفلاحية حتى لا ((ينزعج)) ضباط جيش شيانغ كاي شيك أثناء حملة الشمال.

كانون الثاني ١٩٢٧ : ماو تسي تونغ يرحل الى هونان ويكتب ((تقرير بصدد التحقيق عن الحركة الفلاحية في هونان)).

١٩ شباط ١٩٢٧ : أول هجوم علني لشيانغ كاي شيك على الشيوعيين.

٥ نيسان ١٩٢٧ : ستالين يؤكد في موسكو استحالة قيام شيانغ كاي شيك بانقلاب ، كما يؤكد حتمية فشله في حال وقوعه.

١٢ نيسان ١٩٢٧ : شيانغ كاي شيك يهاجم المنظمات العمالية في شانغهاي ، وسقوط آلاف القتلى من الشيوعيين.

٢٨ نيسان ١٩٢٧ : رجال شيانغ يهاجمون دار السفارة السوفياتية في بكين وتنفيذ حكم الاعدام في عدد من القادة الشيوعيين البارزين وفي مقدمتهم دا زهاو.

٢١ أيار ١٩٢٧ : مجزرة جديدة ضد الحركة العمالية والفلاحية في شانغشا.

١ آب ١٩٢٧ : تمرد ٢٠٠٠٠ جندي في نانشانغ بقيادة عناصر شيوعية: شو ته وشو ان لاي وآخرين.

٧ آب ١٩٢٧ : اجتماع طارىء للحزب الشيوعي الصيني وادانة خط شن دو كسيو الانتهازي واعتباره مسؤولا عن الهزيمة وانتخاب كو كيو بي أمينا عاما للحزب.

أيلول ١٩٢٧ : ارسال ماو تسي تونغ الى شانغشا لتوجيه الثورة ابان حصاد الخريف. وبعد فشل الحركة يلتجىء الى جيغانغشان ليؤسس فيها قاعدة ثورية.

١١ ــ ١٤ كانون الاول ١٩٢٧ : بناء على أوامر ستالين يقوم الشيوعيون الصينيون بالعصيان المعروف باسم ((كومونة كانتون)) ، وشيانغ يقمع العصيان بوحشية.

نيسان ١٩٢٨ : تلاقي قوات ماو وقوات شو ته في جيغانغشان ، وانشاء الجيش الاحمر الرابع ، ويصبح شو ته قائدا عسكريا وماو تسي تونغ مفوضا سياسيا.

صيف ١٩٢٨ : المؤتمر السادس للحزب الشيوعي الصيني في موسكو. ادانة كو كيو بي بالنزعة الانقلابية وتحميله مسؤولية فشل كومونة كانتون ، وانتخاب لي لي سان بدلا منه مع شو ان لاي.

آب ١٩٢٩ : ماو وشوته يؤسسان نظاما سوفياتيا في كيانغسي.

صيف ١٩٣٠ : فشل محاولة لي لي سان في احتلال شانغشا ، وادانته بتهمة النزعة الانقلابية.

تشرين الثاني ١٩٣٠ : شيانغ كاي شيك يشن ((حملة الابادة)) الاولى ضد المنطقة السوفياتية في كيانغسي.

أيار ١٩٣١ : شيانغ يشن ((حملة الابادة)) الثانية.

تموز ١٩٣١ : شيانغ يشن ((حملة الابادة)) الثالثة.

١٨ ايول ١٩٣١ : هجوم ياباني على موكدن.

١ تشرين الثاني ١٩٣١ : اعلان قيام الجمهورية السوفياتية الصينية برئاسة ماو تسي تونغ.

نيسان ١٩٣٢ : الحكومة المركزية المؤقتة للجمهورية السوفياتية الصينية تعلن الحرب على اليابان.

أيار ١٩٣٢ : هدنة بين شيانغ كاي شيك واليابانيين.

حزيران ١٩٣٢ : شيانغ يشن ((حملة الابادة)) الرابعة.

تشرين الاول ١٩٣٢ : أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني يفرون من شانغهاي ويلتجئون الى كيانغسي ، ومن بينهم الامين العام للحزب وانغ مينغ وشو ان لاي وليو شاو شي.

٢ تشرين الاول ١٩٣٣ : شيانغ يشن ((حملة الابادة)) الخامسة.

كانون الثاني ١٩٣٤ : المؤتمر الثاني للسوفييتات الصينية واعادة انتخاب ماو رئيسا.

١٦ تشرين الاول ١٩٣٤ : بداية ((المسيرة الطويلة)).

كانون الثاني ١٩٣٥ : اجتماع خاص للمكتب السياسي وانتخاب ماو رئيسا للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني.

آب ١٩٣٥ : الحزب الشيوعي الصيني يدعو الى اقامة ((جبهة شعبية من جميع الطبقات)) لمواجهة الخطر الياباني.

خريف ١٩٣٥ : وصول الفصائل الاولى من الجيش الاحمر بقيادة ماو الى الشمال الغربي.

آب ١٩٣٦ : رسالة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني الى الكيومنتانغ تقترح التعاون ضد اليابان.

كانون الاول ١٩٣٦ : عقد هدنة بين الشيوعيين وشيانغ كاي شيك.

تموز ١٩٣٧ : اليابان تشن حربها العدوانية على الصين.

١٥ تموز ١٩٣٧ : اتفاق بين الشيوعيين الصينيين وشيانغ كاي شيك.

آب ١٩٣٧ : معاهدة عدم اعتداء بين الاتحاد السوفياتي وصين شيانغ كاي شيك.

آب – وتشرين الاول ١٩٣٧ : الحزب الشيوعي الصيني يعلن تحويل الجمهورية السوفياتية الى سلطة اقليمية ، والجيش الاحمر يصبح جيش الطريق الثامن والجيش الرابع الجديد.

تشرين الاول ١٩٣٨ : ماو تسي تونغ يقدم في تقريره ((عن المرحلة الجديدة)) تبريرا نظريا لسياسة التعاون مع الكيومنتانغ.

١٩٣٩ : حكومة شيانغ كاي شيك تبدأ بمحاصرة المناطق التي تحت سيطرة الوحدات الشيوعية.

كانون الثاني ١٩٤٠ : ماو ينشر بعد ((الثورة الصينية والحزب الشيوعي الصيني)) ((الديمقراطية الجديدة)) متراجعا بعض الشيء عن سياسة التنازلات تجاه الكيومنتانغ.

آب ١٩٤٠ : اغتيال تروتسكي.

كانون الثاني ١٩٤١ : القوات الحكومية تهاجم الجيش الرابع الجديد.

شباط ١٩٤٢ : ماو يبدأ حملة التقويم داخل الحزب.

نيسان ١٩٤٥ : المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الصيني وتقرير لماو عن ((حكومة التحالف)).

آب ١٩٤٥ : ماو يركب الطائرة الى شونكينغ ليفاوض شيانغ كاي شيك.

١٠ تشرين الاول ١٩٤٥ : اتفاق بين الحزب الشيوعي الصيني والكيومنتانغ تتبعه ، فورا تقريبا اصطدامات بين المعسكرين.

كانون الثاني ١٩٤٦ : اتفاق لوقف اطلاق النار برعاية الجنرال مارشال.

تموز ١٩٤٦ : بداية الحرب الاهلية على نطاق واسع.

٢٥ كانون الاول ١٩٤٧ : ماو يعلن في تقريره ((الموقف الراهن ومهامنا)) شن هجوم على جميع الجبهات.

كانون الثاني ١٩٤٩ : استيلاء الشيوعيين على بكين.

نيسان ١٩٤٩ : سقوط نانكين.

حزيران ١٩٤٩ : ماو يكتب ((حول دكتاتورية الشعب الديمقراطية)).

تشرين الاول ١٩٤٩ : ماو يعلن قيام الجمهورية الشعبية الصينية.

تشرين الثاني ١٩٤٩ : حكومة الكيومنتانغ تنتقل الى تايوان.

كانون الاول ١٩٤٩ : وصول ماو الى موسكو.

شباط ١٩٥٠ : عقد معاهدة صينية – سوفياتية.

تشرين الاول ١٩٥٠ : المتطوعون الصينيون في كوريا.

كانون الثاني ١٩٥٣ : بداية الخطة الخمسية الاولى.

آب ١٩٥٣ : توقيع اتفاقية الهدنة في كوريا.

تموز ١٩٥٥ : تقرير ماو عن ((مسألة التعاون الزراعي)) يعلن عن سياسة تسريع مباغت للجماعية الزراعية.

نيسان ١٩٥٦ : وجهة نظر ماو في مسألة ((تصفية الستالينية)) تعبر عنها افتتاحية ((صحيفة الشعب اليومية)) : ((حول التجربة التاريخية لدكتاتورية البروليتاريا)).

شباط ١٩٥٧ : خطاب لماو تسي تونغ ((عن الاسلوب الصحيح لحل التناقضات داخل الشعب)) ، وحملة ((لتتفتح مئة زهرة)).

صيف ١٩٥٧ : التراجع باتجاه سياسة ثقافية اكثر تصلبا.

تشرين الثاني ١٩٥٧ : ماو يعلن في موسكو ان ريح الشرق تغلب ريح الغرب.

ايار ١٩٥٨ : ليو شاو شي يعلن في الدورة الثانية للمؤتمر الثامن للحزب الشيوعي الصيني سياسة ((القفزة الكبرى الى الامام)) ونظرية ((الثورة الدائمة)).

ايلول ١٩٥٨ : ماو تسي تونغ يدعو الى تعميم الكومونات الشعبية في جميع أرجاء الصين ، والى انتاج الفولاذ بواسطة تعبئة الجماهير.

١٩٦٠ : المظاهر الاولى لوجود نزاع أيديولوجي بين بكين وموسكو.

١٦ نيسان ١٩٦٠ : أول نص رسمي في النزاع الايديولوجي: ((عاشت اللينينية !)).

تموز ١٩٦٠ : خروتشيف يقرر سحب جميع الخبراء السوفياتيين في الصين في غضون شهر واحد ، بينما كانت الصين تعاني من كوارث طبيعية لم تشهد لها مثيلا منذ قرن من الزمن.

ربيع ١٩٦٢ : اصطدامات دامية في اقليم سينكيانغ على الحدود بين الصين والاتحاد السوفياتي.

خريف ١٩٦٢ : معارك عسكرية بين الصين والهند.

تشرين الثاني ١٩٦٢ : حملة أيديولوجية واسعة النطاق يشنها الاتحاد السوفياتي على الصين.

كانون الاول ١٩٦٢ وآذار ١٩٦٣ : حملة صينية مضادة و ((الردود الستة)).

تموز ١٩٦٣ : تدهور العلاقات بين موسكو وبكين بعد فشل محاولات رأب الصدع.

ايلول ١٩٦٣ وتموز ١٩٦٤ : التعليقات الصينية على ((الرسالة المفتوحة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي)).

١٩٦٥ : بداية ((الثورة الثقافية)).

٨ آب ١٩٦٦ : ((قرار في ١٦ نقطة للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بصدد الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى)).

١٩٦٩ : المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الصيني يكرس سقوط ليو شاو تشي وصعود لين بياو.

فهرست[1]

[1] - تم تغيير ارقام الصفحات الواردة في هذا الفهرست عن ما موجود في النسخة الورقية لهذا الكتاب بحيث تصبح متوافقة مع تسلسل صفحات هذه النسخة الإلكترونية. – ملاحظة الصوت الشيوعي.